مكسيم جوركي

حياتي

ترجمة

خليل حسني

دار المعرفة
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



المقدمة

ان نسبة استيعاب الاثر الأدبي للحياة ، على اختلاف وجوهها وأساليبها ، تحدد مدى الفعالية الانسانية له ، ونقيس درجة بلوغه من المدّ الزمني ، بلوغاً يقرر له الخلود أو الاندثار .

والعمل الأدبي الذي يكتب له البقاء ، لا تنال منه الإرادات الشريرة ، مما يمكنه من التغلب عليها ، ولا القيود إن كبلته تحول دون انطلاقه إلى الأجواء التي ينمو فيها ويثمر. الأجواء البعيدة عن حقارة التشبث بتلابيب الواقع الحسي، الذي تركد فيه المشاعر وتأسن . فتتجمد النظرة الى الحيـــاة في بؤر الخنوع والاستكانة .

ان الأدب الأصيل المتفجر أبداً بالحياة ، ربيب سننها بالتجدد المستمر الدائب على العطاء الخيّر ، في صراع مع اللوالب التي تدور حول محور ثابت ، وتختلط فيها ألوان النزوع والرغبات . وتفقد كل نكهة ذاتية ..

وكان (مكسيم غوركي) أصدق مثال لهذا ، فقد شاء ان ينقل صورة أمة بكاملها من خلال صورة لحياته .. حياته التي ترتبط بكل نظرة مكبوتة في أعين الشعب الروسي ، وتنبثق من كل لهفة تمور في كل خاطر حرّان لفجر جديد ، تتسع آفاقه وتضج بالنور. الذي يضيء سبل الصعود إلى ما هو أسمى وأحق ..

ان المعاني الانسانية التي يكابد من اجل الغوص إلى أعماقها ، جعلته كادحاً كبقية الكادحين الذين، كان يعدو لاهثاً وراء المباعث التي تسبب شقاءهم . لقد كان يندس في حنايا كهوفهم المظلمة ويتعلق بالحبال الواهية التي كانت تشد زوارقهم الى صخور الشاطىء .. كان إنساناً يعيش واقع كل منهم ويؤثر ان يذوق ما يذوقونه من مرارة البؤس والحرمان من غير ان ينسى ان نظراته ما زالت ممتدة الى البعيد . ترتعش فيها آماله المكتومة ، التي هي في نفس الوقت . آمالهم وأحلامهم المتواضعة البسيطة ...

ان « غوركي » في الصميم عانى تجربة الحياة ، ومن الصميم ينقل رؤياه . والصميم منا أخيراً كان يرمي .. فأصاب ..

المترجم

١

لقد استلقى والدي على الأرض تحت نافذة غرفة صغيرة داكنة قد ازدحمت بالغبار ، وقد بدا لي طويلاً بشكل يلفت الانتباه ويثير الدهشة ، وقد اكتسى البياض من أعلى رأسه حتى قدميه . وقد انفرجت أصابع قدمه الحافية بشكل غريب ، وتباعد ما بينها بحركة تشنجية ، وبدت اصابع يـــديه اللطيفتين ملتوية بعناد فاضح ، وقد التف حول عينيه إطار مغلق ، وقـــد أصبح وجهه شديد الزرقة ، وقد راعني بصورة خاصة انكماش أسنانه الاصطناعية وبروزها بين فكين متوترين .

وقد جلست بالقرب منه والدتي النصف عارية في تنورتها الحمراء القصيرة ، مهتمة بتسريح شعرها الطويل الحريري ، المتدلي بعناد على جبينها ، بمشط أسود قد اعتدت استعماله كمنشار احز به قشر البطيخ ، وكانت تتمتم بأشياء كثيرة مبهمة بصوت مبحوح .

وكانت جدتي ـ امرأة نحيلة الجسم ، كبيرة الرأس ، بارزة العينين ،وقد برز انفها بشكل يدعي الى الهزء والتهكم ـ تمسك بيدي ، وكانت كثيرة النعومة ، عظيمة الكآبة ، وكل شيء فيها فائق الفتنة ... وكانت أيضاً تذرف الدموع ، بطريقة خاصة تشكل لحناً عذباً يصطحب بكاء أمي . وكانت تهتز كلياً ،وهي تدفع بي باصرار نحو والدي ، بيد انني كنت أعود الى الوراء . وأبحث عن ملجأ لي خلف تنورتها ... لقد كنت خائفاً ومنزعجاً في وقت واحد .

انني لم ارَ ابداً الكبار يبكون من قبل ، ولم اكن افهم معنيّ لتلك الكلمات التي اخذت جدتي ترددها على مسمعي :

ـ تقدم ودّع والدك ، لأنك لن تشاهده بعد الآن . لقد مات . يا عزيزي . ذهب قبل ان يحل اجله ، قبل ان تدق ساعته ...

كنت قد شفيت حديثاً من مرض عضال الزمني الفراش فترة طويلة ، زارني اثناءه والدي ، وما زلت اذكر جيداً . وبدأ يلاعبني ويمازحني في شيء من المرح والسعادة . بيد انه توارى ، فجأة ، واخذت مكانه هـــذه المرأة الغريبة ، جدتي !

سألتها :

ـ هل سرت كثيراً حتى بلغت هذا المكان ؟

فأجابتني :

ـ انني لم أسر ، بل ركبت ! فانك لا تقدر السير على وجه الماء ، ايهـــا الفاسق الصغير ! لقد نزلت من نيجني نوفجورود ، من فوق ...

لقد كان هذا الكلام مبهماً بالنسبة إليّ ، وان ترك في نفسي اثراً مضحكاً: كان يقطن القبو كاليكي أصفر البشرة يعمل في تجارة الجلود ، جلود الغنم ، وكان في مقدورك ان تنزل اليه بالتزحلق على حافة السلم ، أو تدحرجاً إذا زلت بـــك القدم ، بيد ، ما دخل المياه في هذا الموضوع ؟ إنها خاطئة ، وهي تخلط بين الاشياء بشكل غريب .

نقلت :

ـ لماذا تناديني بالفاسق الصغير ؟

ندوى جوابها الضاحك .

ـ لأنك كبرت كثيراً .

كان اسلوبها في الكلام لطيف ، جميل ... لذلك اصبحت وجدتي صديقين حميمين ، منذ اليوم الاول الذي التقينا فيه . أما الآن فالقلق يسيطر عـــليّ ، واريد ان نخرج معاً من هذه الغرفة بأقصى سرعة .

كانت دموع امي تثير فيّ مخاوف غريبة لا تحصى ، فللمرة الاولى اشاهدها في تلك الحال .. فهي واجمـــة صامتة دائماً ، أنيقة الهندام دائمـــاً ، عريضة الكتفين ، متينة الجسد قويته ... بيد انها الآن أصبحت مترهلة الأعضـــاء ، وهندامها لا يبعث الارتياح ، مشعثة ، مهترئة الثياب ، وقد تبعثر شعرها على كتفيها العاريتين وانفلتت منه خصلة راحت تدغدغ وجه ابي النائم . ولم تنتبه لي مطلقاً فقد شغلها عني تصفيف شعر زوجها ، وانهيار الدموع عليه .

وفجأة فتح الباب ، ورمى الجندي وبعض الفلاحين بنظرة عجلى على الغرفة ، ثم صاح الخفير بحدة :

ـ اسرعوا ، وخذوه خارجاً !

كان الغطاء الاسود اللون المنسدل على النافذة ، ينتفخ بسبب مجرى الهواء ، كأنه شراع قارب صغير ، ذكرني بما جرى لي ذات يوم عندمـــا رافقت ابي في نزهة على متن قارب شراعي ، ودوت عاصفة من الرعد فجأة . فقهقه وضمني بين ركبتيه وقال .

ـ لا تخف ، فلا بأس عليك ، يا بنيّ !

وعلى حين غرة ، تحاملت أمي على نفسها بصعوبة ، ثم ما لبثت أن هوت على الارض ، فانتشر شعرها وازرق وجهها . وتوارى منه كل شيء ، والتحمت اسنانها كالتحام اسنان ابي تماما .

قالت في صوت مخوف وشي اللهث ،

ـ اقفل الباب ، واخرجي الكرسي !

فدفعتني جدتي جانبا ، ورمت نفسها باتجاه الباب .

ثم صاحت :

ـ لا تقلقوا ، أيها الطيبون ! لا تلمسوها ! اذهبوا ، حبة بالمسيح ! انها ليست كوليرا ، بل ابتداء آلام المخاض .

تواريت خلف صندوق للملابس في زاويـــة معتمة ، اتطلع إلى أمي وهي

تتلوى ، وتشد على اسنانها ، فيما كانت جدتي ترتمي على الارض بجانبها وهي ترتل بلطف وجذل :

ــ باسم الآب والابن ؟ تشجعي يافاريوشا ، يا أم الاله الحنون ، ارحمينا ...

كنت وجلاً . فقد كانت جدتي وأمي تواتران الحركة والتململ على الارض بجانب ابي ، الراقد من غير حراك في مكانه ، تلطمان الوجنات أسفاً عليـــه ، واحياناً تلامسان جسده البارد .

تواتر هذا المنظر فترة طويلة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتسقط من جديـــد على الارض ؛ في حين اخذت جدتي تذهب وتجيء داخل الغرفـــة وخارجها . وانا ساكن لا ادرك معنىً لذلك الاضطراب ... وفجأة ، علا بكاء طفل صغير في الظلمة ...

فتنفست جدتي الصعداء ، وهتفت :

ــ حمداً لله ! إنه صبي !

واشعلت قنديلا ...

لا شك انني استسلمت لسنة من النوم وانا قابع في زاوية الغرفة ،لأنني لم أعد أذكر شيئاً مما جرى بعد ذلك .

أما ثاني ذكريات حياتي فكانت بقعة مهجورة في مقبرة. في يوم ماطر... كنت اقف فوق رابية واطئة من الارض ، وكان التراب موحلاً ، اتأمل تلك الحفرة التي واروا فيها نعش ابي . كان قاع الحفرة مملوءاً بالماء والضفادع . وكنا نقف جماعة مؤلفة من جدتي والغفير وفلاحين يحملان معوليها وانا ،وقد تساقط الغيث بشكل بديع...

صاح الغفير وهو يبتعد .

ــ انزلا عليه التراب !

فانهمرت الدموع من عيني جدتي ، وانثنى الفلاحان وهالا الدفعة الاولى من الوحل في الحفرة ، فتناثر رذاذ الماء ، واندفعت الضفدعتان تقفزان على جوانب القبر طلباً للنجاة . فتصدهما دفعات التراب من جديد الى اعماق الحفرة .

ربتت جدتي على كتفي ، وهتفت :

ـ لنعد يا اليوشا !

فتخلصت من يدها . آبياً العودة .

فندت عنها تنهدة اثارت فيّ بعض الارتياب :

ـ آه يا ربي !

ترى ، أشكواها مني أم من رب السماء ؟

بقيت ساكنة في مكانها مدة طويلة ، حانية الرأس . وقد لبثت مكانها ولن تتحرك قيد انملة ، حتى بعد ان مهد الفلاحان سطح الارض بمعوليهـما ؛ وهبت الرياح حاملة معها الغيث بعيداً . فأمسكت جدتي بيدي ، وقادتني إلى كنيسة قريبة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

وبعد ان خرجنا من المقبرة ، التفتت جدتي إليّ مستفسرة :

ـ لماذا لا تبكي ؟ ينبغي ان تبكي قليلاً !

فأجبتها :

ـ لا أشعر بميل إلى البكاء .

فأجابت بتؤدة :

ـ حسناً ، ان كنت لا تشعر بميل الى البكاء ، فلا حاجة لك به إذن .

استغربت طلبها مني البكاء ، وكنت لا أبكي إلا نادراً ، وإذا بكيت يكون احداً قد جرح شعوري -- ولم ينتزع الألم الجسدي الدموع مني ابداً -- فاذا مـا اهرقتها مرة ، كان ابي يضحك من دموعي ، أما والدتي فتصرخ :

ـ لا تبك ! لا تفعل ذلك !

بعد انقضاء ايام عدة اتخذنا . جدتي وامي وانا ، حجرة صغيرة على مـتن مركب بخاري . كان اخي الوليد مكسيم قد توفي ، وقد لف الآن بثياب بيضاء حزمت بشريط احمر ، يضطجع في إحدى الزوايا على طاولة صغيرة .

جلست فوق امتعتنا ، أرنو الى الخارج من كوة صغيرة ، متديرة . كانت المياه الهائجة القاتمة الزرقة تتدفق تحت الزجاج المبتل ، وتمخ احيان بموجة

عاتية لتنمر الزجاج برذاذها ... عندها ، كنت أقفز مجبراً الى الارض .

وتساعدني جدتي على النهوض بذراعيها اللدنتين ، وترجعني إلى مكاني السابق فوق الامتعة ، وهي تهتف :

ـــ لا تخف ، يا عزيزي .

كان كل شيء يتحرك من حولنا ما عدا والدتي ، التي كانت تقف بثبات ، مستندة الى الحائط ، مغمضة العينين ، وقد بدا وجهها كالح اللون ، عابساً ، ولم تنبس بكلمة طوال الوقت .

كانت جدتي من وقت لآخر تلتفت اليها ، وتحادثها بعطف ورقة لا متناهيتين :

ـــ هلا تناولت بعض الطعام ، يافاريوشا .. لقمة على الأقل.

بيد ان والدتي ما تنفك معتصمة بصمتها ، محتفظة بهدوئها ...

ما فتأت جدتي تكلمني همساً كعادتها ، فهي اذا كلمت والدتي توجهت اليها بصوت أعلى نبرة ، لكن بشيء من الخجل والحذر ، مما جعلني اعتقد بانها تخشى والدتي ، مما ضاعف تَوددي إلى جدتي ، ومتن الروابط بيننا ...

قالت امي ، على حين غرة ، بصوت عالٍ أجش .

ـــ ساراتوف ؟ اين النوتي ؟

ودخل الحجرة رجل عريض المنكبين ، أشيب الشعر ، يلبس بزة زرقاء ، ويحمل صندوقاً صغيراً أخذته منه جدتي ، ووضعته في جوف جسد أخي الصغير ، ومن ثم حملته ، وسارت فاتحة الباب ، ساعدة بقدميها إلى الأمام بحذر ، وتركته عند الباب مفتوحة ، فقد كانت [illegible] إلا بشكل [illegible] ،

وهتفت امي بذعر ، وهي تنتزع الشيء من يدي جدتي :

ـــ أوآه ، أماه ؟

وتواريا معاً وتركتاني في الحجرة برفقة ذلك الرجل الازرق . فقال ، وهو ينثني بعطف عليّ .

ـــ لقد رحل أخوك وتركنا هنا .

ـ من انت؟

ـ نوتي .

ـ ومن يكن ساراتوف ؟

ـ انها بلدة . الق نظرة من النافذة ، ها هي ذي .. هناك .

كانت الارض خارج النافذة تسير ، سوداء ، متعددة المرتفعات ، يتصاعد منها الضباب كالدخان ، وقد ذكرتني بقطعة كبيرة من الخبز اجتزت من رغيف ساخن .

ـ اين خرجت جدتي ؟

ـ انها تدفن حفيدها .

ـ هل ستواريه في جوف الارض .

ـ اجل !

وفجأة .علت فوقنا ضجة عظيمة قد اختلط فيها الصراخ بالأنين ولم يتملكني الذعر فقد فهمت ان مصدرها عملية تسيير المركب البخاري . وانزلني النوتي من بين ذراعيه بعجلة ، وانطلق خارجاً وهو يقول :

ـ ينبغي ان اذهب ؟

رغبت بدوري في الخروج ، فعدوت خارج الحجرة . كان المشى الضيق المظلم قفراً من الناس ، يلمع في نهايته نحاس السلم ، نظرت إلى الأعلى فرأيت بعض الناس يحملون امتعتهم ... فكان من الجلي ان الجميع يغادرون المركب . مما يعني انه يجب عليّ مغادرته ايضاً .

وما ان بلغت السطح ، وأصبحت بين اولئك المسافرين المزدحمين على السلم الذي يربط المركب بالبر ، اخذ بعضهم يصيح في وجهي :

ـ من انت ؟ أين أهلك ؟

ـ لست ادري .

اخذوا يدفعونني حيناً ، ويسقطونني على الارض حيناً آخر ، ويدفعونني دون انقطاع .

لكن النوتي الأشهب الشعر بدا اخيراً ، وقال:

- انه صبي من استراخان ، خرج من حجرته فجأة...

ورجع بي عدواً وهو يحملني إلى الحجرة حيث اجلسني على الصناديق وانتهرني هازاً إصبعه في وجهي وهو يقول :

- إياك ان تقوم بذلك مرة ثانية ، وإلا ...

وخيم السكون ، شيئاً فشيئاً ، على المركب الذي سكن إهتزازه ولم يعد رذاذ الماء يتطاير إلى الكوة ... بيد أن غشاءً من الرطوبة سد نافذة الحجرة ، فأصبحت معتمة خانقة ،وتخيلت في ظلمتها ان الصناديق تنتفخ وتحدق في بعناد. فأصابني شيء من الذعر ، فأخذت أتساءل :

- ترى ، أتركوني وحيداً في هذا المركب الخالي إلى غير رجعة ؟

سرت نحو الباب . كان مقفلاً ، ولم أستطع إدارة قبضته النحاسية، فأخذت قنينة حليب كانت على منضدة بالقرب مني ، وهويت بها على القفل بكل ما استطعت من قوة ، فتكسرت ، وانساب الحليب على قدمي ، وتغلغل إلى حذائي .

لقد اثقل علي فشلي ، فارتميت منتحباً فوق الأمتعة ، وحاولت أن انام .

وما ان استيقظت حتى رأيت جدتي قابعة إلى جانبي تسرح شعرها تدمدم، بينها وبين نفسها بأشياء عدة ... كانت تملك شعراً غزيراً تمتزج فيه الزرقة بالسواد ، ينساب بغزارة فوق كتفيها ، حتى يصل الارض . وكان فمها يفغر ألماً . وقد بدا وجهها صغيراً جميلاً وسط تلك الغزارة من الشعر الكثيف ، وعيناها السوداوان تلمعان من خلاله غضباً .

وقد بدا صوتها لطيفاً ناعماً وهي تجيبني على سؤالي لمَ شعرها طويل على تلك الصورة :

- إنه جزاء من الله - لقد قال لي : إليك ، فأمضي حياتك كلها في تسريح العرف الملعون ! لقد احببته في صغري ، ولعنته في كبري . عد إلى النوم يا عزيزي ، فالشمس لم تشرق بعد ، فما زال الوقت مبكراً .

– لم يعد لي رغبة في النوم .

فأجابت وهي تلفُّ شعرها، وترنو نحو الأريكة حيث تستلقي أمي باستقامة السهم :

– حسناً . إذا لم يعد لك رغبة في النوم فلا تنم ، كيف كسرت القنينة البارحة ؟ تكلم بصوت خافت .

كان لكلماتها لحن خاص . ما أحيلاها من الحسان تنحفر في ذاكرتي بسهولة كبيرة . وكان ينبعث من عينيها نور ساطع دائم الاشعاع ، يلقي على داخليتها هالة رائعة من الضياء . كانت فارغة القامة ،قد تقوس ظهرها وان بقيت حركتها سريعة كحركة هرة فتية . وفيما خلا ذلك ، فقد كانت تماثل هذا الحيوان الودود لطفاً ورقة .

كنت قبل مجيئها كغارق في ظلمة غريبة . فاذا بها تبعثني من رقادي ، وتقودني الى النور ، وتغزل كل ما يحيطني في خيط واحد متصل ، جاعلة منه شبكة زاهية الألوان .

وسرعان ما غدت ، إلى الأبد ، رفيق حياتي ... رفيق قادر على فهمه كل الفهم ... وكان فهمها المجرد للحياة يثقفني ، ويهبني قدرة كبيرة احتجتها فيمابعد، لإواجه بعزم وقوة مستقبلي القاسي .

***

قبل أربعين سنة ، كانت المراكب البخارية تسير ببطء كبير، بحيث أمضينا مدة طويلة حتى بلغنا ينجني نوفجورود .. ولم أزل اذكر تلك الايام العذبة ، المليئة بهجة وسرورا .

بقي الطقس جميلا ابداً . ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت افترش وجدتي سطح المركب، عائمين تحت قبة السماء اللازوردية، بين ضفتي نهر الفولغا المزدانتين بالسندس الموشى باصفرار الخريف . وكان كل شيء حولنا يتغير بين الفينة والفينة... والروابي الخضر تتوج الأرض الغنية . وأوراق الخريف الذهبية اللون تطفو فوق سطح المياه وتسبح .

كانت أمي نادراً ما تصعد الى سطح المركب ، وتبقى معتصمة بالصمت .. وما ازال أذكر حتى الآن جسمها الطويل الجميل ، ووجهها الكالح وقد انسابت عليه ضفائر من الشعر الاشقر المتموج . إن كل هذا يتراءى لي من خـلال غيوم شفافة .. من وراء السنين يحضرني حتى اليوم بريق عينيها المتوحشتين .

ذات يوم قالت بجفوة :

– إنك تجعلين من نفسك أضحوكة يا أماه !

فقالت جدتي بمرح :

– ليضحك الناس إن أحبوا ذلك . فهذا يجعل حياتهم اكثر سعادة . كان الله معهم !

وما ازال اذكر تلك السعادة الصبيانية التي استولت على جدتي عندما وقع نظرها على نيجني نوفجورود .. صاحت ، وهي تمسك يدي وتدفعني ناحيـة حاجز المركب :

– انظر ، انظر ، ما أجملها اهي ذي نيجني ، مدينة الله ،حيث ستعيش، يا لروعتها ! انظر إلى قبب الكنائس ، كم تتعالى في الجو !

والتفت نحو أمي ، وقد سبقتها الدموع

– انظري ، يا فاريوشا ! لا شك انك نسيتها ، على ما اعتقد .. هيا ، تملي من سعادة لقياها .

بيد ان والدتي ابتسمت بألم ...

والقى المركب برساه ناحية المدينة ، وتوقف في منتصف النهر الذي يعـج بالزوارق ... وصعدت الينا جموع حتى السطح ... وكان يدب في أول تلك الجموع شيخ فارغ الجسم ، نحيل القوام ، مرتدياً معطفاً اسود اللون . تتقدمـه لحية حمراء تلتمع كالذهب . .

وما ان رأته امي حتى صاحت ، وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه :

– أبتاه !

فأخذ يلامس رأسها بيديه الصغيرتين ، وأخذ يدغدغ وجهها بلطف ، ثم صاح مغتبطاً :

– آه ، آه ! أخيراً ، ايتها الطائشة ، ها انت هنا ! آه ...
وراحت جدتي تعانق الجميع ، وهي تدور حول نفسها ...
هتفت وهي تشدني نحوهم :
– هيا ، بسرعة ! هو ذا خالك ميخائيل ، وهذا ياكوف ، وهذه العمة ناتاليا ، وهذه ابنة خالك كاترينا ، وعذان الولدان ابنا خالك ، وكل منهما اسمه ساشا ، والجميع يؤلفون عائلتنا ـ تأمل جيداً في هذا العدد .
ثم انتشلني الجد من بين الجميع ، ممسكاً برأسي :
– وانت ! من تكن ؟
– ولد من استراخان ، ترك غرفته صدفة ...
فاستوضح الجد مندهشاً ، وقد التفت نحو امي :
– ماذا يقول ؟
ودفعني إلى الأمام دون أن يتلقى الجواب ، هائجاً :
– لقد ورث هزال أبيه . لننزل إلى القارب .
وما ان بلغنا الشاطىء . حتى تسلقنا الطريق العتيق المنحدرة بين صفين من الحجارة العالية . وقد اكتست بالعشب الاخضر الريان .
مشى جدي في المقدمة برفقة امي . يدب على الارض بجانبها بخطواته العجلى القصيرة ، يكاد لا يبلغ كتفيها ، بينما هي ترنو اليه من علٍ ... وسار خلفهما خالاي ، وقد خيم الصمت عليهما ، وبعدهما بعض النسوة السمينات وقد ارتدين أثواباً زاهية الألوان ، وحوالي ستة أطفال أكبر مني سناً واكثر مني هدوءاً .
أما أنا فقد سرت برفقة جدتي في المؤخرة ، وقد صحبتنا العمة ناتاليا .
كنت أسير كالغريب بين هذه المجموعة العائلية ، التي لم يرقني أحد من أفرادها جميعاً . حتى أن جدتي نفسها قد ازدادت بعداً عني ..
وقد كرهت ، بصورة خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، فقد شعرت منذ اللحظة الأولى بأنه عدو لي . وبلغنا نهاية المرتفع ، فمثل أمامي بيت منخفض مكوّن من طابق واحد . يقوم تجاه الرصيف الأيمن من تلك البقعة المرتفعة

حيث تبدأ الطريق العامة بالقرب منه . كان لون البيت وردي بالٍ ، وقد طلت نوافذه تحت سقف عتيق مهدم ، وقد ظهر لي من الخارج كبيراً ، بيد ان الغرف في داخله صغيره معتمة ، تضيق بجمهور مضطرب يعج بالحركة والضوضاء .

وأراني في ساحة لا تبعث السرور ابداً . وقد عجت هي الاخرى ببعض الادوات الزجاجية التي بدت كريهة المنظر بمائها الملون . وكان لهيب نار، ينبعث من زاوية معتمة ، يتعالى من بين الاخشاب في الموقـــد . يتبعه صوت قرقرة وغليان .. وثمة شخص غير مرئي يصيح بكلمات غريبة :

– سانتالين .. حامض الكبريت !

٢

كان ذلك بداية حياة دائبة الجريان ، مليئة بالوقائع ، غريبة ، معقدة ، يصعب وصفها بدقة . ولكن ذكراها ترافقني وتعيش في خاطري كقصة حزينة حكاها لي جني طيب القلب ، بيد انه واقعي حتى درجة الإيلام . وكم أجده صعباً عليّ حتى اليوم ، إذ عدت إلى الماضي ، أن أتصور ان هذا الماضي قد جرى على هذا النحو ، فأحاول إنكار بعض الحوادث كيما اقتضب في مجرى حياة تلك « العشيرة الغبية » وما كانت عليه من ظلام وجفوة .

بيد ان الحقيقة تعلو كل هفوة ذاتية . وأنا لا أحاول الكتابة هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الغريبة التي كان يعيش فيها ، ولم يزل ، الروسي العادي.

كان بيت جدي يعج بدخان العداوة الخانق ، عداوة كل فرد للجميع ، وقد اختنق بها الكبار وانتقلت عدواها الى الأطفال ايضاً .

وعلمت اخيراً ، من جدتي ، أن امي أتت الدار وأخواها يطالبان والدهما ، بإلحاح زائد ، بتقسيم أملاكه فيما بينهما . وان رجوع والدتي غير المتوقع قد زادهما جشعاً ونهماً في التقسيم ، مغبة ان تطالب أمي في مهرها الذي حجزه جدي لأنها انتقت زوجها دون رضاه . وقد وقعا في جدل مر حول من سيفتتح المصبغة في البلدة ، ومن سيترك المنزل الى كونافينو ، على الضفة الثانية لنهر أوكا .

ولم يمض كثير وقت على وصولنا ، حتى وقع شجار عنيف على مائدة الغداء ، فقد انتفض خالاي بسرعة ، وانكبا فوق المائدة ، ينبحان ويزعقان في وجه

جدي كالكلاب . وإذا بجدي هو الآخر ينتفض بسرعة ويضرب على المائدة بملعقته وقد علت الحمرة وجهه ، وأخذ يصيح بصوت أجش :

— سأجعلكما تستعطيان الناس في الشوارع .

فقالت جدتي ، وقد احتقن وجهها ألماً :

— أعطهما كل شيء هيا . اعطهما وسوف ترتاح كثيراً لذلك . أعطِ !

واتجهت والدتي ، بعد ان نهضت ، نحو النافذة ببطء ، حيث بقيت واقفة مديرة ظهرها للجميع .

وعلى حين غرة . وجه خالي ميخائيل ضربة جبارة إلى أخيه على وجهه ، فندت عن هذا الاخير صرخة عنيفة وتعلق به وشده اليه بقوة فتدحرج الاثنان على الارض يلهثان ، ويتشاتمان ...

وشرع جدي يهرول كالمجنون حولهما صارخاً :

— إخوة ، ها ! إخوة دمويون ! قفوا !

كنت في بدء الشجار قد قفزت مذعوراً فوق الموقد . ومن هناك اخذت أراقب جدتي ، وهي تمسح الدم عن وجه ياكوف بينما هذا كان يعول ويضرب الأرض بقدميه ، في حين قالت الجدة بنبرة يائسة :

— أفلا تعقلان ، أيها المتوحشان ! تباً لها من عشيرة متوحشة !

ومـا ان خرج ياكوف حتى قبعت جدتي في إحدى زوايا المطبخ محدثة نفسها :

— يا أم الاله الطاهرة! ارجوك أن تعيدي إلى ولديّ عقلهما !

فقصدها جدي ووقف بالقرب منها ، متأملاً الطاولة التي تكسرت عليها الأواني ، ثم قال واجماً :

— أنت ايتها الأمُّ ! أولى بك أن تراقبي ولديك اللذين انجبت ! لأنهما يودان التخلص من فارفارا ...

— لا سمح الله ! لا سمح الله ! والآن ، إنزع قميصك حتى أرتيه لك .

أخذت رأسه بين يديها ، وطبعت قبلة على جبينه ، فدفن رأسه ، لقصره ، بين كتفيها ... ثم زاد موضحاً :

ـ الاجدى على ما يظهر أن نتقاسم ، يا أماه !

ـ صدقت ، يا ابتاه ، صدقت !

تحاورا هكذا فترة طويلة . وقد ابتدأا بحديث لطيف سرعان ما تحول الى صيـــاح ، واذ اخذ جدي يلطم الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد جدتي .

ثم همس عالياً بلهجة شاكية :

ـ انني اعرفك جيداً ! فأنت تهتمين بهما اكثر مني ، وميخائيل هذا دجال كبير ، وياكوف ذاك جبان ملحد ! وسيبذران كل ما املك في سكرهمـــا وعربدتهما ، وسينفقانه عن آخره !

وبحركة بديهية لا شعورية من كتفي القيت بالمكواة على الارض ، حيث دوت وهي تتدحرج فوق درجات الموقد ، حتى استقرت في سطل ماء وسخ . فقفز جدي مذعوراً ، وشدني بقسوة ، وحدجني كأنه يشاهدني للمرة الاولى .

ـ من اجلسك هناك على الموقد ؟ هل هي أمُّك ؟

ـ لقد صعدت لوحدي .

ـ انك تكذب .

ـ كلا ! انا لا اكذب ، كنت وجلا .

فقذفني بعيداً عنه بضربة من راحة يده على جبيني :

ـ أخرج ! لست سوى صورة عن ابيك !

وكنت مغتبطاً كثيراً للتخلص من ذلك المطبخ ...

* * *

كنت احس بشكل جلي ان. جدي لا يكف عن ملاحقتي بعينيه الحادتين الخضراوين ، فكنت اخافه ... وما زلت اذكر ذلك الرعب الغريزي الذي كان يدفعني دائماً الى الاختباء من هاتين العينين المشتعلتين . وتصورت أنه دنيء النفس شرير ، فهو يكلم الجميع بلهجة هازئة ، ويغتبط باغـاظة النـــاس واستفزازهم دائماً :

ـ تفوا تباً لهم من قوم !

إنه شغوف بهذه الكلمات ، ويعمد بلفظها مط الفاء والواو ، الامر الذي يبعث فيّ قشعريرة باردة .

ولم يمض على وصولنا بضعة ايام ، حتى ارغمني على حفظ صلواتي . وقد اوكل الى العمة تاتاليا امر تعليمي هذه الصلوات . وكانت امرأة هادئة رزينة ، وكنت احب ان تطلع اليها ملياً من غير ان يطرف لي جفن ، فيزعجها هذا مني ، فتأخذ باسبال اهدابها ، والواء رأسها للهروب من نظراتي ، ثم تطلب بصوت أشبه بالهمس الناعم :

ـ ارجوك ، قل معي هذا : « ابانا الذي .. » .

ـ وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فتجيبني ، وهي تسترق النظر بما يحيط بنا :

ـ لا تسأل ! فالسؤال يزيد الامور تعقيداً . ويكفي ان تردد خلفي « أبانا ... » هيا !

لم اكن ادرك لماذا يزيد السؤال الامور تعقيداً ... إن كلمة « الذي » تحوي معنى خفياً ، فكنت اتعمد تشويهها :

ـ ألزي ، اللاذي .

فتصحح قولي العمة ، التي تبدو وكأنها تذوب شيئاً فشيئاً ، بصبر طويل :

ـ كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : « أبانا الذي .. » .

واستفسر جدي ، ذات يوم ، عن مدى نشاطي قائلاً :

ـ حسناً ، يا ألكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ هل كنت تلهو ؟ انني الاحظ ذلك من هذه الحدبة المتربعة فوق جبينك . والآن اخبرني ماذا حفظت اليوم من « ابانا » ؟

فقالت عمتي :

ـ ان ذاكرته رديئة .

فقهقه جدي ، وهو يرفع حاجبيه الاحمرين :

ــ اذا كان الحال كذلك ، فيجب جلده إذن .
واستدار ناحيتي ، واستفسر :
ــ ترى هل جلدك والدك ذات يوم ؟
فلم افهم ما يعنيه بكلامه . فلذت بالصمت .
ثم اجابت والدتي :
ــ إن مكسيم لم يضرب الطفل ابداً . وقد كان يمنعني عن فعل ذلك .
ــ لماذا ؟
ــ كان يعتقد ان الضرب لا يعلّم المرء شيئاً .
فأجاب جدي وقد استشاط غضباً .
ــ لقد كان مكسيم غبياً احمق، غفر الله له .
لقد اثارت كلماته غضبي وقد احس بذلك :
ــ فيم عبوسك ؟ يجدر بك ان تنتبه لنفسك !
وخيم الصمت على الجميع ...
كانت الطريقة التي يتبعها الكبار في تغيير لون الثياب يعجبني ويثير فضولي واهتمامي .فهم يأخذون مادة صفراء اللون ويغطسونها في ماء اسود . فيحصلون على لون ازرق ضاربا الى السواد « نيلياً » . او يغسلون ثوباً اشهب اللون في ماء احمر ، فيصبح اسود اللون ضارباً الى الحمرة « خمرياً » . وكل ذلك يبدو بسيطاً ، لكن غير مفهوم ابداً .
وقد راودتني رغبة خفية في تجربة العمل بنفسي، فاطلعت ساشا بن ياكوف على رغبتي هذه ، وكان ساشا صبي مهذب جدي ، يتبع العمال دائماً عارضاً عليهم خدماته ، فيشكره الكل ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعداته .
كان العجوز يصرخ ، وهو ينظر بازدراء إلى الصبي :
ــ تفوا ! يا للدجال الصغير !
وعندما علم ساشا برغبتي هذه في تعلم مهنة الصباغ نصحني باللجؤ ، في تجربتي الاولى ، إلى غطاء المائدة الكبير ، الخاص بالمآدب ، فآخذه من مكانه

في الدولاب ، واصبغه باللون الازرق الداكن .

قال لي بجدية :

- الاشياء البيضاء تتقبل الالوان اكثر من سواها ، وانا واثق من ذلك .

فاحضرت الغطاء الثمين ، وعدوت به حتى الساحة ... ولم اكد انزل احد اطرافه في حوض « النيل » حتى قذف تسيجانوك بنفسه عليّ وانتشل الغطاء من بين يدي ، وعصره بكلتا يديه الكبيرتين ، وزعق بابن خـــالي الذي كان يتابع العملية :

- اسرع ، واحضر جدتك !

واستدار ناحيتي ، وحك رأسه الكبير منذراً بالسؤ . قال

- ستنال جزاءك بدون شك .

اقبلت جدتي مسرعة ، لاهثة ، وقد سكبت بعض الدموع لدى رؤيتها ما أتيت به من جرم ، ثم اخذت توبخني بطريقتها المضحكة .

- آه منك ايها الخبيث . ليدفعك الشيطان وليقذف بك ارضاً . لا بد من تقييدك وجلدك ...

وبعدها اخذت تتذرع الى تسيجانوك :

- لا تخبر جده بما فعل . يا فانيا .. سأخبئه ... ربما تجري الامور خيراً ..

فأجابها فانيا مغتاظاً ، وهو يمسح يده الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

- من جهتي لا تقلقي ، فهذا ليس يعنيني ! بيد انه يجدر بك ان تأخذي حذرك من ساشا وثرثرته .

فقالت وهي تقودني ناحية البيت :

- سأعطيه بعض الدراهم يسد بها فمه .

في غروب ذلك النهار ، السبت ، قادني احدهم الى المطبخ ، كانت الظلمة والهدوء ينشران وشاحها هناك ... كان الطقس خريفياً والمطر خلف النوافذ يداعبها بلطف وهو يتساقط عليها . وقبالة الموقد جلس تسيجانوك اسوان حزين على غير عادته ... وقبع جدي بجانب برميل كائن في احدى الزوايا ، يسحب

من الماء عدة قضبان طويلة فجمعها في رزمة واحدة ، ولاحهـا في الهواء بقوة كبيرة ... وكانت جدتي تجلس في احدى الزوايا وقد غمرتها الظـلمة ، وهي تدمدم :

ـ انه سعيد، هذا الوحش الظالم !

وفي وسط المطبخ جلس ساشا ، ابن الخال ياكوف على احد المقاعد وهو يفرك عينيه بيده ويصرخ مثل متسول هرم :

ـ سامحني لأجل المسيح ...

فعلا صوت جدي مجيباً ، وهو يمسح بكفه قضيباً مبللاً طويلاً :

ـ سأسامحك بعد ان تأخذ نصيبك كاملاً . حسناً ،انزع سروالك .

نهض ساشا ،ونزع سرواله وانزله حتى ركبتيه ، وقد جثى متقوس الجسم . كان التطلع اليه يحز بالنفس حتى ان قدمي اخذتا ترتجفان بقوة .ثم انحنى جدي، وامسكه من عقبيه ...

هتف جدي :

ـ ألكسي ! تعال هنا ! حسناً ، من أكلم ؟ تعالى وشاهد ما قصدت بالجلد ، تأمل جيداً ! واحد ...

واهوى بالقضيب على جسد ساشا العاري . فغرق في العويل والصراخ .. قال الجد :

ـ لا تكذب ، فتلك لم تلسعك ! لكن هذه ستفعل !

وضربه ضربة شديدة رسمت على جلده، بسرعة جنونية ، تورُّداً ظاهراً . ثم تركت تورماً احمر اللون ، فتتابع صياح وعويل ابن خالي ، يبعث الالم في قلب السامع .

ـ لن اقوم بذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ انا الذي أخبر .

ـ وَشَيْتَ ؟ لن تنفعك وشايتك او تخفف ذنبك ! ان السوط الاول للواشي ، اما الآن فدورك انت بسبب الغطاء !

فارتمت جدتي عليّ ، واخذتني بين ذراعيها :

ـ لن اسمح لك بألكسي ابداً .. لن اتركك تفعل ذلك ، ايها الوحش !

واخذت تضرب الباب ، وتصيح :

ـ فارفارا ! فارفارا !

فهجم جدي عليها ، واسقطها ارضاً ، وانتشلني وحملني حتى وسط المطبخ ... وكنت احاول عابثاً الخلاص من بين ذراعيه ، اشده من لحيته واعض يده ... ولم ازل اذكر جيداً صياحه الوحشي :

ـ اربطه ! سأقتله !

ولم ازل اذكر ايضاً وجه امي الابيض ، وعينيها الكبيرتين ... تعدو وراء وامام جدي وهي تحشرج متوسلة :

ـ كفى يا ابتاه ! اتركه !إرجعه الي.

بقي جدي يضربني حتى فقدت الوعي ، ولازمت بعد ذلك ، الفراش عدة ايام اعاني المرض ،ممدداً على صدري في حجرة صغيرة دافئة ذات نافذة واحدة ، ينبعث في انحائها ضوء قنديل احمر خافت ..

كانت مرحلة مرضي من المراحل الهامة في حياتي ، فقد كنت خلالها ابدو وكأني انمو سريعاً . وشعرت بقلق عميق نحو المخلوقات البشرية ، فكأن الجلد قد تمزق عن قلبي ، فأمسيت حساساً بشكل غريب لا يصدق حيال الامتهانات والآلام الانسانية التي اكابدها شخصياً ، او التي يعانيها غيري من البشر .

وقد تألمت بادىء الامر ، بذلك الجدال الذي حدث بين امي وجدتي ... كانت هذه الجدة الكبيرة ، في تلك الحجرة الصغيرة ، تنقض على والدتي وتحاصرها في احدى الزوايا وهي تدمدم :

ـ لماذا لم تأخذيه بعيداً ؟ تكلمي !

ـ كنت خائفة .

ـ ينبغي أن تخجلي ، يا فارفارا ، انخلوقة مثلك تخاف ؟ انا لم اخف رغم كبر سني ! ان ذلك لمخجل حقاً !

ـ اتركيني بفري ، يا أماه ، لقد ضاق صدري !

ـ انت لا تحبينه ! ولا تكنين عطفاً لذلك الصغير اليتيم المسكين !
ـ انا الاخرى يتيمة ، كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي !
قالت امي هذا بصوت حزين اللهجة ...
واخذتا تبكيان ، وهما قابعتان على صندوقة بالقرب من الزاوية .
قالت أمي :
ـ لولا ألكسي لتهت الى مكان بعيد ، فلم اعد اطيق الحياة في هذا الجحيم ! لا استطيع ! يا اماه ! وليس عندي طاقة كافية !
وادركت ان امي ليست على شيء من القوة . فهي ، كالآخرين . تخاف جدي ... وأنا مسؤول عن بقائها في ذلك البيت حيث لا تقدر تحمل الحياة .. ما أقسى ذلك ! وسرعان ما توارت أمي بعد فترة قصيرة ، أعلموني انها ذهبت تزور بعض الامكنة . ولم اعلم أبداً أين مضت ...
وذات يوم عادني جدي ... جرى ذلك فجأة ، فكأنه نزل علي من السقف. جلس على حافة السرير ، واخذ يدغدغ رأسي بأصابعه الباردة كالثلج .
ـ صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ! لا تحقد عليّ ، كيف حالك ؟
فشعرت برغبة في رفسه ، بيد ان الحركة كانت تؤلمني كثيراً . واخرج من جيبه كعكة من الزنجبيل ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، وقضيبين من سكر النبات ، ووضعهم على المخدة بالقرب من أنفي :
ـ انظر احضرت لك بعض الهدايا !
ثم انثنى وقبلني في جبيني .. واخذ يتكلم وهو يلامس من حين لآخر بلطف جبهتي ، بيده السمينة ، المشوهة بالصفرة الفاقعة ، وخاصة حول اظافره الشبيهة بمخالب النسور :
ـ ضربتك اكثر مما ينبغي ذلك اليوم ، يا عزيزي . لقد فقدت صوابي ، وانا اعترف بذلك . كنت مجنوناً . وينبغي ان تتذكر شيئاً واحداً ، ان ضربك احد من ذويك فهذا الا يعني اهانتك ، بل تربيتك ... لكن اياك ان تترك احداً غريباً يمسك بسوء .

ودنى مني بجسمه الفارغ المحكم البنـــاء ، وشرع يروي لي قصة طفولته ، كانت كلماته تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى، بلباقة دون صعوبة على الاطلاق،

ـ لقد اتيت الى هنا على ظهر مركب بخاري . بيد انه عندما كنت صغيراً كانت قوتي وحدها تعارك امواج الفولغا ، وهي تسحب العوامات الخشبية . كانت العوامة تشق عباب الماء ، اما انا فأسير على الضفة ، حافي القدمين . منذ طلوع الفجر حتى مغيب الشمس ، ويجب ان تسير بدون تذمر حتى التلاشي وعندها يجب عليك ان تستريح او تموت من شدة الاعياء . هكذا كنـــا نمضي حياتنا تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح ... ثلاث مرات في حيـــاتي قست طول أمنا الفولغا رغم عرضه واتساعه : من سمبيرسك حتى ريبنسك . ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكاريبف ، وهي تقدر بما يزيد عن ألوف الفراسخ ، وفي السنة الرابعة رقيت الى رتبة بحار .

وعلاوة على ذلك كله ، يا الكسي ، كنا نستريح في إحدى ليالي الصيف في ريجولي ، ونوقد النار عند سفح احدى الروابي الخضراء ، انها كانت فعلاً فترة سعيدة ، فالحساء يغلي في قدره وبعض الركاب يرددون أغنية حماسية يزيلون بها بعض العناء عن قلوبهم ،فنشاركهم في الغناء ، آه لقد كان الغناء يبعث كل جارحة فينا ، ويشدنا للاستزادة منه ، حتى يخيل اليك ان الفولغا يضاعف سرعته ، كحصان غاضب يهاجم بقوة عنان السماء ! وعند ذلك كانت همومنا ومتاعبنا تتلاشى مثلمـــا يتلاشى الغبار في وجه الريح ! ولا نعد نذكر ذلك الحساء حتى يفور على النار . فنتطلع الى الطاهي نصب على رأسه جام غضبنا :

« بوسعك التمتع بالغناء ما اردت ، لكن اياك ان تهمل مهنتك ! »

واتوا الى الحجرة مرات عدة يطلبون جدي،فأطلب اليه في كل مرة :

ـ إبق لحظة اخرى !

فيقهقه ويشير بذراعيه ويهتف :

ـ انتظروا ! هناك ....

وبقي مستمراً في سرد حكاياتــه حتى هبوط الليل . وعندمــــا ودعني استنتجت ان جدي ليس شريرا أو مخيفاً .

كلمـــا تذكرت انه هو الذي ضربني بتلك الوحشية في ذلك اليوم ، كان الالم يعتصر قلبي بشدة ، واحاول دون جدوى ان اتناسى تلك الحادثة .

٣

ادركت فيما بعد ، عندما تحسنت صحتي ، أن تسيجـــانوك يحتل مركزاً كبيراً بين سكان منزلنا ، فاذا كلمه جدي لا يصيح في وجهه بجفوة كما يعامل ولديه ، بل يحك برأسه ويضيق عينيه كلما تكلم عنه اثناء غيابه :

– ان أيدي ايفان مجبولة بالذهب ، أخذه الشيطان ! سينمو حتى يصبح مثل الجبل ! تذكروا قولي . هذا الذي يشاركنا حياتنا ليس بالانسان الوضيع ، سوف يشق طريقاً لنفسه ...

وكذلك علاقات خالي بتيجانوك ، فهما لا يجربان التلاعب عليه كما يفعلان مع المعلم جريجوري . فقد كانا يجعلان من هذا الاخير لعبة مزرية بافعالهما التي يوقعانه بها .

وذات يوم اخبرتني جدتي ان تسيجانوك ليس إلا لقيطاً .. عثروا عليه في ليلة ممطرة بالقرب من بوابة منزلنا .

قالت ، وبوادر التفكير والابهام ترتسم على محياها :

– كان راقداً هناك . وقد لف في صرة من القماش ، يرتعد من البرد حتى غدا عاجزا عن الصياح والبكاء .

– لماذا يترك الناس اولادهم هكذا ؟

– عندما تجد الام ان الطعام والحليب ينقصانها لتغذية رضيعها تبحث عن منزل فيه طفل آخر قد مات فور ولادته ، فتحضر طفلها إليه وتتركه هناك .

كنت أحب إيفان ، ويشدني اليه اعجاب غريب ..

وفي كل سبت ، كانت حياة جديدة تنتشر في المطبخ ، بعد ان يذهب جدي لتأدية صلاة المساء بعد ان يعاقب من اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت هذه الحياة تملؤنا غبطة لا تقدر . اذ ان تسيجانوك كان يصطـــاد من خلف الموقد عدة صراصير ، ثم يربطها بخيط إلى عربة من الورق يصنعها بمهارة فائقة ، ثم ينهر الصراصير ذهاباً واياباً على طاولة مدهونة بلون اصفر وهاج .

كان يهتف مغتبطاً ، وهو ينهرها بعصاً رفيعة :

ــ إنهم غادون لاحضار الاسقف ...

ثم يعلق بمؤخرة صرصار آخر قطعة ثانية من الورق ، ويبعثه وراء العربة السابقة قائلاً :

ــ لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله اليهم .

ثم يوثق اقدام صرصار آخر ، فيأخذ يجر نفسه متعثرا ، على رأسه ويصرخ فانيا ، وهو يفرك يديه سرورا :

ــ ها هوذا الشماس يغادر الخمارة الى صلاة المساء !

كان بمقدور تسيجـــانوك ان يقوم ببعض الالاعيب بالورق والدراهم . وان يصرخ بصوت مرتفع لا يماثله فيه احد من الاطفـــال . وفي الحقيقة ، كان من الصعب ان تميزه عنهم . وفي احدى الامسيات فاز عليه الاطفال مرات متتالية ، فانسحب من اللعب وقد اعتلاه الحزن واعتصرته الكآبة .. ثم يقول شاكياً :

ــ لقد كانت مؤامرة ضدي . فانا اعلم ذلك ! انهم يتغـــامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . هل تسمي ذلك لعباً ؟ لقد كان بمقدوري ان اغش بدوري كما يفعلون !

لقد كبرت صداقتي لايفان كثيرا ، واصبحت جدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى المساء ، باشغالها البيتية . وهكذا غدوت أمضي معظم ايامي أخب في اثر تسيجانوك الذي بقي دائماً يحميني بذراعيه من سوط جدي كلما جلدني ، ثم يريني في اليوم التالي اصابعه المتورمة ، وهو يقول :

ــ لا فائدة من ذلك ! انظر ما يجره عليّ ! انها المرة الاخيرة ، وستنال في

المستقبل جزاء نصيبك بنفسك ..

بيد انه يتلقى مرة اخرى ، عندما تسنح الفرصة ، الجزاء الذي لا يستحق .

— لقد قلت لي انك لن تفعل ذلك مرة اخرى ؟

— لم اقصد ذلك ، فقد وجدتني امد ذراعي ، من غير ان انتبه لما افعله .

وقد ادركت ،بعد مرة من الزمن ، شيئاً عن تسيجانوك زاد اهتمامي بـه واخلاصي له .ففي نهار كل جمعة،كان تسيجانوك يسرج المهر الخصي « ساراب » الاشهب اللون ، وكان حيوانا خبيثاً ، تلتمع اسنانه الجميلة في ثغره ، وكان مفضلاً عند جدي ، إلى مزلجة للجليد ، ويعتمر قبعة غريبة الشكل وقد ارتدى معطفاً قصيراً من جلد الماعز قد ربط بزنار متين أخضر اللون ،ويذهب الى السوق لشراء مؤونة الاسبوع من الطعام . وفي بعض الاحيان كانت غيبته تطول . فيفقد الجميع عندئذٍ رباطة جأشهم ، ويأتون النافذة لالقاء نظرة على الشارع .

— هل اتى ؟

— كلا لم يأتِ بعد !

وعلى الاخص كانت جدتي تعاني من القلق الشيء الكثير ، فتقول لزوجها وولديها :

— يا للكارثة ! ستكونون السبب في موت انسان طيب ، وحصان طيب . انكم في امس الحاجة الى ضمير حي ، أيتها المخلوقات المزرية ! ولا يكفيكم ما كسبتموه ابداً ، يا لها من عشيرة غبية وعائلة طمّاعة ! لسوف يجازيكم الله جميعاً ،وسترون ..فيعقد جدي جبينه ويتمتم .

— أوه . حسناً ! انها المرة الاخيرة !

وفي بعض الاحيان لم يكن تسيجانوك يعود ، الا بعد الظهيرة ، فيعدو جدي وخالاي حتى الساحة لملاقاته ، ثم تتبعهم جدتي مغتاظة وهي تهمهم كالدب .. ويعدو الاطفال الى الساحة . ويبدأون في غبطة كبيرة ، بنقل ما في العربة من لحوم طازجة . وسمك وطيور ، ومآكل من جميع الانواع .

ويسأل جدي ، وهو يحدق في العربة بعينيه الصغيرتين :
ــ أأحضرت كل ما أوصيناك به ؟
فيجيب ايفان مغتبطاً وهو يفرك بيديه طلباً للدفء ، قافزاً من فوق العربة
ــ كل شيء ، حسب الأوامر !
وذات يوم اخبرتني جدتي ان تسيجانوك يسرق أكثر مما يشتري من الحوائج قالت بصوت حزين :
ــ اذا أعطاه جدك ورقة فئة الخمسة روبلات ، فيصرف منها ثلاثة ،ويسرق الباقي . انه يحب السرقة ، يا له من وغد ! وقد اتخذها عادة . وقد عرف جدك الفقر والشقاء أيام شبابه ، مما جعله يقتر نوعاً ما في شيخوخته . فعنده المال أعز من الاولاد . ويحلو له الحصول على شيء من لا شيء .
ثم صمتت برهة ... وتابعت :
ــ بيد انه اذا ما قبضوا على فانيا مرة بجريمة السرقة ، فسيعاقبونه حتى الموت .
ولزمت الصمت من جديد ، فترة قصيرة ، وعندما تابعت حديثها كان صوتها ينبعث ناعماً :
ــ إيه ! عندنا قوانين كثيرة ، لكنه ليس من حقيقة تقوم عليها هذه القوانين أو عدالة تحتضنها !
وفي اليوم التالي ، عندما شاهدت تسيجانوك ، توسلت اليه ان يكف عن السرقة :
ــ سيعاقبونك حتى الموت !
فضحك ضحكة سرعان ما توارت خلف تقطيبة علت وجهه ، وهتف:
ــ لن يقبضوا علي ، سألوذ بالهرب ، فجوادي من الخيول السريعة ، انني اعلم ان السرقة جريمة يعاقب عليها ، لكنني الجأ اليها لمجرد التسلية . فخالاك يأخذان مني جميع ما أسرق خلال الاسبوع . وانا لا اهتم لذلك ،فليأخذه ،طالما انني أحصل على كفايتي من الطعام .

وفجأة رفعني عن الارض ، وهزني بلطف :

— انت هزيل البنية ، بيد ان عظامك متينة للغـــاية وستغدو شاباً قوياً . أصغ ، تعلم العزف على القيثارة . واسأل خالك ياكوف تعليمك ذلـــك . انا لا أهزأ فأنت ما زلت صغيراً . وهذا هو البلاً ! طفل صغير ، بيد انـك لطيف ! واعتقد انك لا تحب جدك ، اليس كذلك !

— لا اعلم .

— حسناً . أما انا فلا احب أحداً مـــن آل كاشرين ، سوى جدتك ... الشيطان وحده قادر على محبتهم !

— وانا ؟

— انت لست من كاشرين . انت من بشكوف ودمك غير دم هذه العشيرة.

وشدني اليه بلطف ، ثم قال بلهجة كئيبة :

— يا رب لو استطيع الغناء ! لفطرت القلوب بغنائي . والآن ، دعني ... يجب ان ابدأ في العمل .

وأعادني الى الارض ، واخذ قبضة من المسامير ، وشرع يسمر قطعاً سوداء مبللة في لوح كبير من الخشب مربع .

ولم يمض على ذلك طويل زمن حتى لقى حتفه .

وهذا ما حدث :

كان يستند إلى السور في ساحتنا ، صليب عظيم من خشب البلوط ، بالقرب من البوابة ، منذ أمد طويل ، حتى انني لم أزل أذكر انه لفت انتباهي يوم أتيت ذلك البيت للمرة الأولى .

وقد ابتاعه الخال ياكوف لرفعه على قبر زوجته ، وأقسم على حمله الى المقبرة على كتفيه في الذكرى الأولى لوفاتها .. وفي بكرة الشتاء ، صادفت الذكرى نهار سبت . كانت الرياح تعصف وتهب ناشرة الثلج من فوق السطوح حين مضى جدي وجدتي والأحفاد الثلاثة الآخرون إلى المقبرة لحضور الجناز ، في حـــين خرج الباقون جميعاً إلى الساحة وتركوني وحيداً في الدار جزاء على جرم سبق ان اقترفته .

وارتدى خالاي معطفين سوداوين متماثلين ، ثم رفعا الصليب عن الارض ، وركزا ذراعة الواحدة على كتف احدهما ، والثانية على كتف الآخر . وبصعوبة بالغة ، رفع جريجوري ورجل آخر غريب ، قاعدة الصليب العظيمة والقيا بهـا على كتف تسيجانوك العريض ، فتمايل من حمله وأوسع ما بـين قدميه تفادياً للسقوط .

سأل جريجوري :

– ألا تقدر على حمله ؟

– لا أعلم . يبدو أنه ثقيل جداً !

وصاح الخال ميخائيل :

– افتح البوابة . ايها الشيطان الأعمى !

وزاد ياكوف :

– ألا تخجل من نفسك ، يا فانيا ؟ كلانا أضعف بنية منك .

بيد ان جريجوري التفت الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، وحذره بشدة :

– انتبه من إجهاد نفسك ! حسناً ، زادك الله قوة .

وقادني جريجوري من يدي الى المعمل . ثم قال :

– اعتقد ان جدك لن يجلدك اليوم . يبدو أنه حسن المزاج .

ثم اجلسني فوق ستفة من الصوف أعدت للصباغ ، وأخذ يحدثني وقـد أحاطني بلطفه وهو ينفخ البخار المتصاعد من الأحواض .

كنت أجد لذة في الجلوس والاصغاء الى حديثه ، وأنا اتأمل النار المتأججة الذهبية تتراقص في الموقد . وكانت ضجة انزلاق المركبات على الجليد تدف من الشارع . بينا الدخان الأزرق يتموج متصاعداً من مداخن البيوت ، وتتساقط على الثلج اخيلة منورة وكأنها ، هي الأخرى تحكي حكايتها وأقاصيصها .

– ما هذا ؟

قال ذلك ، وقد نهض فجأة على قدميه ، ثم أرهف السمع وهو يغلق بـاب الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وانا أعدو في أثره .

كان تسيجانوك مضطجعاً على ظهره في وسط المطبخ ، وقد مرّ من النافذة شعاعان عريضان من النور ، وقد سقط أحدهما على رأسه وصدره ، وانتشر الثاني على قدميه . وقد التمع على جبهته نور غريب ، وارتفع حاجباه،وتركزت عيناه الى السقف ، وأخذت شفتاه السوداوان ترتجفان وترسل زبداً وردي اللون ، وقد سال من فمه الدم وجرى على وجهه ورقبته ، ثم على الارض ، يتسابق في خطوط نحو الباب .

كان تسيجانوك ممدود الذراعين يضطجع دون حراك ، ينقر على الارض باصبعه ، وقد جثت المربية يفجينيا بجانبه تحاول وضع شمعة في يده فلم يتمالك الامساك بها ، فسقطت وذوى نورها في الدماء ، فالتقطتها المربية ثانية ، وجففتها بطرف مئزرها ، ثم عاودت الكرة محاولة وضعها بين أصابعه المتحركة بدون توقف .

قال الخال ياكوف هازاً رأسه ، وقد خلا صوته من أي تعبير :

– لقد تعثر ! ... فسحقه ... هوى على ظهره . وكاد يسحقنا نحن الآخرين . لو لم نزغ في الوقت المناسب .

فأعلن جريجوري بصوت متهدج :

– اذن ، أنتما اللذان سحقتماه !...

– لكن ، ماذا تعتقد أننا ؟

– أنتما !

بقي الزبد الوردي اللون يتابع جريانه ، والدماء تتدفق بحرية حتى كونت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودّت وبدت انها ترتفع ، وبقي تسيجانوك يرسل زفراته ، وجسده يتهاوى ويزداد اضمحلالاً ..

همس الخال ياكوف :

– لقد مضى ميخائيل ، ممتطياً جواده ، الى الكنيسة يعلم والدنا ، بينما قلبته أنا على عربة وأحضرته الى هنا ... لقد فعلت حسناً بعدم حملي قاعدة الصليب بنفسي ولوفعلت،ماذا كان حدث لي ؟

ومرة اخري ، ثبتت المربية الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي ترسل الشمع والدموع على راحته ، فصرخ بها جريجوري بقسوة :

- ثبتي الشمعة على الارض بجانب رأسه ، أيتها البلهاء !

- هذا صحيح!

- إنزعوا له قبعته !

وما ان نزعت المربية القبعة ، حتى ضرب رأس ايفان بالارض تاركاً صوتاً أصم ، وإثر ذلك استدار رأسه ، فانهمر الدم من فمه ، ودام الأمر كذلك مدة طويلة مفزعة . ولم أفهم جيداً ماذا جرى ... ظننت ان تسيجانوك يأخذقسطاً من الراحة ، ولن يلبث ان ينهض ويبصق باشمئزاز ، ويدمدم بنعمته المعتادة . « تفو ! يا للحرارة ! »

هـــذا ما كان يتفوه به أبداً ، بعد ان يصحو مـــن غفوة الظهيرة أيام الآحاد ...

وتوارت الشمس ، فاكفهر لونها على حافة النافذه ،وأصبح وجه ايفان داكن اللون ، وتوقفت أصابعه عن الحركة ، وانقطع الدم عن التدفق من فمه.. كانت شمعات ثلاث تضيء بنورها شعره الازرق القاتم ، وتلتف حول رأسه ، فبدت قمة انفه ضيقة . وقد تماوجت انوارها فوشحت خديه الحمريين .

بقيت المربية جاثية الى جانبه تبكي ، وهي تهمس :

- آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاءً حقيقياً !

دخل جدي المطبخ في فروته السوداء، تدب خلفه جدتي في معطفها الثقيل، وبدا وراءهما الخال ميخائيل ، واطفال ، وغرباء عديدون ...

القى جدي بفروته على الارض ، وزعق :

- يا لأولئك الاوباش ! يفعلون هكذا بهـذا الفتى ! خمس سنوات أخرى ويغدو ثميناً كالذهب !

ثم توجه الى خاليّ هازاً قبضته الحمراء في وجهها .

- ايها الذئبان !

وألقى بنفسه على مقعد مطبقاً أصابعه بعنف عليه ، وهو يدمدم ويحشرج في صوت أجش :

ـ آه ، أنا اعلم ، لقـــد كان شوكة في حلقيكما ! آه ! يا فانيـــا ، ايها الشاب الفتى ! مـــاذا نستطيع ان نفعل الآن ؟ اسألك مـــاذا نستطيع ان نفعل ! الخيل غريبة ، واللجام قديم مهترىء ... انظري يا أماه ، كأن الرب في هذه السنوات الأخيرة قد عدل عن حبنا ، اليس كذلك ، يا أماه ؟

فارتمت جدتي على الارض بجانب ايفان تلمس وجهه ورأسه وصدره، وتأخذ يديه وتفركهما ، ثم تنفخ في عينيه . فانطفأ نور الشمعات كلهـا ، واستقامت أخيراً على قدميها كشبح أسود داكن، وقد التمع ثوبها وقذفت عيناها السوداوان شرراً مخيفاً ، وهي تهمس في صوت محشرج :

ـ اخرجوا من هنا ، ايها الشياطين !

فتوارى الجميع عدا جدي ...

ووري تسيجانوك الثرى ببساطة ، دون ان يلفت الانتباه.

٤

كنت أصغي الى جدتي وهي تصلي، وانا ارقد في سرير واسع ، وقدالتففت بلحاف ثقيل يضفي من كل جانب ... كانت تجثو على ركبتيها واضعة إحدى يديها على صدرها ، بينما راحت ترسم بالثانية إشارة الصليب بكل تؤدة .

كان نور القمر الموشى بالاخضر يطل من خلال الستائر المزركشة ، التي تغطي زجاج النافذة ، كان نوره الموشى بأنوار فسفورية يسطع على غطاءالرأس الحريري ، الذي يحجب شعر جدتي ، يشع كالفضة ، وقد تدلى ثوبها الاسود على كتفيها بثنيات منسابة تجمعت على الارض وأحاطتها من كل ناحية ، بينما كانت تدغدغ اسماعي أصوات قرقعة تكسر الجليد وراء النافذة .

وتنتهي جدتي من تلاوة الصلاة ، فتنزع عنها ثيابها بهدوء ثم تودعها فوق صندوق الملابس الكائن في زاوية الغرفة، ثم تدنو من السرير ، فأتظاهر بالنوم. فتقول بلطف :

ــ كفى تمثيلاً ، أيها الخبيث الصغير ! فأنت لست نائماً ايها الطير الصغير ! أترك لنا شيئاً من هذا اللحاف .

كنت أعلم ما سيحدث بعد ذلك ، فلا استطيع مقاومة ابتسامة . فتصيح جدتي .

ــ آه ، تريد أن تجعل من جدتك لعبة ، أليس كذلك ؟

وتمسك بطرف اللحاف وتشده نحوها بطريقة لبقة بحيث تجعلني أدور حول نفسي . فأعود ثانية إلى السرير ، بينما تغرق جدتي في عاصفة من الضحك !

– خذها ، ايها الشيطان الصغير ! فأنت تستحقها !

وفي بعض الأحيان كنت انام دون أن أشعر بها حين تلج الى السرير لأنها كانت تصلي طويلاً .

واكثر ما كنت أصغي اليها بانتباه ، عندما كانت تختتم ايام الشجار والمتاعب بمثل هذه الصلوات الطيبة ، كانت تجثو كالطود تصارح ربها بدقائق حوادث النهار جميعها . ثم تبدأ صلاتها بهمس مبهم ما يبرح أن يغدو دمدمة قوية :

– انت تعلم ، يا ربي ، أن كل انسان يسعى باحثاً عن مصلحته الخاصة ،وهذا أمر بديهي ، وولدي البكر ميخائيل من المتمسكين بحب البقاء في البلدة هنا ، وانها جريمة لا تغتفر بالنسبة اليه ان يرسل به عبر النهر إلى موضع جديد لم يعرفه احد من قبل . بيد ان الأب يفضل عليه ياكوف . وهل من العدل ان يحب أب أولاده بصورة غير متساوية ؟ انه مخلوق قاسٍ ، ذلك العجوز ! وانت تفعل خيراً يا إلهي ، ان قومت عقله .

وقبل ان تنحني ماسة جبهتها بالسجادة ، كانت ترسم إشارة الصليب . ثم تتابع باقتناع ، وهي تنهض :

– ولماذا لا تبعث السعادة في قلب فارفارا ؟ ماذا أتت هذه المسكينة حتى تغضب عليها ، يا إلهي ؟ ومن سمع بامرأة شابة متينة البنية تعيش في مثل هذا الشقاء . ومن ثم احفظ يا إلهي عيني جريجوري اللتين تسوءان يوماً بعد يوم. فإن امسى كفيفاً ، ماذا يمسي لديه سوى التسوّل في الشوارع ؟ وهل ذاك من العدل بشيء ؟ انه يفني شبابه في أعمال الجد .. بيد انه إن كف بصره هل يساعده ؟ آه ، يا ربي ، يا ربي القدير !

ثم تركن الى الصمت مدة طويلة ، حانية الرأس وقد تدلت ذراعاها وكأنها غارقة في سنة من النوم ، وبدت كتمثال جامد هادىء .

كنت شغوفاً باله جدتي . الذي يبدو مقرباً وعزيزاً عندها . ففي بعض الأحيان أقول لها :

– حدثيني عن الله ...

كانت تتحدث عن الله بطريقة خاصة ، فتقتعد السرير ، وتسدل عينيهـا ، وتبدأ الحديث بصوت هامس . وتشلح بمنديلها على رأسها ، وتبدأ بحبك قصتها الخيالية حتى أغرق في سبات من النوم ...

وما زلت اذكر انني مررت يوماً أمام غرفة خالي ميخائيل ، وكان الباب مفتوحاً ، فشاهدت العمة ناتاليا،قد اكتست البياض،تلف الغرفة ذهاباً وإياباً ، واضعة يديها على صدرها ، وهي تهمس بصوت يبعث الرهبة والخوف:

ــ آه ، يا إلهي خلصني من هذه العشيرة . خذني اليك ...

وقد ادركت ما ترمي من صلاتها ، كما ادرك ما يقصد جريجوري حينما يدمدم :

ــ سأمضي وأتسول عندما أمسي كفيفاً ، وسأكون عندئـذ أحسن حال مني هنا !

كنت أتمنى ان يصبح أعمى عما قريب حتى أغدو دليله ، فنخرج معاً نجوب العالم ونطوف في الآفاق ، نتسول كفاة عيشنا . وذات يوم بحت اليه بأمنيتي هذه . فضحك وقال :

ــ حسناً ! سنخرج سويا . وسأنادي في الطرقات حتى اسمع كل النـاس : « هذا هو فاسيلي كاشرين . صاحب معامل الصباغ » واعتقد ان ذلك سيكون مضحكاً ، اليس كذلك ؟

وكثيراً ما كنت ألاحظ تورماً في شفتي العمة ناتاليا ، وبقع سوداء وزرقاء تعتمر في وجهها الاصفر اللون . فاستوضحت جدتي مرة ؟

ــ تُرى أيضربها خالي ؟

ــ لعنة الله عليه ، انه يفعل ذلك خفية ، فقد منعه جدك عن ذلك ، لذلك فهو يضربها في الليل ، إنه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع حديثها متحمسة :

ــ لكن في هذه الايام لا يضربون كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي . لقــد اصبح الناس أقل وحشية منهم بالامس ! أجل ، قد يضربون أحياناً على الاسنان، والآذان ، أو الوجه ، مدة دقيقة أو دقيقتين ، وينتهي الامر ... لكنهم ، في

الماضي ، كانوا يعذبون المذنب ساعات طوال ؟ لقد ضربني جدك مرة ، من الفجر حتى مغيب الشمس ، كان يأخذ قسطاً من الراحة بين الفينة والفينة ، ثم يرجع الى ضربي ثانية .. كان يضربني بلجام الفرس ، أو حبل ، أو أي شيء آخر يقع في متناول يده .

— ولماذا ؟

— لست قادرة على التذكر الآن .فقد ضربني مرة حتى غدوت شبه ميتة، ثم منعني من تناول الطعام مدة خمسة أيام ، وقد نجوت من الموت باعجوبة في تلك المرة ..

لقد أذهلتني هذه الأحداث ، فحجم جدتي يساوي ضعفي حجم جدي ولم استطع ان اتخيل كيف كان يتغلب عليها...

***

وحدث ذات ليلة ، بينما كانت جدتي جاثية على ركبتيها ، تناجي الله في حديث مفعم بالايمان ، ان دفع جدي الباب على مصراعيه ، وصرخ بصوت جهوري :

— هيا ! يا أماه ! نحن نحترق ... انه شيء من الله ! هيا ! ..

فصرخت ، وهي تحاول النهوض !

— ماذا ؟

وانطلقت وجدي في عتمة الرواق الفسيح يصرخان ...

واخذت تصدر اوامرها بصوت عالٍ رزين :

— أنزلي الأواني ، يا يفجينيا ! وانت يا ناتاليا ، ألبس الاولاد ثيابهم .

واخذ جدي ينتحب وينوح :

— آه — ه — ه !

فعدوت الى المطبخ .. كانت النوافذ المطلة على الساحة تشتعل لهباً ، وكتل صفراء تتدحرج على الارض وتسيل، وأخذ الخال ياكوف يقفز عالياً وهويدافع

ميه كأن تلك الكتل تحرق حذاءه ... دمدم بصوت أجش :

ــ آه ، لقد أشعل ميخائيل النار ، شغلنا بها وتوارى .

فقذفته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الارض ، وصاحت :

ــ صَهْ ، أيها الوحش ؟

كنت أشاهد المعمل يحترق ، من خلال الجليد المتكاثف على زجاج النوافذ، وألسنة النار تندفع عبر الباب المفتوح على مصراعيه . وأخذت الشهب الحمراء تعلو في الجو الحر ، وترسل نفاثها الأسود فيجتمع غيوماً كثيفة في ذلك الليل الهادىء .. ورأيت الثلج يتورد بانعكاسات ارجوانية ، واخذت جدران البيت تترنح وتهتز ... وأخذت النار تشتد ، واخذ رونقها يضفي على المعمل فتنة وجمالاً ، يشدني اليه بقوة خارقة لم استطع مقاومة إغرائها .

تدثرت بمعطف سميك من جلد الماعز ، وانتعلت أول حذاء عثرت عليه ، ثم اسرعت في الممشى حتى عتبة الباب حيث قبعت مذعوراً ، فلهيب النار قد أغشى بصري،وصم أذني صوت تأججها،وصيحات جدي وخالي وجريجوري .. وذهلت من تصرف جدتي ، فقد القت على رأسها بكيس فارغ ،ودثرت نفسها بحرام سميك نستعمله في كسوة الخيل عادة ، وقذفت بنفسها داخل المعمل ، وهي تصرخ :

ــ حامض الكبريت ، ايها البلهاء ! حامض الكبريت سيشتعل !

فصاح جدي :

- اثنيها يا جريجوري ! أوه ، لقد قضي عليها !..

وعادت جدتي مسرعة ، وقد انعقد الدخان فوق رأسها ، منحنية تحت عبء إناء حامض الكبريت الضخم .

زعقت بصوت جهوري ، وهي تسعل !

ــ يا أبتاه ، أخرجوا الحصان ! وانزعوا هذا الشيء عني ، ألا تشاهدون أنني احترق .

فانتزع جريجوري عن كتفيها حرام الحصان المحترق ، ثم تناول معولاً

وانثنى يزيل الثلوج المتراكمة على مدخل المعمل ، ويلقي بها في جوف النـــار ، واخذ خالي يقفز حواه والفأس في يديه ، وهرول جدي في اعقاب جدتي يغمرها بالثلج ، وهي توارى إناء حامض الكبريت في الجليد ، ومـا ان انتهت ، حتى غدت تفتح بوابة الساحة ، وأخذت تصرخ هناك ، وهي تتطلب من الناس الذين أتوا يعدون :

ــ ايها الجيران ، انقذوا مخزن الغلال، ستطاله النار ، ومخزن العشب اليابس. انزعوا السقف والقوا بالأعشاب داخل الحديقة ، إن كل ما جمعناه ، سيحترق ، وسيأتي دوركم بعدنا ! انثر الثلج عالياً ، يا جريجوري ، فأي فائدة في نثره على الارض ؟ وانت يا ياكوف، كفاك عدواً ، ناول القوم فؤوساً ومعاول اساعدونا ايها القوم الطيبون ، ليكن الله في عونكم !

وعدا ساراب داخل الساحة ، ثم قفز على قائمتيـه الخلفيتين ، فالقى جدي بقدميه ارضاً . كانت عيناه تلتمعان حمرة بانعكاس اضواء النار فيهما ، وأخـذ يعدو هنا وهناك ، نافخاً بمنخريه ، ويقفز في عنف حتى افلت له جدي اللجام وابتعد عنه هارباً ، وهو يصرخ :

ــ أمسكيه ، يا أمُّ !

فألقت جدتي بنفسها بين قوائم ذلك الحصان الهائـــج ولبثت دون حراك وقد فتحت له ذراعيها ، فتعالى صهيله حزيناً ثم هـــدأ ، وهو يتطلع بنظرات إلى النار المتأججة .

وأخذت جدتي تربت على رقبته وتمسك اللجام بكلتي يديهـــا ، ثم تقول بصوت عميق :

ــ لا تجزع ! هل اتخلى عنك في مثل هذه اللحظة المخيفة ؟ انت ايهـا الفأر الصغير الطائش ؟

فأخذ الفأر ، الذي يكبرها بثلاث مرات حجماً، يتبعها بهدوء وطاعة حتى البوابة ، صاهلاً كلما رأى وجهها المتورد .

واندفعت المربية يفجينيا مع الأطفال من المنزل ... وقـــد تدثرن جميعاً

بالأغطية وهم يصرخون بأشياء مبهمة ..

صاحت المربية :

ـ لم اجد الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش

فتواريت تحت درجات السلم حتى لا تاخذني بعيداً مع الباقين ، في حين صاح جدي منهمكاً :

ـ دعينا ، دعينا !

وتهاوى سقف المعمل تاركاً وراءه سحباً من الدخان الكثيف بقي مـــدة يتطاول نحو السماء ... وبـــدأت الأحواض تتفجر وتفور ثائرة ، وهي ترسل بغيوم من الدخان والابخرة فتنشر رائحة غريبة في أرجـــاء الساحة ، تجعل الدموع تتهدل وتنساب من العيون ..

انطلقت من مخبئي وتهاويت بجانب جدتي ، فصرخت بي :

ـ اذهب من هنا ! وإلا رفسوك ! إبتعد .

ولج إلى الساحة خيّال يعتمر خوذة فولاذية كبيرة ، وقد علا الزبد فم جواده الأشقر ، وشرع يلوح بسوطه ويصرخ مهدداً :

ـ افسحوا الطريق !

وتعالت أصوات اجراس صغيرة تدق بتتابع . كان كل شيء بهيجاً مسلياً كأيام الأعياد والأفراح . ونهرتني جدتي من جانب الباب قائلة :

ـ ألم تسمعني ؟ قلت لك ! ابتعد من هنا !

ومن الاستحالة ان اعصيها في مثل هذه الظروف . فعـــدت ادراجي الى المطبخ .. وقبعت الى النافذة من جديد . كانت تلك الجموع من الناس تتوارى احياناً واحياناً أخرى تحجب عني مشهد النار فلا اعد اشاهد غـير لمعان الخوذ الفولاذية وهي تتناقل في كل مكان .

وسرعان ما اخمدت النيران بعد ان حصرت في منطقة واحـدة . وتساقط المياه الغزيرة عليها . ووزعت الشرطة الجماهير المحتشدة. وبعد ان انتهى كل شيء عادت جدتي ببطء الى المطبخ ..

– من هناك ؟ اهذا انت ؟ ألم تم بعد ؟ هل انت وجـل ؟ لا تخف ! فقـد انتهى كل شيء الآن !

ارتمت بالقرب مني إلى الوراء والامام من غير ان تنبس ببنت شفة ، كنت مسروراً بهبوط الليل يخيم عليه الهدوء وتغمره الظلمة ، بيـــد انني في الوقت نفسه ، كنت جد آسف على حرماني من مشهد النار .

بدا جدي في العتبة :

– أماه !

– ماذا بك ؟

– هل أصبت ؟

– لا شيء يسترعي الانتباه ..

اشعل الشمعة الكائنة على الطاولة ، فبدا وجهه السنجابي الملطخ بالدخان . ثم اقتعد الارض بجانب جدتي ، قالت :

– يجب أن تذهب وتغتسل !

فتنفس جدي الصعداء :

– ما اوسع رحمة الله إذ اعطاك هذا الذكاء !

وربت بلطف على كتفها ، وأردف وقد علت ابتسامة ثغره :

– اقصد انه يهبك اياه في فترات قصيرة متباعدة. بيد انه على كل حال يرسله.

وندت عن جدتي ضحكة وفغرت فاها تريد ان تقول شيئاً ، بيد أن جدي قطب وجهه ، وأردف :

– ينبغي ان ننته من جريجوري ، فكل ما وقع كان بسبب إهماله ، إنه لم يعد ينفع شيئاً . ان ياكوف ينتحب عند العتبة . يجدر بك ان تذهبي اليه .

فنهضت وهي ترفع يدها وتنفخ على أصابعها ، ثم خرجت .

وبدون ان يلتفت جدي اليّ استوضحني قائلاً :

ـ هل شاهدت الحريق من بدايته ؟ حسناً ، ما رأيك بجـــدتك ؟ واذكر دائماً انها امرأة هرمة ..منهارة..إن في هذا عظة لك ، وللجميع أيضاً ، تفوا !

ولاذ بالصمت فترة ، واطفأ الشمعة باصابعه بعد ان نهض ، قائلاً :
ـ هل شعرت بالخوف ؟
ـ كلا
ـ حسناً ، لم يكن من داعٍ للخوف . هيا امض الى سريرك.
خضعت للأمر ، بيد ان النوم لم يراود اجفاني تلك الليلة ، فعدت ادراجي الى المطبخ ، وتسلقت الموقد ، وقبعت في زاويته .
وجهت جدتي اوامرها الى جريجوري :
ـ اوقد النار اولاً !
فصعد جريجوري بهدوء الى الموقد ، فوقع بصره على قدميَّ ، فاذا به يصرخ مرتعباً :
ـ من هناك ؟ تفو ! لقد اخفتني ! انت لا توجد الا حيث لا حاجة اليك على الاطلاق .
ـ ماذا هناك ؟
فأجاب بصوت هادىء ، وهو يعود الى الارض :
ـ العمة ناتاليا تلد !
وتذكرت ان امي لم تصرخ بهذا الشكل حين وَضعتْ ، وعندما رفع جريجوري الغلايات على الموقد ، صعد حتى اصبح مواجهي ، ثم اخرج من جيبه غليوناً .
قال وهو يتطلع إلى الغليون:
ـ اعتقد ان التدخين افضل ، لذا بدأت أدخن لأن في ذلك ابراء لعينيَّ .
جلس على حافة الموقد ، يرنو الى نور الشمعة الخافت ،وقد لوث الدخان الاسود اذنيه ووجهه،وشق قميصه بحيث اشاهد اضلاعه تهبط وتعلو،وتكسرت إحدى زجاجتي نظارته السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فأفسحت فرجة يستطيع المرء ان يشاهد من خلالها عينه الحمراء التي بدت كجرح مشقوق يدمي.

وحشى غليونه تبغاً ، وأخذ يرهف السمع إلى تأوهات تلك المرأة الماخض ، ويحدث نفسه كالرجل الثمل :

– اعتقد ان النار نالت من جدتك . ترى ، كيف ستدبر امر توليد عمتك ؟ هل علمت كيف امضت عمتك نهارها ؟ لقد تركوها وقد بدأ المخاض منـــذ نشوب الحريق ، وقد تألمت نتيجة الخوف تأمل ، كم هو صعب حمل مخـــلوق جديد إلى هذا العالم ! ومع ذلك ، فليس من أحـــد يعير تلـك المرأة أدنى انتباه . ينبغي ان تحترم المرأة ، فهي أم ، وهذه هي الحقيقة ، فـــلا تنسها مطلقاً .

غفوت فترة من الزمن استيقظت بعدها على صوت جلبة شامـــلة وصيحات الخال ميخائيل .. وأصبحت الحرارة لا تحتمل بالقرب من الموقد فنزلت عنـه مسرعاً . بيد انني لم أكد أدنو من خالي حتى كال لي رفسة بقدمه فارتميت ارضاً، وقد اصطدم رأسي بالارض ، فصرخت :

– أحمق !

فشب واقفاً ، وانتشلني ، مأرجحاً بي الهواء وهو يدمدم :

– سأسحقك على الموقد !

وعندما افقت مستعيداً صوابي وجدتني ممددا على ركبتي جدي في الصالون الكبير ، في زاوية يهدهدني ، وقد علقت عيناه في السقف وهو يدمدم :

– لن يصيب أحد منا المغفرة ابدا ...

سألني جدي وهو يلاطفني

– ماذا يؤلمك ؟

كنت أشعر ان كل عضو فيّ يؤلمني ، فرأسي نديان وقد شعرت بثقـــل جسمي . بيد انني لم اجد رغبة في الافصاح عن ذلك . ووجدت ان كل من حولي غرباء ، وكان خالي ياكوف واقفاً باستقامة بجانب الباب وقد وضع يديه خلف ظهره . قال جدي:

– اقترب يا ياكوف ، وخذه إلى فراشه .

فأشار إليّ خالي ، فسرنا الى الغرفة على رؤوس أصابعنا . وما ان تمددت على السرير حتى همس الخال في أذني :

ـ لقد توفيت عمتك ناتاليا ...

فلم استغرب للخبر ، لأن عمتي بقيت فترة طويلة لم تبدُ ملامحها في انحاء البيت ، ولا تلج المطبخ ، ولا تقعد الى الطاولة لتناول الطعام .

ـ اين جدتي ؟

فأجابني ، مشيرا بيده :

ـ هناك ، في الاسفل !

وعاد كما جاء ، يمشي على رؤوس اصابعه الحافية ...

استلقيت على السرير اتأمل حولي قلقاً . وبدأت تتصور لي ، على زجاج النافذة ، وجوه عديدة وقد كللها الشيب . وفي الزاوية كان ثوب جدتي قد علق فوق الصندوق ، كنت اعلم هذا بيد ان الثوب تراءى لي وكأنه مخلوق حي يتربص هناك بين الظلال. فدسست رأسي تحت الغطاء ، تاركاً إحدى عيني مثبتة في الباب . كنت أود ان اقفز من السرير وألوذ بالهرب .. وكانت الحجرة حارة ، وقد غصّ المنزل برائحة غريبة ، تذكرني بموت تسيجانوك ، والدم يتصبب من فمه على الارض ، وشعرت ان رأسي ، بل قلبي ، ينتفخ ...

وأصغيت السمع الى الباب يفتح بهدوء ، ثم ولجت منه جدتي ، ثم اغلقته بكتفها ، وبقيت مستندة اليه ..

دمدمت في لهجة بلهاء شاكية :

ـ يا ليديّ المسكينتين ! ... كيف احترقتا ! ...

٥

وفي مطلع الربيع حصل تقسيم الاملاك ، فبقي ياكوف في المدينة ، وعبر ميخائيل النهر إلى كونافينو . واشاد جدي لنفسه بيتاً جديداً جميلاً ، حجري البناء في شارع بوليفوي ، واقام في الطابق الارضي منه خمارة كبيرة ، واقام على السطح غرفة انيقة صغيرة . وامتدت امـــام البيت حديقة تطل على وادٍ تتمايل فيه اشجار الصفصاف العارية .

كنا نجوب ارجاء الحديقة ، انا وجدي، ونطوي الممرات الناعمة التربة ، قال جدي يخاطبني وقد غمزني بطرف عينه مغتبطاً :

ـ ما أكثر القضبان في هذه الحديقة ! وعما قريب سأبدأ بتعليمك الكتابة والقراءة . وعندئذ سأكون بحاجة ماسة الى هذه القضبان !

كان المنزل يغص بالمستأجرين ، فأفرد جدي له غرفة رحبة في الطابق العلوي واعدها لإستقبال الضيوف كذلك . وكان نصيبنا ، انا وجدتي ، غرفة تطل نوافذها على الطريق ، كائنة على السطح ، حيث تتمكن من مشاهدة السكارى وقد لفظتهم الخمارة في ايام الاعياد والامسيات .. وفي كل صبـاح كان يذهب جدي الى معمل ولديه لمساعدتهما في تنسيق الاعمـال ،ثم يعود عشية ، منهوك القوى ، كئيب الفؤاد . صلب الطباع .

بينما كانت جدتي تتدبر أمور المنزل ، وتطهي الطعام ، وتجفف وجهها الذي يتصبب عرقاً :

ـ شكراً سرمدياً لجميع الملائكة والقديسين ! ها قد انتقلنا اخيراً الى

حياة هانئة هادئة .. شكراً للعذراء البتول !

بيد انني لم اشعر بشيء من الهدوء في حياتنا .. فقد كان المستأجرون يملؤن المنزل دبيبا وصياحاً ، منذ الصباح حتى المساء يأتون وهم في عجلة من امرهم .. وكانوا ينادون جدتي :

ــ أكولينا ايفانوفا !

فكانت تبادرهم بابتساماتها العذبة توزعها عليهم بلطف زائد . وترهف السمع الى احاديثهم .. كانت قابلة ، وحكماً في المشاحنات البيتية ، وتعالج المرضى من الاولاد الصغار ، وتحكي قصة « حلم العذراء » عن ظهر قلب وتعلمها للنسوة فيزددن سعادة وغبطة ، ثم تدلي بنصائحها في امور البيت ومتطلباته .

اما انا فقد كنت اتبع اثرها طوال النهار ، ممسكاً بثوبها في الساحة او في الحديقة أو عند الجيران ، حيث تمكث بعض ساعات ، تروي ما لديهـــا من اقاصيص واخبار .. وهي ترتشف الشاي .. وكنت أبدو ، عند ذاك ، كأنني جزء منها ، وخلال تلك الفترة من حياتي لم اعد اذكر أحداً ، سوى هذه العجوز النشيطة اللطيفة .

وفي بعض الاحيان كانت تبدو امي بيننا في لحظات قصيرة ، وكانت لا تزال غير مبالية ، تلاحظ كل شيء بعينين باردتين قاتمتين كأشعة شمس الشتاء المكفهرة . ولا تمكث بيننا طويلاً ، فسرعان ما تتوارى من غير ان تترك في اثرها شيئاً يذكرنا بها .

استوضحت جدتي ذات يوم :

ــ هل انت ساحرة ؟

فندت عنها ضحكة :

ــ حقاً ؟ من اين استنتجت ذلك ؟

وعادت الى محياها علائم الجد والصرامة ، واردفت :

ــ ومن انا لاكون ساحرة ؟ الشعوذة فن شائك . وانا لا الاحظ الالف من البـــاء ! تأمل جدك ! يا له من رجل مثقف ! بيد ان العذراء النقية لم تهبني ،

الكثير من المعرفة والحكمة .

وافضت حينذاك بجزء آخر من حياتها الخاصة :

— لقد نشأت يتيمة . وكانت والدتي تعمل فلاحة معدمة . وذات يوم انزل سيد نبيل الرعب في قلبها وكانت ما تزال عذراء بعد .. ففي ذات ليلة رمت بنفسها من إحدى النوافذ ، فتحطمت خاصرتها وكتفها . وشلت يدها اليمنى عن الحركة ، عنصر العمل الهام ، اذ كانت تعمل في التطريز . وقد اعتقها النبيل بعد ذلك بفترة قصيرة من الزمن لعدم جدواها .. وهكذا امست تستجدي في الطرقات . وقد كان اهل بالاخنا في ذلك الوقت ، اطيب قلباً واوسع غنىً ، وكانت قلوبهم من ذهب وكل واحد منهم افضل من الآخر . فلم نترك المدينة ، واخذنا ، انا وامي نستجدي الناس طوال الخريف والشتاء ، وغادرنا بلدتنا بعدما نضى جبرائيل سيفه ، فأذاب الجليد ، فاذا الربيع يخطر على وجه الارض ويتمايل بابهى حلله .. فمضينا الى موروم ، ومنها الى بوريفست ، ثم سرنا على طول نهر الفولغا ونهر اوكا الهادىء .وكم كان مسيرنا جميلاً ! فالارض تعبق برائحة الربيع ، والاعشاب تتمايل ندية في طراوتها كالحرير ، وقد نثرت العذراء الزهور في جميع الارجاء ، فيغتمر السرور نفسك ،ويمتد الفضاء الواسع امـــام ناظريك يطفح بهجة وحبورا.. فاذا بغناء امي يتعالى في الآفاق، وقد اغمضت عينيهـا نصف إغلاقة ، ويتراءى لك ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهدوء والسكون ، يصغي السمع الى تلك التسابيح ..فقد كان صوتها آسراً .. ولكن ما ان بلغت العاشرة من عمري ، حتى رفضت والدتي ان اصحبهـا للتسول . كانت ترى ذلك مخزياً .. بل فضيحة شائنة .. وهكذا استقرت في بالاخنا ، حيث كانت تدق الابواب طلباً للطعام ، وفي ايام الآحـاد كانت تقف على باب الكنيسة تستجدي الناس والمصلين . بينما كنت انا ابقى في البيت لأتعلم التطريز، ولم اقدر ان اتقنه بسرعة ، رغم اني كنت شغوفة بمساعـدة أمي المسكينة ، وعندما يكون النموذج شائكاً ولا انجح في انجازه ، كنت استرسل في النحيب والدمع يذرف مدراراً من عيني . وسرعان ما اتقنت في سنتين ، تصور ، تلك

المهنة الشائكة ، واصبح لي شهرة في البلدة وضواحيها ولم يكن يأتنا من القوم إلا من اراد عملا ممتازاً ، ويقولون : « حسناً يا أكوليا . هلا لعبت باصابعك وإبرك ؟ » . وكنت مسرورة بذلك ، وإن كنت ، في الحقيقة غير جديرة بتلك الشهرة التي كانت والدتي أولى بها مني ، لأنها هي التي لقنتني الدروس رغم شلل يدها اليمنى .. وكنت متعجرفة جداً . فقلت لها : « تستطيعين الآن ، يا أماه ، التوقف عن الاستجداء ، فقد اصبحت قادرة على إطعامك من عمل يديّ ! » فأجابتني : « صه ! الا تعرفين ان هذا المال ينبغي ان يكون مهراً لك ؟ » . وسرعان ما بان جدك بعد ذلك ، رجل شاب في الثانية والعشرين من عمره ، وكان يعود بمال لا بأس به من عمله .. وتأملتني والدته كثيراً ، وادركت ما انا عليه من البؤس ، وانني امرأة مستعطية ، مما جعلها تفكر بانني سأكون الزوجة الصالحة المطيعة .. هل سمعت .. وكانت هي بائعة للحلوى والكعك ، خبيثة ماكرة ، لكن ليسامحني الله ، لماذا التحدث بالسوء عن الموتى ؟ وما الفائدة من ذلك ! ان الله يراهم ، والشيطان يحبهم ..

وندت عنها ضحكة صادرة من الاعماق فأخذ انفها بالاهتزاز على نحو يبعث السخرية ، واخذت ترنو اليّ بعطف يفصح عن مقصده اكثر مما تعني الكلمات ..

* * *

ولم ازل اذكر ليلة هادئة ساكنة بينما كنت ارشف الشاي مع جدتي في حجرة جدي . كان المرض قد المّ به . فآوى الى فرشه ، وقد نزع عنه قميصه ، ودثر كتفيه بنشفة كبيرة يجفف بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتصبب على جبينه كانت انفاسه تتلاحق مسرعة ، وقد غطت عينيه سحابة قاتمة .. ويداه ترتجفان كلما حاول ان يمسك بفنجان الشاي بشكل يبعث الشفقة فعلا . كان لطيفاً ، في ذلك النهار ، على غير عادته .

اخذ يشتكي لجدتي بلهجة طفل مدلل :

— لماذا لم تضعي لي قطعة من السكر ؟

فأجابته بنعومة هادئة ، ولكن بصرامة ايضاً :

ـ لأن العسل انفع لك .

فارتشف فنجان الشاي متململا شاكياً . قال :

ـ حاذري ان اموت .

ـ لا تخف ، فانا ساهرة بجانبك .

ـ حسناً ، فانني لو مت الآن لكنت كمن لم يعش ابدا ، او من عاش من اجل لا شيء .

ـ نم يكفيك ثرثرة .

بقي مضطجعاً فترة قصيرة ، مغمض العينين ، لا يأتي حركة .. ثم نهض فجأة ، وكأن احدهم لمزه .

ـ ينبغي ، يا اماه ، ان تزوجي ياكوف وميخائيل في اقرب وقت . ربما جعلهما ذلك أكثر الفة وتعقلا . ما رأيك ؟

وبدأ يستعرض فتيـــات البلدة اللواتي يلقن الزواج من ولديه ، في حين شرعت جدتي ترتشف الشاي، الكأس تلو الآخر ، دون ان تعيره أدنى اهتمام بالموضوع .

وعقاباً على اخطاء اقترفتها، منعت من النزول الى الحديقة .. فجلست غروب يوم الى النافذة اشاهد بريق نوافذ المنازل وقد انعكست فيهـــا اضواء الشمس الصفراء، واسرح النظر فوق تلك المدينة .. كانت ترد من الوادي، وراء الحديقة، اصوات اطفال يلهون بين الاشجار الغضة ، فيدفعني شوق يائس ، وقد اثقلت كآبة الغروب على نفسي ، ان اشاركهم في لهوهم .

وفجأة ، أخرج جدي من جيبه كتاباً انيقاً ، وضرب عـــليه براحة يده ، وناداني بصوت اليف :

ـ انت، ايها الحسون الصغير ! تعال هنا ! اجلس . ايها التتري الوجه ! هل ترى هذه العلامـــة ؟ إنهـــا « الف » في أب . ردد ذلك : « الف في أب » « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟

ـ « ب » في باب .

– صح وبعد ،
– « ت » في توت .
– خطأ : « الف » في أب . انظر هنا . « د » في دار ، « ج » في جـــار ما هذه ؟
– « ج » في جار .
– صح ، وهذه ؟
– « د » في دار .
– عظيم ، وهذه ؟
– « الف » في أب .
فقاطعتنا جدتي قائـــلة :
– من الافضل لك ان تنام بهدوء ، يا ابتاه !
– صه ! ان هذا يزيل عني بعض المتاعب ، تابع ، يا السكي !
وطوق رقبتي بساعده الحار الرطب ، واخذ يشير الى الحروف ، وقد امسك في اليد الثانية بالكتاب تحت انفي تواً .
كان مزيج من رائحة الخل والبصل المشوي والعرق تفوح منـــه ، تكاد ان تخنقني . . .
كنت ارنو اليه مغتبطـــاً ، وقد جلست جدتي ومرفقاها على الطاولة ، وأصابعها على خديها ، تبتسم وهي تتأملنا .. قالت :
– كفاكما ثرثرة !
واستدار جدي إليّ ، يشرح لي بمودة :
– انني اثرثر لانني مريض .
ثم حك رأسه المتصبب عرقاً ، وقال موجهاً حديثه الى جدتي .
– لقد اخطأت المرحومة ناتاليا عندما قالت : إن ذاكرته سيئة ، انها اشبه بذاكرة حصان اصيل ! تابع ، يا افطس الانف !
ثم شدني اليه ، فيما بعد نحو السرير مازحاً :

- يكفي الآن ! احتفظ بالكتـــاب ، سأسألك غداً عن جميع الاحرف الابجدية ، فأياك ان تغلط في قراءتها ، وسأهبك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .

وعندما دنوت منه لآخذ الكتاب ، ضمني اليه ، وقال بلوعة :

- ما الذي حمل والدتك الى الذهاب وتركتك هنا ، يا بني ؟

فتدخلت جدتي :

- ما الفائدة الآن من الكلام عن ذلك ، يا ابتاه ؟

- الاسى يحملني على ذلك .. آه ، يا لها من فتاة ، بئس ان تضل !

وابعدني عنه بحركة عنيفة :

- اذهب من هنا والعب ، ابق في الساحة او في الحديقة ! لكنني امنعك من الخروج الى الشارع . أتسمع ؟

وهذا ما كنت أبغيه ، اذ لا اكاد ابدو فيها حتى يأخذ الاطفال الذين يلعبون في الوادي يرشقونني بالحجارة ، فأرد لهم الصاع صاعين .

كانوا يهتفون ، عندما يشاهدونني :

- ها هي ذي البقة !

ثم يتجمعون في كتلة واحدة ، ويصرخون :

- اضربوه !

لم يكن عندي فكرة عن ماهية البقة ، وهذا يفسر انه لا يمكنني ان اعتبر أقوال الاطفال إهانة موجهة إليّ . وكنت اجد نفسي سعيداً باعتباري خصماً لجميع تلك الجماعة ، واراهم يتزاحمون هربا عندما أصب عليهم وابلا من الحجارة ، ويتوارون خلف الادغال الكثيفة . وكانت هذه المعارك تنتهي دائماً على خير وجه ، بدون ان تقع أذية .

تلقنت القراءة بسرعة ، مما جعل جدي يزيدني عناية واهتماما ، ويخفض من عدد مرات جلدي ، مع انني كنت ، في الواقع ، استأهل الجلد اكثر من ذي قبل . وبما انني أزداد نمواً عقلياً وجسدياً ، فقد بدأت في مخالفة اوامر جدي . فكان يكتفي بتعنيفي أو بهز أصابعه في وجهي .

تصورت عندئذٍ ، انه كان في غالب الاحيان يجلدني في صغري دون سبب وجيه، وذات يوم بحث له بوجهة نظري ، فنقر نقرة ناعمة تحت ذقني ،ورمقني بنظرة ، وهو يتشدق في كلامه :

ـ ما .. ذا ؟

ثم اردف وهو يقهقه :

ـ انت ايهـا المسخ الصغير ! من انت حتى تدرك عدد المرات التي يجب ان تضرب فيها ؟ انا وحدي ادرك ذلك ! هل فهمت ؟

وامسكني من كتفي ، بينما كنت اشيح عنـه ، ومرة اخرى اخذ يرمقني بنظراتـــه :

ـ أأنت خبيث ام أبله ؟

ـ لا ادري .

ـ لا تدري ، ماذا ؟ حسناً ، سأعـلمك إذن ، انت خبيث ، وهذا افضل من البلاهة ! الحيوان ابله ، هل فهمت ؟ والآن ، امضِ والعب ..

وسرعان ما ابتدأت في تهجية كتاب المزامير ، وكان جدي يدرسني ، في اغلب الاحيان، بعد تناول الشاي ، حيث كنت اقرأ في كل يوم مزموراً باكمله .

كنت اتوقف عن القراءة لأستمع اليه ، وارنو الى وجهه المضطرب . كانت عيناه تحدّقـــان من فوق رأسي ، وقد امتلأتا بكآبة عنيفة تذوب في جبروته المعتاد ، كان حاجباه الاحمران يرتعشان ، واظافره تنقر على الطاولة بعصبية ، وقد التمع الصباغ الذي يلوث اصابعه .

ـ جداه !

ـ ماذا ؟

ـ قص عليّ حكاية ..

فيأخذ في فرك عينيه كأنه قد استيقظ لتوه من النوم :

ـ هيا ! اكمل قراءتك ، ايها الكسول ! انك تفضل الاصغاء الى الخرافات اكثر من المزامير !

كنت متأكداً انه ، بدوره يفضل الروايات الخرافية على المزامير التي حفظها عن ظهر قلب . وقد آل على نفسه ان يقرأ جزاء منها كل ليلة قبل ان يذهب للنوم .

وابقى الح عليه حتى يعطف عليّ ، فيقص لي احدى قصصه قائلا :

— حسناً : ستحتفظ انت بالمزامير طوال حياتك . أما انا فقريباً سأمضي لاقابل ربي . .

ويستند الى حافة الكرسي ملقياً رأسه الى الوراء ،ويركز عينيه في السقف، ويغرق في تأملاته ، ثم يبدأ بالكلام عن والده والايام الغابرة . لقد حدث ، ذات مرة ، ان جماعة من اللصوص سطت على بالاخنا قاصدة دكان التاجر زاليف . فأسرع والد جدي عدواً حتى قبة الكنيسة لينبه الناس ، فأدركه اللصوص فأثخنوه بسيوفهم والقوا به من فوق البرج .

— كنت لا ازال طفلا صغيراً فلم ادرك تلك الحادثة ، ولم اعد اذكرها . وتعود ذكرياتي الاولى الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢ ، ولم اكن اتجاوز الثانية عشرة حينذاك ، عندما اقتادوا حوال ثلاثين اسيراً حتى بالاخنا ، وقد كانوا ضامري البنية ، فبرزت عظامهم ، وتهدلت اسمالهم حتى غدوا كالمتسولين ، وقد تجمدت اطراف بعضهم من البرد فاصبحوا عاجزين عن الحركة يستطيعون النهوض على اقدامهم ، واراد الفلاحون قتلهم عن بكرة ابيهم . بيد ان الحراس وحامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وارجعوهم عنوة الى اكواخهم . ثم جرت الامور على ما يرام ، واعتاد الفريقان بعضهم بعضاً ، وكان الفرنسيون طيبو القلب ، ثاقبو الفكر ، يتغنون بامجادهم حيثما طاب لهم . . واخذ نبلاؤنا يأتون من نيجني نوفجورود في العربات ليتفرجوا عليهم . . وما زلت اذكر ان شيخاً كان من كبار النبلاء ، حجب وجهه بيديه مرة وراح يبكي ويصيح : « هل شاهدتم ما اتاه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » تأمل ذلك ، روسي طيب القلب ، تحمله الشفقة على هؤلاء البؤساء الاجانب .

ويركن جدي الى الهدوء والسكون فترة ، ويسدل عينيه ، ويسوي شعره

الطويل بيده ، ويحني رأسه .. ثم يتابع حديثه باهتمام ، مفتشاً في زوايا ذكرياته العتيقـــة :

– وأتى الشتـاء باعاصيره الهائجة ،ورياحه القارسة تزمجر بعنـــاد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يعدون حتى نوافذنا ينادون والدتي ، وكانت تصنع الكعك ، يتسمرون في مكانهم وهم يقرعون الباب على والدتي ويطلبون منهـا الكعك الساخن ، وكانت والدتي لا تسمح لهم بالدخول الى المنزل بل كانت تناولهم الكعك من خلال قضبان النافذة ، فيتخاطفونه ساخناً تفوح منه رائحة زكية فيضعونه فوق القلب تماماً . ولم ادرك كيف كانوا يتحملون تلك الحرارة الشديدة ! ومات اكثرهم من الصقيع،لأن سكان البلدان الحارة لا يستطيعون تحمل ذلك الجليد . وقد اقام اثنان منهم عندنا ، احدهما ضابط والثاني مرافقه ويدعى ميرون، وكان الضــابط فارغ الطول، نحيل القوام، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . كان طيب النفس لطيفاً ، مدمنـــاً على الشراب . وكانت امي تصنع الجعة بالسر ، فكان يبتاع منها مقادير كبيرة .. ويأخذ في انشاد اغانيه اللامتناهية في ساعة نشوة السكر . وأخذ شيئاً من لغتنا ، فكان يردد في بعض الاحيان : « بلادكم ليست بيضاء ، إنها سوداء جـــافة ..» اما مرافقه ميرون فقد كان مولعـاً بالخيل كثيراً ، يتجول بين الاسطبلات ويسأل القوم السماح له العناية بالخيل بلغة الاشارات . بيد أن القوم قد خافوا منه بادىء الامر ، فهو عدو وليس من شيء يمنعه من إتيان السوء . ولم تمض مدة من الزمن حتى أمسى الفلاحون، بعد ان جربوه،يأتونه من تلقاء أنفسم .. ولكنه فقد عقله فيما بعد وذات يوم امطره رجال الاطفاء ضرباً حتى مات .. اما الضابط فبقي يذوي ويذوي مع اطلالة الربيع ،وبعد ذلك مـــات ، دون اي ضجة في عيد القديس نيقولا . واحسست بالاسف لأجله وذرفت عليه بعض الدموع سراً . فقد كان انساناً لطيفاً . والعالم لا يوجد فيه عدد كبير من أصحـاب القلوب الطيبـــة ..

كان جدي يتمدد في ذلك الجو الداكن بشكل مريع وقد اشتدت الظلمة . كانت عيناه تشمان كميني هو في الظلام . وهو يتحدث عادة بهدوء . وتأمل .. بيد أنه ، وقد اخذ يتكلم عن نفسه ، اكثر حمية وتفاخرا . ولم تكن عظـــاته تروق لي :

– « تذكر ذلك ! » .. « إياك ان تنساه ! » .

ولم يكن يقص عليّ شيئاً من اقاصيص الجن ، فقد كانت اقاصيصه من صميم الواقع الحياتي من ماضيه بصورة خاصة . وادركت ان كثرة الاسئلة تزعجه كثيرا لذلك كنت عندما تسنح الفرصة اطرح عليه وابلاً منها :

– قل لي ايها افضل الروسي ام الفرنسي ؟

فيجيب غاضباً :

– ومن يستطيع الاجابة على هذا السؤال ؟ انا لم اشاهد الفرنسيـــين عن كثب في وطنهم الاصلي .

ثم يضيف .

– الفأر نفسه في حجره عظيم الفضيلة .

– وهل الروسيون طيبون ؟

– البعض كذلك والبعض الآخر لا ! لقد كانوا اناساً طيبين يوم كانوا عبيدا تقيدهم الاغلال . اما وقد امسوا أحرارا فقد تناسوا العادات القديمة . ولا شك ان النبلاء قساة القلوب نوعـــاً ما ، لكن النبيل اذا كان طيب القلب ، كان فاضلا جداً .. وبعضهم حمقى تماماً .. وكل ما نحتـاجه ان نشحذ عقولنا . بيد انه ليس من ثمة ما نشحذها به ..

– هل الروس اشداء ؟

– البعض منهم اشداء ، بيد ان القيمة ليست كائنة في القوة بل في الحذاقة ! فانت مهما بلغت من القوة ، يبقى الحصان متفوقاً عليك في هذا الميدان .

– ولماذا حاربنا الفرنسيون ؟

ــ الحروب من شأن الحكومات والقيصر . وليس علينا ، نحن عامة الشعب ان ندرك مثل هذه الامور ..

بيد انني لن انسى طوال عمري ، ما اجابني به جدي عندما سألته عن نابليون بونابرت ومن يكون .. قال :

ــ كان رجلا شجاعاً ، وقد اراد الهيمنة على العالم باسره حتى يتمكن من نشر المساواة فيما بينهم، وإمكان العيش معاً . فلا نبلاء ، ولا عامة ، بل الجميع سواسية . ومهما اختلفت الاسماء سيبقى الجميع متساوين في الحقوق ..

كان معظم الوقت ، يتأملني بعينيه الواسعتين فترة طويلة ، وكأنه يشاهدني للمرة الاولى ، وهذا ما كان يزعجني كثيراً .

بيد انه لم يحدثني البتة عن ابي او عن امي ..

* * *

اثناء هذه الاحاديث كانت تدلف جدتي احياناً الى الغرفة .. فتجلس على كرسي في الزاوية ، في هدوء تام ، وتركن الى الصمت فترة طويلة ، ثم تسأل ، على حين غرة ، بصوتها الناعم :

ــ هل تذكر ، يا ابتاه ، كم كانت تلك الايام جميلة ، يوم حججنا فيها الى ميرون لزيارة العذراء البتول ! في اي سنة حدث ذلك ؟

ــ لا اذكر بالضبط ، بيد ان ذلك حدث قبل الكوليرا ، في العام الذى طهروا فيه الغابات من الأولنخاريين .

ــ بالضبط ! فما زلت اذكر كم كنا نرهبهم !

ــ اجل ، اجل !

فسألت عن هؤلاء الأولنخاريين ومن يكونون ، وما الذي اجبرهم على التواري في الغابات . فأجاب جدي مشمئزاً :

ــ لم يكونوا سوى فلاحين عبيداً ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .

ــ وكيف امروهم ؟

— هل لك ان تعرف؟ لقد كان ذلك شبيهاً بلعب الاطفال.. البعض يعدون ويختبئون ، والآخرون يمسكون بهم . وبعد ان انتهى القبض عليهم جلدوا بالسياط، وضربوا بالهروات ، ثم جدعوا لهم انوفهم وكووا لهم جباههم بالنار كي يشاهد الناس العقاب الذي احل بهم .

— ولماذا فعلوا ذلك ؟

— من يعلم ؟ ذلك امر غامض مبهم . ومن العسير التمييز بين الحابل والنابل من الطرفين ..

فقالت جدتي مرة ثانية :

— هل تذكر ، يا ابتاه ، ماذا جرى بعد النار العظيمة ؟

فاستوضح جدي ، وقد عقد جبينه :

— اية نار عظيمة ؟

كانا يغرقان في ذكرياتها وينسيان وجودي في هذه الاحوال ، فتتدافع احاديثهما موزونة منسقة حتى يخيل لي انهما يشدوان أغنية شجية ، بيد انها اغنية كئيبة ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب التي تنزل بالمخلوقات البشرية ، واللصوص والنبلاء المنحدرون من الطبقة الراقية ، والمشردون ..

ويدمدم جدي :

— ما اكثر ما رأينا : وشاهدنا في حياتنا !

فسألت جدتي !

— وهل كانت حياة رديئة ؟ هلاّ تذكر جمال ذلك الربيع الذي ولدت فيه فارفارا ؟

— كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، عام الحملة على المجر .. وقد اقتادوا تيخون بعد يوم واحد من عمادها .

فتعالت من جدتي تنهيدة ، وقالت :

— ولم يعد منذ ذلك الحين !

ـ اجل لم يعد ! ومنذ ذلك الحين الى الآن ورحمة الله تنزل بعيداً عنا كالماء اذا سال على سطح مشحم . آه . إن فارفارا ..

ـ كفى يا ابتاه .

فاجاب محتداً :

ـ لماذا كفى ؟ ان اولادنا يغدون ارذالاً رغم كل العناية التي بذلناها لهم .

لقد ذهبت جهودنا التي بذلناها ! كالبذار في ارض قاحلة ! كنا نعتقد اننا نضع اشياءنا في مكان امين ، بيد ان الله اراد ان ينثر كل شيء من بين ايدينا .

وكمن لذع بالنار ، راح يقفز في زوايا الغرفة ، يشتم ابناءه هازاً قبضته الصغيرة العظمية في وجه جدتي ثم صرخ :

ـ لقد كنت تدافعين عن هؤلاء اللصوص وافسدتهم بتدليلك اياهم . انت ايتها الساحرة ! انت ايتها الساحرة !

ورمى نفسه في زاوية من زاويا الحجرة منتحباً ضارباً صدره الفارغ بيديه ، باكياً بصورة جد مؤثرة :

ـ لمَ يا ربي ؟ هل اخطائي اكثر من اخطاء الناس حتى انال هذا الجزاء القاسي ؟

وأخذت عيناه تلتمعان سخطاً والماً بالدموع ، واخذ جسمه يرتجف كورقة في مهب الرياح ..

كانت جدتي تبقى قابعة في زاوية معتمة ترسم شارة الصليب ، ثم تنهض بحذر وتمشي اليه ، وتقول معزية :

ـ لماذا تعذب نفسك بهذه الصورة ؟ ان الله بكل ما تأتي يداه عليم ! .. فليس ثمة اولاد افضل من اولادك . ان الامر متشابه في كل بقعة من بقاع الارض ، يا ابتاه .. منازعات ، خصومة .. وجميع الآباء والامهات يغسلون خطاياهم بدموعهم السخية ، ولستَ الوحيد الذي ...

كان حديثها ، في بعض الاحيان ، يرد اليه الهدوء والسكون ، فيدس نفسه

في الفراش متعباً وتتابع ، انا وجدتي ، الى غرفتنا . وذات يوم دنت منه تكـ بكلماتها اللطيفة ، فاستدار حول نفسه وكال لها لطمة على وجههـــا . فتمايل جدتي ، حاجبة شفتيها بيدها ، حتى إذا استعادت سكونها ، همست في صو أنيس :

– يا لك من أحمق !

ثم تبصق الدم عند قدميه ، فيرفع يداه فوق رأسه ، ويصرخ :

– إمض من هنا قبل ان اقتلك !

فاجابته جدتي ، وهي تشير ناحية الباب :

– احمق .

فرمى بنفسه وراءها ،بيد انها،تجاوزت العتبة ببطء،واغلقت وراءها البا في وجهه .فصرخ وقد تأجج وجهه كشعلة من النار ، ممسكاً بقبضة الباب ضار عـــليه بيديه :

– يا للفاجرة العجوز !

كنت في هذه الاثناء قابعاً على ظهر الموقد ، غير مصدق عيني ، فهذه المر الاولى التي يضرب فيهـــا جدتي وانا حاضر ، وقد تألمت من بشاعة ذلك وادركت من خصلته تلك عن صفة جديدة، اخذت تثقل كاهـــلي بصورة تطاق .. بقي هناك متشبصاً بقبضة الباب وقد علت وجهه الزرقة ، وعلى حير غرة اصبح في منتصف الغرفة، ثم ارتمى على ركبتيه مستنداً على ذراعه .ثم قف واقفاً ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصرخ :

– يا الله ! يا الله !

فاعطيت ساقي للريح ووليت الادبار ..

كانت جدتي في الطابق العلوي لا تهدأ لها ساكنة . وهي تغرغر كميـــة مر الماء في فمهـــا .

– هل تتألمين ؟

فمضت حيث المنسلة وبصقت فيها الماء .ثم اجابت بصرامة :

ـ لا ابداً ! لقد جرحت شفتي ولم تصب اسناني بسوء .

ـ لماذا فعل ذلك ؟

فاجابت وهي ترنو الى النافذة .

ـ لقد فقد صوابه ! .. اذهب الى فراشك ، وانسى ما حدث ..

فسألتها عن شيء آخر ، بيد انهـا صرخت بشدة غير مقصودة ، على غير عادتهـا !

ـ الم تسمعني ؟ امض الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !

بقيت قرب النافذة تمص شفتها وتبصق . من حين لآخر ، في منديلهـــا . وبقيت قابعاً اتطلع اليها ،وانا انزع عني ثيابي ، وقد التمعت فوق رأسها جمهرة من النجوم في غسق الليل . وعندما تدثرت باللحاف اقتربت مني ودغدغتني بلطف على جبيني :

ـ نمْ في امان . سأهبط اليه الآن .. فلا تأسف من اجلي ، ايهـا الحسون الصغير ! هيا ، الى النوم !

قبلتني وانطلقت . وتركتني غارقاً في بحر من الاسى والالم . فنهضت من السرير ، وتوجهت حتى النافذة . حيث قبعت أتأمل في الطريق الخاوي ، وانا ارزح تحت وطأة من العذاب القاسي .

٦

ومرة اخرى اصبحت الحياة غير محتملة ! ففي مساء يوم، وقد انتهينـــا من تناول الشاي واخذت في قراءة المزامير بصحبة جدي ، بينما انهمكت جدتي في توضيب الصحون وغسلها ، ، إذ بالخال ياكوف يدخل الغرفة كريح صرصر . فقد كان مشعث الشعر كعادته ، يشبه في منظره الخارجي مكنسة بالية ، والقى بقبعته في احدى زوايا الغرفة واخذ يتحدث بسرعة من غير ان يرمي السلام ، وأثناء ذلك كان يأتي بحركات غريبة همجية :

– ميخائيل غاضب ، يا ابتاه ! لقد تنـــاول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، واصبح كالمجنون ! فحطم الصحون ، ومزق ثوباً لأحـد العمال ، وهشم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الآن آت الى هنا . وقد حلف على النيل منك ! كان ينبح : « سأنزع شعر لحيته ! » ثم يصرخ ! « وسأقتله ! » . يجدر باك ان تأخذ حذرك منه ..

وانثنى جدي فوق الطـــاولة ، ونهض متحاملا على نفسه ، وقد تشنجت عضلات وجهه ، وصرخ قائلا .

– هل تسمعين ذلك ، يا اماه ؟ ما رأيك ، ايه ؟ يود قتل والده ! هذا الذي من لحمي ودمي ! حسناً ، لقد حان الوقت ! ايها الفتيان ..

واصلح وضعه ، ثم اخذ في الذهاب والمجيء في الغرفة ثم توجه الى البـــاب وانزل المزلاج الثقيل . ثم قال :

- انما تعدوان وراء مهر فارفارا !انني اعلم ذلك، لكن اليك ما ستصيبه..
والتفت نحو ياكوف ، وانثنى هازئاً تحت انفه توا . فتراجع هـذا الاخير ، وقال بصوت حاد :
- وما ذنبي انا ، يا ابتاه ؟
- انت ؟انني افهمك جيداً ، انت الآخر !

لم تنبس جدتي ببنت شفة ، بل اخذت ، بكل هدؤ ، تضع الفنـــاجين في الدرج ، ثم تقفل عليها :
- لقد اتيت احرسك !
فقهقه جدي بمكر :
ها ها ! انه جميل اعلمه ! اشكرك يا بني ! اصغي ، يا اماه ! اعطي هذا الماكر شيئاً يلهو به ، قضيب النار او المكواة ، وانت يا ياكوف ، في اللحظـة التي يتوصل فيها اخوك الى الدخول فاعطه اياها ، على رأسي ..
فابتعد خالي في احدى الزوايا ، واضعاً يديه في جيبه .

- حسناً بما انك لا تريد ان تصدقني.
فصرخ جدي ، وهو يرفس الارض بقدمه :
- اصـدقك ؟ أنت ؟ انني استطيع ان اصدق خنزير ، او هر او جرذ ، اما انت فلا : انت الذي ناولته الشراب المسكر واهجته ، انني اعلم ذلك ! حسناً .. اما الآن ، ينبغي عليك ان تتخلص من أحد الاثنين . هيـــا اختر . واقتل أحدنا ، انا او هو !
والتفتت اليّ جدتي ، وهمست :
- امض الى الطابق العلوي ، وراقب خالك ميخائيل من خلال النافذة ، واعلمنا عندما تراه بسرعة ! هيا امض إلى فوق ، اسرع !
فصعدت السلم عدواً وقبعت الى النافذة ..
كنت مضطرباً بعض الشيء عندما كنت افكر بما سيفعله خالي الغـــاضب

عندما يصل المنزل ، بيد انني كنت فخوراً بالمسؤولية التي انيطت بي .. كانت المناظر المحيطة تبعث في السأم ، حتى غدوت لا احتمل هذه الحـالة ، فاخذ صدري يغلي كإناء مليء بالبخار ، وقد ضاقت الاضلاع به حتى كاد ان ينفجر تحت وطئة الانتظار ..

وعلى حين غرة ، لمحت خالي يطل من خلف أحد المنازل ، وقد غطت قبعته رأسه حتى اذنيه. كان يرتدي معطفاً قصيراً ، وقد توارت احدى يديه في جيب سرواله ، بينما راحت الاخرى تشد على لحيته بغيظ وعنف . ولم استطع تمييز ملامح وجهه، بيد ان شكله قد اوحى لي انه قادر على القفز عبر الشارع ، واغماد مخالبه السوداء المليئة بالشعر في بيت جدي . كان ينبغي عليّ ان اذهب واخبرهم بمجيئه ، ولكنني لم اقدر ان انتزع نفسي بعيداً عن النافذة ، بل بقيت اراقبه باهتمام وهو يقترب بحذر شديد ، يجتاز الشارع ، ومن ثم يبلغ الى أسماعي صرير باب الحانة يفتح ، ثم يلج الى الداخل .

نزلت الدرج اربعاً اربعاً وقرعت بشدة باب حجرة جدي ، فصرخ العجوز بغيظ دون ان يفتح الباب :

ـ من هناك ؟ انت ؟ حسناً هل ولج الى الحـانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس ! ارجع من حيث جئت .

ـ إنني مضطرب !

ـ لا حيلة لي في ذلك .

فعدت ادراجي الى النـــافذة ... كان الظلام قد بدأ يدب بخيوطه .. واخذت الاضواء الصفراء تلتمع في النوافـذ .. وكان احدهم ينشد في الحانة ، وكلما فتح الباب رن في اذني صوت منكسر منهك اعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الاعور ، وكان صرير الباب يتعالى على صوته ، فتتوارى الاغنيـة وكأنها اصبحت صدى ..

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول على عيشه ، وعندما تستمع اليه ينشد تتعالى

منها تنهدة ثم تقول :

ـ ما اسعده على هذه النعمة ، لانه يعرف هذه الاغاني الرائعة .

وكانت تناديه احياناً الى ساحتنا ، فيقتعد عتبة الباب وقد أتكأ على عصاه ينشد مقطوعات من الشعر، بينما تجلس جدتي بجانبه تمطره باسئلتها الغزيرة :

ـ اتقصد ان تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريازان ؟

فيجيبها بلهجة واثقة :

ـ انها في كل مكان !

ثم غرقت في بحر من الذكريات كما يغرق المرء في حلم بديع ! بيد ان ضجيجاً وصراخاً وأصواتاً ترد من الحانة والساحة في الاسفل قد اعادتني الى الواقع ،فانثنيت على حافة النافذة لأشاهد جدي والخال ياكوف ، ورجلا آخر من عمال الحانة ، يثير منظره الضحك ، يدفعون خالي الثمل ميخائيل خارج الحانة الى الطريق ، كان يشق طريقه متعثراً فيكيلون له اللطمات ويركلونه ، حتى توارى اخيراً في غبار الطريق .. واغلقت البوابة واوصدت بالمزلاج ورمي بقبعة الخال الثمل من فوق الحاجز . ثم خيم الصمت والسكون .

وبعد فترة من الزمن قضاها خالي ميخائيل مضطجعاً ، رجع فانتصب على قدميه ، وامسك بحجر من على الارض ودك به البوابة ، فاحدث دوياً هائلا ، تدافع على اثره الناس من الحانة وقد إشرأبت أعناقهم ، كما غصت النوافذ بالرؤوس ، وامسى الشارع يضيق بالصياح والضحك . كان ذلك مشهداً بديعاً شبيهاً باساطير الجنيات ، بيد انه كان مزعجاً ومرعباً في الوقت نفسه ..

وفجأة ذهب الجميع وانتهى كل شيء، فران الهدوء ..

... وهذه جدتي قد قبعت على صندوق للثياب ، حانية الظهر ، لا تأتي حركة ، وانا اقف مواجهتها أربت على خديها النديين الناعمين الدافئين ، من غير ان تأخذ بالها مني على ما يظهر ، وهي تهمس باشياء عديدة :

ـ رباه القدير ، اليس لديك كفاية من العقل لتوزعه علينا ، انا واولادي ؟

رباه ، كن عطوفاً بنا ..

* * *

لم يمض على وجود جدي سنة كاملة في منزل شارع بوليفوي ، من الربيع الى الربيع . حتى اكتسبت الدار ، في تلك الفترة القصيرة ، سمعة سيئة جداً . فكان الاولاد يأتون متزاحمين ، عصر كل احد ، الى بوابة بيتنا ، فيجتمعون امامها ويشرعون بالهتاف مبتهجين فرحين :

– لا بد معركة جديدة في منزل آل كاشرين !

وفي مساء كل يوم كان الخال ميخائيل يأتي ، ويقيم طوال الليل ، وقد جعل من المنزل هدفاً لحصاره ، ومن سكانه فريسة للقلق الدائم .

وفي اغلب الاحيان كان يصطحب معه مساعدين او ثلاثة ، من مستخدميه في معمل كونا فينو ، فيتسلقون السور سوية ، ومن ثم يهبطون الى الحديقة ، حيث يطلقون لخيالهم الثمل العنان ، فينتزعون جذور الفريز ، والاغصان الندية ، وكل ما يقع في متناول ايديهم . وذات مساء اندفعوا الى غرفة الغسيل ، ومن ثم شرعوا في تحطيم كل ما يمكن تحطيمه ، وقد اخذوا معهم الموقد بعدما انتزعوا بلاط الارض ، وخلعوا الباب ، واخشاب النوافذ .

ويبقى جدي ملازماً للنافذة ، مكفهر الوجه ساكناً ، يرهف السمع اليهم وهم يحطمون املاكه ، اما جدتي فكانت تعدو عبر الساحة ، حيث تتوارى في العتمة فلا يصلنا منها سوى صوتها المتوسل :

– ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

لم افكر مطلقاً في اللحاق بجدتي في مثل هذه الاحوال ! لقد كان ذلك مستحيلا . بيد ان البقاء من دونها امر مخيف جداً ، فاذهب الى حجرة جدي ، الذي يصرخ في وجهي بشدة :

– اخرج من هنا أيها الشيطان !

فاعدوا الى الطابق العلوي ، اتفرس في الظلمة الداكنة حديقة بيتنا ، مركزاً

بصري على جدتي، محاولاً عدم تضييعها ، واناديها واصرخ خوفا من أن يفتكوا بها ، بيد أنها تأبى العودة .

وذات مساء اقعد المرض جدي ، فاضطجع في فراشه واخـــذ يئن بشكل يقطع نياط القلب . هازاً رأسه ذات اليمين وذات اليسار فوق الوسادة :

– اهـذا ما حييت من اجـله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الفضيحة لاستدعيت الشرطة ، ونهرتها امـام المحكمة . يا للفضيحة ! من سمع عن ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لا بد لك ايها العجوز ، سوى تحمل ذلك او ان تبقى ممدداً هنا بدون حراك !

وعلى حين غرة ، القى بقدميه على الارض ، ومضى يجر نفسه الى النافذة . فصرخت به جدتي ، وقد تعلقت بذراعه :

– قف ، الى اين تمضي ؟

فنهرها ، وهو يكاد يختنق :

– احضري لي شمعة !

فأشعلت جدتي الشمعة واحضرتها له . فامسك بها كجندي يمسك بندقيته ، فصاح ساخراً من خلال النافذة :

– تفو ، ميشكا ! ايها المجنون ! أيها الكلب الهائج ! يا سارق الليل !

وفي ذات اللحظة اذ بلوح زجاج من النافذة يتحطم ، وتقع قطعة منـه على المائدة قرب جدتي . فصاح جدي بلهجة لم اتبينها إن كانت بكاء ام ضحكاً :

– لقد اخطأت الهدف !

فانتشلته جدتي بين ذراعيهـا ، وجرته الى السرير ، وهي تدمدم بصوت مرتجف :

– ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو وقع شيء لكانت سيبيريا بانتظاره ! اتعتقد انه يفهم ماذا تعني سيبيريا عندما يكون على هذه الحال ؟

وتمدد جدي وقد ارتجفت ساقاه ، وهو ينتحب بصوت اجش :

– ليقتلني ...

وترامى الينا من الخارج صوت زمجرة وغضب ... فأختطفت قطعة الزجاج عن المائدة . وعدوت نحو النافذة . فامسكت بي جدتي ، وشدتني نحو الزاوية ، وهي تصيح :

— ايها المجنون الصغير !

ومرة اخرى تسلق خالي الباب الخلفي ، وأخذ يحطمه بهراوة غليظة ، وقبع جدي ينتظره في الصالة ، يسانده اثنان من الجيران ، وقد حمل كل منهما هراوة في يده . اما جدتي فقد قبعت وراء الجميع تتوسل :

— اتركوني ابلغه .. اتركوني أقل له كلمة واحدة ..

ومنعاً لكل طارىء ، رفع جدي هراوته ، وقد وضع قدماً الى الامام ، فامسى بذلك يشبه الفلاح حامل الرمح في لوحة «صياد الدببة». وعندما اقتربت منه جدتي دفعها بقدمه ومرفقه بعيداً .. كان الجميع يقفون في وضع تأهب، وانتظار .. وكان ضوء القنديل الكائن فوق رؤوسهم على الحائط ينير وجوههم بانواره الباهتة ، اما انا فبقيت في الطابق العلوي اراقب ذلك المنظر المخيف ، وتدفعني الرغبة في انتشال جدتي الى جانبي ، بعيداً عن ذلك المكان المرعب .

بقي خالي يضرب الباب هائجاً ، حتى تهشمت مفصلته السفلية وتركته يتأرجح في المفصلة العلوية التي أوشكت على الانهيار. وتوجه جدي الى مساعديه ، قال لهم بصوت كئيب :

— اضربوه على ساقيه ويديه . واحذروا من اصابته في رأسه !

وبالقرب من الباب كانت تركت نافذة صغيرة لا تسمح لأكثر من الرأس بالمرور من خلالها ، فحطم خالي زجاجها ، وتركها تفغر فاهاً في الظلمة الداكنة من بين شظايا الزجاج المتكسر. فصعدت جدتي حتى بلغت تلك النافذة ،ومدت يديها من خلالها ، واشارت بها الى ميخائيل وهي تقول :

— ميشا بحق المسيح ، عد من حيث جئت ! انهم سيهشمون احد اعضائك ان بقيت هنا ! عُد !

بيد انه كال لها بهراوته .. وتمكنت من مشاهدة شيء غليظ يلوح قرب

النافذة يصيب ذراعها . فاذا بها ترتمي على الارض ، وهي تصرخ من جديد :

ـ ميشا ! لذ بالهرب ..

ثم تكورت على نفسها ، وسكنت .

فصاح جدي ، بصوت مرعب :

ـ آه .. اماه !

وانبلج الباب، وانطلق خالي داخل الغرفة، بيد انه سرعان ما تمايل وسقط على العتبة .

ثم نقلت جدتي الى حجرة جدي الذي لحقنا بعد قليل .

استوضح مهتما ، وقد إنثنى عليها :

ـ هل تحطم العظم ؟

فأجابته ، من غير ان تفتح عينيها :

ـ اعتقد ذلك ! لكن ماذا فعلتم به ، ماذا فعلتم به ؟

فصرخ جدي هائجاً :

ـ ارجعي إلى عقلك ، يا امرأة ! اتظنيني وحشاً ؟ لقد اوثقناه ، وهو ممدد الآن في الاسطبل . وقد صببت سطلا من الماء على وجهه . يا لذلك الشيطان الذي انجبته ! ترى ، من اين اتيت به ؟

فتأوهت جدتي ..

ثم اضاف جدي ، وهو يجلس على السرير بجانبها :

ـ لقد بعثت في طلب المجبرة . حـاولي تحمل ذلك بعض الوقت . سوف يحمـلان الموت الينا يا اماه ، سيرسلان بنا الى المثوى الاخير قبـل ان يحين اجلنـا !

ـ اعطهما كل شيء .

ـ وفارفارا ؟

بقيا مدة طويلة يتحدثان ، جدتي بلهجتها الرزينة الكئيبة ، وجدي بلهجته الغـاضبة .

وفي النهاية اطلت امرأة صغيرة متكورة ، يملأ فمها وجهها ويصل من الاذن الى الاذن ، وقد فتح كفم السمكة فوق فكها الاسفل المضطرب بدون انقطاع، أما منخارها فحاد ناتىء يشطر الشفة العليا حتى يبدو للناظر اليه أنه يسعى الى الارتماء في أحضان الجوف الفاغر شدقيه . أما عيناها فقد بدتا صغيرتين غائرتين يستحيل للناظر رؤيتها . ولم تكن تسير على الارض ، بل بالاحرى تزحف على الارض متكئة على عكازين ، وقد حملت في احدى يديها صرة صغيرة ينبعث منها صوت رنين غريب .

اعتقدت انها الموت يزحف باتجاه جدتي ، فعدوت نحوها وشرعت اصرخ بكل ما ارتيت من قوة :

ـ اخرجي من هنا !

بيد ان جدي انتشلني ، ورفعني بين ذراعيه ، وصعد حـــاملاً بي حتى الطابق العلوي .

●

٧

لقد فهمت في وقت مبكر أن إله جدي يختلف اختلافاً كلياً عن إله جدتي فكانت هذه الجدة ، عندما تنهض صباحاً ، تبقى فترة طويلة في السرير تسرح شعرها ، فيهتز رأسها ، وتصر اسنانها ، وهي تمشط خصله الحريرية الناعمة ، السوداء الطويلة ، وتلعنها بصوت هامس ، مخافة إيقاظي :

ـ لتحل بك الجدري .. ليأخذك الطاعون .. لتحل عليك اللعنة ..

وفي بعض الاحيان كانت تمتنع عن تسريحه فتجمعه ، من غير عنـاية ، في ضفيرة واحدة ، وتسرع بالاغتسال ، وتند عنها طوال الوقت دمدمة غاضبة ثم تعود اليها نضارتها .. ثم تقوم عمودها الفقري ، وتحرك رأسهـا الى العلاء ثم قليلا الى الوراء . وتتـأمل بعطف وجه عذراء قازان المستدير ثم ترسم شارة الصليب باندفاع زائد وهي تهمس :

ـ ايتها العذراء المباركة يا أم الاله ، هبينا بركاتك في هذا اليوم الطالع ..

وتنثني حتى تلامس جبهتها الارض ، وتنهض بعدهـا بهدوء ، ثم ترجع الى الهمس بحمية زائدة وحنان كبير :

ـ يا منبع السعادة والسرور ، أيها الجمال الطـاهر ، يا شجرة تفاح في عز نموهـا ...

كانت كل صباح تجد تعابير جديدة من المديح والعبادة ، ممـا جعلني اتعلق بصلواتها . فاعيرها كل اهتمامي :

– ايها القلب الكبير الزائد الطهارة والالوهيــة .. يا نور نفسي ، يا شمس السماء البهية ، ويا ام الاله الحبيبة ، ويا حارسة مأواي ، انقذينا من أعمـــال الشيطان الرجيم ، واحميني من ان اهين احداً . او من تلقي إهانته من غير فائدة..

وتلتمع ابتسامة رقيقة في عيناها السوداوين . فيخيل اليّ انها تستعيد شبابها وفتوتها ، ثم ترسم بيدها الثقيلة وبحركة هادئة اشارة الصليب ، وتضيف :

– يا يسوع الحبيب يا ابن الله ، إرحمني انا الخاطئة بشفاعة امك الطاهرة ..

كانت صلواتها ، دائما ، تصدر عن قلب نقي طاهر ساذج . ولم تكن صلاة الصباح تستغرق وقتاً طويلا ، اذ لا بد من القيام باعمال البيت. وكان ان تأخرت في تقديم شاي الصباح ، يمطرها جدي بوابل من اللوم والتأنيب لا ينتهي .

كان جدي في اغلب الاحيان يستيقظ قبل جدتي ،فيصعد الى الطابق العلوي حيث يجدها مستغرقة في صلواتها ، فيغرق في سكون عميق وهو يرهف السمع اليها ، وقد علت على شفتيه الصغيرتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها بعد ذلك اثناء تناول الطعام :

– كم مرة علمتك الصلاة ، ايتها العجوز البلهاء ؟ ومع ذلك فأنت مصرة ، في تعنت ، على تلاوة سخـــافات من صنعك ! كيف يتقبل الله ذلك ؟ هذا ما يفوق إدراكي !

فتجيبه جدتي بلهجة صارمة واثقة :

– اما هو فيدرك .. ان المرء يستطيع ان يفاتحه بكل شيء وهو يدركه بكل تأكيد ..

– إنك معتوهة ، هذه هي حقيقتك ! تفو !

كان الهها يرافقها طول اليوم ، حتى انها تكلم الحيوانات عنه ، وكنت احس ان جميع المخلوقات من بشر وطيور ونحل وكلاب وحتى النباتات كذلك ، تخضع لذلك الاله القدير ..

وذات يوم تشاجر جدي مع إمرأة صاحب الخان ، فأنت هذه الاخيرة في قدحها وذمها على ذكر جدتي ، واكثر من ذلك قذفتها بجزرة كبيرة . فلم تأت

جدتي شيئاً بل قالت لها :

ـ انك بلهاء يا سيدتي العظيمة !

بيد أنني استأت كثيراً من افعال تلك المرأة تجـاه جدتي، واتخذت قراراً بالثأر لها .. فبقيت فترة طويلة افتش عن طريقة حسنة أنال بها من تلك المرأة الضخمة . وفتشت عن طريقة لم يستعملها احد من الناس ..

واستقر رأيي في النهاية على التدبير التالي : انتظرت ذات يوم إمرأة صاحب الخان السمينة حتى أتت الى القبو طلباً لحاجة ما ،فأغلقت الباب خلفها واقفلته ، واخذت أرقص رقصة الثأر ، ثم رميت بالمفتـاح على السقف . ومن ثم انطلقت بسرعة فائقة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تدرك اول الامر مبرر بهجتي ، حتى إذا علمت ذلك صفعتني مرات عدة ، ثم نهرتني حتى الساحة طالبة مني احضار المفتاح. فأتيت به صامتاً ، مندهشاً لهذه النهاية غير المتوقعة ، ثم انطلقت الى احدى زوايا الساحة ، واخذت اراقب جـــدتي تطلق سراح الاسيرة التي أتت اليّ بصحبتها، واخذتا في الضحك، وكأنها صديقتان حميمتان.

وأمسكتني جدتي من عنقي ، وجرتني حتى المطبخ ، واستوضحت :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

ـ الم ترمكِ بجزرة ؟

ـ آه .. لقد فعـلت ذلك من اجلي ، أليس كذلك ؟ سأذكر لك ذلك ، أيهـــا العصفور الصغير ، سأرميك تحت الموقد مع الفئران حتى تستعيد بعض الشعور ! .. لو علم جدك بذلك ، حتى سلخ لك جلدك عن قفاك ! هيا إمضِ إلى الطابق العلوي وذاكر في كتبك ..

ولم تكلمني بقية ذلك اليوم مطلقاً ، بيد أنها قبل أن تجثو للصلاة مساء ذلك اليوم ، جلست بالقرب مني على حـــافة سريري ، وهمست في اذني كلمات لن انساها ابداً :

ـ أصغ، ايها الطير الصغير ، واذكر ابداً ما سأقوله لك : لا تتدخل مطلقاً في امور الكبار ، لأنهم جماعة أشرار ، قد اجتازت العقبات والتجارب .. اما

أنت فما زلت صغيراً ضعيفاً ، وينبغي عليك ان تعيش في سنك ، وتتصرف في امورك حسب ما عليه عليك قلبك النقي حتى يجد الرب إنه حــان أن يلامس قلبك ، ويقودك الى الطريق التي يجب عليك أن تسلكها .. هل فهمت ؟ إن الله يحاكم ويفرض العقاب ، وذلك ليس من شأننا ..

وركنت الى الصمت فترة ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، واردفت :

ـ وأؤكد لك أن الله نفسه يصعب عليه ، في بعض الاحيان ، تميز البريء من المذنب .

فسألتها مندهشاً :

ـ لماذا ، ألا يعلم الله كل شيء ؟

فأجابت مكتئبة :

ـ لو كان يعلم كل شيء ،فلا بد للناس من ان يمتنعوا عن إتيان إمور عديدة، إنه كائن هناك في السماء ، يراقب اعمالنا نحن الخطاة ، وغالبــاً ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتنهد ويقول : آه يا اولادي ، يا أولادي المساكين الاحبــاء ! كم يتألم قلبي من اجلكم !

وشرعت في البكاء بدورها ، ثم سارت، من غير ان تجفف دموعها ، حيث بدأت بالصلاة ..

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الهها قريباً من قلبي وغالياً أكثر من ذي قبل ، واقرب الى إدراكي وفهمي كذلك ..

* * *

كان جدي يلقنني في الدرس أن الله يعلم كل شيء ، ويرى كل شيء ، ويوجد في كل مكان وأنه على استعداد لتخفيف مشاكل الناس . بيد انه كان يصــــلي باسلوب يختلف كثيراً عن اسلوب جدتي . فكان قبل تلاوة الصلاة في الصباح، يغتسل بعناية فائقة ويرتدي ثيابه . ويسوي شعر رأسه ولحيته ، ثم يصلح وضع

قميصه على المرآة قبل أن يذهب للصلاة ويعقد ربطة عنقه السوداء . كان يقف دائماً في نفس المكان حتى تركت قدماه أثراً في الارض ، ويسمر ذراعيه إلى جانبيه كالجندي ،ويبقى فترة من الوقت سابحاً في بحر من الصمت العميق . ثم يتمتم بتأثر :

ـ باسم الآب والابن والروح القدس !

ومن ثم يلقي برأسه الى الوراء ، ويعقد ما بين حواجبه ، ويبـــدأ بتلاوة صلاته بلهجة رزينة وكانه يعيد أمثولة ينبغي ان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يشدد على الكلمات .

ـ وسيأتي يوم الحساب ، على حين غرة . وعنـــد ذلك تتكشف أعمال البشر ...

ومن ثم يبدأ بضرب صدره بلطف ، ثم يلتمس العفو قائلاً :

ـ امام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطاياي ...

كنت احفظ صلاة الفجر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب ، عـن ظهر قلب ، لذلك كنت أصغي اليه بانتباه فائق آملاً أن يخطىء ولو مرة ، أو ينقص ولو كلمة واحدة . وقد كانت تلك الفرص نادرة جداً ، ولكنها تثير فيّ شعوراً خبيثاً بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، كان يلتفت الينا ويلقي السلام :

ـ سعدتما صباحاً !

فننحني ، ثم نأخذ أماكننا إلى المائدة ...

قلت ذات مرة ، وانا التفت ناحيته :

ـ لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .

فاستوضح مرتاباً :

– حقاً ؟ هل انت واثق من انك لا تكذب ؟

– نعم ! كان ينبغي أن تقول : « واجعل ايماني يكفيني لأستغني به عن كل شيء ... » فاسقطت كلمة يكفيني .

كنت ادفع غالياً ثمن ملاحظاتي هذه . إلا انني كنت أحس بالنصر والغبطة طالما أجد جدي متضايقاً مرتبكاً .

وذات مرة ، قالت جدتي مازحة :

– لا شك ان الاصغاء الى صلاتك امرٌ يبعث السأم بالنسبة الى الله ، يا أبتاه ! فأنت دائماً تردد نفس العبارات .

فيتوعد متشدقاً بكلامه :

– مـ . . ا . ذا ؟ بماذا تخرفين ؟

– اقول انني لم استمع اليك مرة واحدة تخاطب الله بعبارة واحدة نابعة من صميم فؤادك .

فاحمر وجهه ، وأخذ يصطك فوق مقعده ويتراقص ، ثم قفز على قـــدميه والقى صحناً بوجهها ، واخذ يصرخ ويعر كمنشار يقطع الزجاج :

– اخرجي من هنا ، ايتها العجوز الماكرة !

كان جدي ، عندما يكلمني عن قوة الله الجبارة ، يشدد في الدرجة الاولى على قسوة الله وغضبه . كان الله ، بالنسبة اليه حساماً مشهوراً دائماً ، مسلطاً فوق رؤوس الأشرار ...

كنت اشك في احاديث جدي بالنسبة الى قسوة الله ، واعتقدت انه يحدثني بها ليس ليبعث فيَّ مخافة الله ، بل مخافته هو ...

وذات يوم سألته بصراحة :

– اتحدثني بهذه الاشياء لتجعلني اطيعك وحدك ؟

– بالطبع ، ان شيئاً عظيماً سيحدث إن لم تطعني !

ـ لكن جدتي ...

فصرخ بحدة :

ـ لا تأل بالاً لتلك البلهاء . فانها طوال حياتها ، كانت جاهـــلة ، غبية ، مجنونة ، وسأمنعها من ان تحدثك بهذه الأمور. اما الآن ، اجب على هذا السؤال كم طبقة يوجد بين الملائكة ؟

فأجبته ، ثم سألته :

ـ ماذا تعني هذه العبارة : « فردٌ من الطبقة الراقية » ؟

فتنفس الصعداء ، وعض على شفته ، وزفر !

ـ تود أن تعلم كل شيء !

وبعد فترة قصيرة ، شرح لي ذلك ، بلهجة مترددة :

ـ ذلك ليس له صلة بالله ، بل هو من امور البشر ، أفراد من الطبقة الراقية ، انهم كموظفي الحكومة .فالموظف هو احد الذين يعيشون من القوانين ، يضعونها ثم يبتلعونها .

ـ أية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فرد العجوز ، وقد شعت عيناه النديتان باللذة :

ـ القانون ؟ على حد قولهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عرفــاً . فالناس يعيشون في مجتمع واحد ، ويتفقون فيما بينهم على عقــد اجتماعي ينظم امورهم ، ويتخذونه عرفاً أو قانوناً كما يسمونه ..

ـ والموظفون ؟

ـ انهم يشبهون الاولاد الأشرار الذين يخونون القانون ، مع انه اوكلت اليهم مهمة حراسته وتطبيقه .

ـ لماذا ؟

فأجاب ، وهو يهدر :



جوركي مع السيدة كاترين بشكوف وولديها مكسيم
وكاتيوشكا ، سنة ١٩٠٣

ـ ذلك ما لا لم تستطـع إدراكه الآن ؟ انك أصغر من ان تعلم هذه الأمور كلها ..

ثم يرجع إلى متابعة الدرس :

ـ ان الله يراقب أعمال جميع الناس . انهم يريدون شيئاً ، وهو يريد شيئاً آخر . بيد ان إرادة الانسان ضعيفة ، ويكفي ان ينفخ الله عليها حتى يذهب كل شيء مع الرياح فكأنه هباء ً منثورا .

بقيت مدة طويلة احتفظ بتقويم جدي الكنسي ، وقد دونت على حواشيه ملاحظات مختلفة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلا دون بالحبر الأحمر : « تخلصنا من بلاء عظيم بفضلها » ... وانا ادرك حقيقة ذلك « البلاء » ... فقد كان جدي يتعامل بالربا سراً لكي يساعد ولديه اللذين اخذت اعمالها تتدهور يوماً بعد يوم ، وكان يتلقى لقاء ذلك بعض الاشياء الغالية الثمن رهناً وضمانة ... فوشى به احدهم لدى الشرطة التي داهمت الدار ذات مساء ، واخذت بتفتيشها .. وكانت الضجة كبيرة ، بيد أن كل شيء انتهى على صورة حسنة ، وقبع جدي يصلي حتى بزوغ الفجر . وقبل تناول طعام الافطار في الصباح ، دون هذه الكلمات في هذا التقويم .

* * *

كنت قبل العشاء ، اطالع معه ، فصولاً من المزامير ، أو مقاطع من كتاب الصلوات ، أو من مجلد ضخم من تأليف يفريم سيرين . فاذا ما انتهينا من تناول طعام العشاء ، يعود الى صلاته ثانية ، فتنبعث في سكون الليل تراتيله المتواترة النغم زمناً طويلا :

ـ الله وحده وهب ، وهو وحده أخذ ... يا أيها الاله الممجد الحي ابداً ... لا تتركنا ندخل في التجربة .. نجنا من الأشرار ..

وغالباً ، كانت جدتي ، تقاطعه قائلة :

– آه ! كم انا مرهقة ! يظهر انني سآوي الى الفراش من غير ان أتلو صلاتي هذه الليلة .

كنت اذهب بصحبة جدي الى الكنيسة بصورة دائمة ، نهار السبت لصلاة المغرب ، ونهار الأحد لخدمة قداس الصباح .. فأستطيع حتى في الكنيسة من تمييز الناس الى قسمين مختلفين في صلاتها ، فالكاهن والشماس يصليان لإله جدي أما بقية المرتلون فيرفعون اصواتهم في المديح لإله جدتي .

كان التفكير في الله ، في تلك الايام ، يشكل غذاء نفسي الاساسي ، فهو الجمال الوحيد الذي وجدته في هذه الحياة ، بينما الانطباعات الاخرى توخزني بما فيها من وحشية ورذيلة . فالله ، واقصد إله جدتي ، ابهى وأحسن من أي شيء آخر يحيط بي في هذه الحياة .

ومن المدهش حقاً ، وهذا ما لم استطع إدراكه ، ان يعمى جدي عن هذا الإله الطيب القلب ...

كنت قد منعت من النزول الى الشارع لكثرة مـا كان يستهويني ، وكنت ميالاً إلى القتال ، والعصيان ، فكنت فيه محوراً للخصومات ، لذلك لم تكن لي صداقات بل ان الجميع كانوا يناصبونني العداء . وعندمـــا ادركوا ان اسم كاشرين يغيظني ، كانوا يتلذذون بإغاظتي فينادونني به عندما يلمحونني مـــن قريب او بعيد :

– هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك العجوز المقتر ، انه قادم الينا !

– ارموه ارضا !

وتنشب معركة حامية في تلك اللحظة ...

كنت قوي البنية بالنسبة الى عمري ، ومقاتلاً شجاعا .. حتى ان أخصامي كانوا يعترفون بذلك ، فلا يداهموني إلا مجتمعين ، لذلك كانوا يتغلبون عـــلي دائماً ، وأتلقى من ضرباتهم الشيء الكثير ، واعود إلى المنزل والدم ينزف مـــن

انفي ، وقد جرحت شفتيّ ، ومرقت ثيابي .

وتتلقاني جدتي في المنزل ، مضطربة ، ينبع منها الحنان :

– ماذا ؟ أتشاجرت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ سأكيل لك ضرباً لن تنساه ابداً .

ثم تغسل لي وجهي ، واضعة بعض القطع النحاسية من العملة على جروحي، أو تستعمل بعض الأعشاب ، أوالأملاح الخاصة ، وتبقى تدمدم طوال الوقت :

– ما الذي يدفعك الى مشاجرة الاولاد ؟ انك طفل هادىء في البيت ، وما ان يستقبلك الشارع حتى تنقلب عفريتاً . ألا تخجل ؟ سأعلم جدك بذلك فيمنعك من الخروج إلى الشارع مطلقاً .

وكان جدي يلمح آثار الجروح والمشاجرة فلا يثور ، بل يقول بكل بساطة :

– هل ارتديت أوسمتك ثانية ؟ يا للمقاتل الشجاع ! ولكن ، إياك ان تتيح لي مشاهدتك في الشارع مرة ثانية ، هل تسمع ؟

لم يكن عندي رغبة في الانطلاق إلى الشارع عندما يهيمن عليه الهدوء والسكون ، بيد انه ما ان تصلني اصوات الأطفال وصياحهم حتى أنسى تهديد جدي ووعيده ، وانطلق من المنزل بأي وسيلة كانت .

لم أكن أهتم بآثار الجروح مطلقاً ، بيد انني كنت اشمئز من الألعاب الوحشية المسيطرة على الاطفال ، وحشية كانت تبعث فيّ الثورة والنقمة وتشدني الى ما يشبه الجنون . كانت تثور نقمتي عندما اشاهدهم يدفعون الكلاب والديوك إلى المشاجرة ، أو يعذبون الهررة ، أو يطاردون المتسولين في الطرقات ،وخاصة ذلك التقي المسكين ايجوشا ، الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان رجلاً فارغ القامة ، نحيل العود ، غائر الوجه وقد تدلت لحيته

وتمركزت في أسفله . محدودب الظهر ، وقد ركزت عيناه في الطريق بعنـــاد كبير . وكان يرتدي دائماً . سترة من جلد الماعز قد تدلت بشكل يثير الضحك كنت أتأمـل عينيه الحزينتين ، فأتصور ان مشاكل عديـــدة تشغل باله ولا يجوز بالتالي ازعاجه وعرقلة المهمات الملقات على عاتقه .

كان الاولاد يعدون وراءه يرشقون ظهره المحـدودب بالحجارة . بينما يبقى هو مدة طويلة من الوقت لا يعيرهم أدنى انتباه ، وكأنه لا يشعر بما يرمونه بـه من ضربات . حتى إذا نفد صبره اخيراً يقف فجاة ، ويلتفت بصعوبـــة ، ثم يتفحص قبعته الشعثاء ، بحركات مضطربة . كان يعـدو خلفهم وهو يعرج ، فيلف معطفه الطويل قدميه ويطرحه أرضاً ، وعندئذ يمطره الاطفال بوابل من الحجارة ..

بيد ان أشد المشاهد في الشارع وخزاً وإيلاماً ، بالنسبة إليّ ، كانت مشاهدة رئيس عمالنا السابق جريجوري ايفانوفيتش الذي كف بصره تمامـــاً ، وأمسى يمضي أيامه متجولاً في طرقات البلدة يستجدي الناس . كان بهي الطلعة ، نحيل العود ، تقوده امرأة صغيرة الجسم ، هرمة ، قد شاب منها الشعر ، تستوقفـــه تحت كل نافذة ، ثم تنادي بصوت رفيع ، وقد وجمت انظارها :

— ساعدوا المتسول الضرير ، حباً بالمسيح !

أما جريجوري فيلوذ بالصمت ، فيما تلتفت نظارتاه السوداوان الى جدران المنازل أو النوافذ بثبات ، وتسرح يده الملوثة ببقايا الصباغ تدغدغ لحيته الكثة . بينما تبقى شفتاه مطبقتين باحكام .

كنت التقيه مراراً ، بيد انني لم اسمع ابداً كلمة واحدة تنبعث من بين تلك الشفتين المطبقتين باحكام دائماً ، فاتألم لذلك الصمت الرهيب الطويـل . وكنت عندما ألمحه لا أذهب اليه ، بل انطلق أعدو حتى ابلغ المنزل وأعلم جدتي :

— جريجوري في طريقه الينا .

فتقول ، وقد انتابها اضطراب حزين :

- آه ، صحيح ، انطلق وناوله هذه !

فارفض بشدة ، وعند ذلك تسير جدتي الى البوابة بنفسها ، وتقف هنـاك تكلمه مدة طويلة . كان يضحك ، وهو يلامس لحيته ، لكن من غـير ان يتفوه بكلمة واحدة. وفي غالب الأحيان كانت جدتي تدعوه الى المطبخ ،فتناوله الطعام وتقدم له الشاي . وذات مرة سالها عني ، فنادتني ، بيـد انني لذت بالهرب وتواريت بين أكوام الخشب . لم اكن أقدر على لقائه ، إذ كنت أحس بالخجل تجاهه . وادرك ان جدتي تحس نفس الشيء كذلك . وقد تكلمنا عنه؛ انا وجدتي ،ذات مرة . بعدان اصطحبته حتى البوابة ورجعت الى الساحة ببطء، حانية الرأس تنهمر الدموع من مقلتيها ... فسرت نحوها واخذت بيدهـا ، فسألتني بهدوء :

- لماذا تهرب منه دائماً ؟ انه يحبك كثيراً ، وهو رجل طيب ..

- لماذا لا يقوته جدي ؟

فانثنت عن المسير ، وشدتني اليها وهمست بلهجة تنبؤية :

- اذكر هذه العبارة: سيعاقبنا الله عقابا صارماً على سلوكنا مع هذا الرجل! عقابا قاسياً جداً !

لم تكن مخطئة فيما تنبأت به ، فلم يمض اكثر من عشرة أعوام على ذلك ، حتى كانت جدتي ترقد في مثواها الأخـير ، وأصبح جدي شقياً معتوهـاً ، يستجدي في شوارع المدينة ، من تحت النوافذ قوتاً يسد به رمقه :

- ايتها العائلة الطيبة ، جودي عليّ ببعض اللحم - قطعة صغيرة فقـط . تفو ! تباً لهم من قوم !

كانت عباراته القاسية : « تفو ! تباً لهم من قوم ! » الشيء الوحيـد الذي تبقى له من الماضي ...

كان في بيتنا أشياء عديدة تثير الاهتمام ، واشياء اخرى ينفتح لهـا الفؤاد . بيد ان إحساساً من الكآبة كان يطغي عليّ في بعض الاحيان كعبء ثقيل يرهق عاتقي ، فيخيّل اليّ وكانني أغرق في قاع سحيق شديد الظلمة ، وقـد فقدت شعوري ، وفقدت السمع والبصر ، أغرق ، شبه واعٍ ، في الهاوية التي لا تعرف قراراً .

★ ★

٨

وعلى حين غرة ، باع جدي المنزل ، إلى صاحب الخان ، واشترى بيتاً آخر في شارع كاناتنايا . كان الهدوء والسكون يسيطران على هذا الشارع الذي غطي بالعشب ، وينتهي الى حقول فسيحة ، وقد ركنت على جانبيه منازل صغيرة ذات ألوان زاهية .

كان منزلنا الجديد يضفي بهجة وسرورا ، وقد دهنت واجهته بلون احمر داكن . أما ساحته والحديقة فقد ملأت بعدد كبير من الفسحات الهادئة ، وقد ارتحت لها، لأنها قد ازدانت بشجيرات فتية ، كثيفة ، وجميلة قـد تعانقت . وتركن حجرة الغسيل في إحدى زواياها ...

كانت الدار تصخب بأناس كثر لم يقع عليهم بصري من ذي قبل ابـداً ، فالجناح الامامي يسكنه ضابط تتري المولد مع زوجته الصغيرة . وكانت هذه المرأة لا تكف ، منذ بزوغ الفجر حتى المساء ، عن الضحك ، والصياح ،والعزف على قيثارة قد وشحت بالوان عديدة . وتشرع في الغناء ، بصوت حاد ...

وكان يسكن ، في جناح صغير قد اشيد فوق المخزن والاسطبل ، رجلان يمتهنان سوق العربات ، كان أحدهم اشيباً ، ينادونه بالعم بيوتر ، أما الثاني ، وكان ابن اخيه ويدعى ستيوبا ، أطرش أبكم ، هادىء الطبع ، وكان يشاركهما في المسكن رجل تتري شاحب الوجه ، أنيق الملبس ، يدعى فالي.

كان هؤلاء الناس غرباء بالنسبة اليّ، وهذا ما اتاح لي فرصة جديدة لمغامرات عديدة . أما الشخص الذي كان له عندي حظوة ، هو ساكن الحجرة التي تجاور المطبخ ، حجرة واسعة طويلة لها نافذتين تطل إحداهما على الحديقة والثانية على الساحة .

كان ذلك المستأجر منطوياً على نفسه ، هادئاً ، منحني الجسم ، طويل القامة ، تتقدم وجهه نظارتان كبيرتان . وكان كلما دعوناه الى العشاء أو الشاي يجب قائلاً :

– هذا بديع !

ومنذ ذلك الوقت اخذت جدتي تطلق عليه في غيابه «هذا بديع» واحياناً في حضوره فتقول :

– انطلق يا الكسي ، واعلم « هذا بديع » ان يأتي لتناول الشاي!

وكانت تقول ايضاً :

– تناول شيئاً آخر يا « هذا بديع » فانت لم تاكل كفايتك .

كانت حجرته تغص بالكتب الفخمة والصناديق ، وقد توزعت في جميع أرجاء غرفته زجاجات من السوائل ، مختلفة الألوان ، وقطعاً صغيرة من الرصاص والحديد ، ومساطر من النحاس لا حصر لها . كان دائماً يلبس معطفاً بني اللون من الجلد ، وقفازين رماديين ، قد لطخا بالدهان ويمضي النهار بطوله ، منذ الصباح حتى المساء يصهر المعادن ، ويلحم البعض ويصرخ من حين لآخر إذ يحرق أصابعه ، ومن ثم يأخذ في مشاهدة بعض الأشكال الهندسية الكائنة على الحائط، فيمسح نظارته ويأخذ بفحصها عن كثب بحيث تلامس انفه ... وعلى حين غرة كان يقف في وسط الغرفة أو بجانب النافذة ، ويبقى فترة طويلة بهذا الشكل . وقد اغلق عينيه ، وحنى رأسه ، هادئاً ، لا يأتي حركة ...

وذات مرة ، تسلقت السطح وشرعت أراقبه من خلال النافذة المفتوحة ...

كنت قادراً على مشاهدة اللهب الأزرق يتصاعدمن فتيل مصباح الكحول الكائن فوق الطاولة ، وقد انكب الرجل بقامته فوقه . أو الاحظه يدون أشياء عدة في دفتر ممزق،وقد التمعت نظارتاه في ضوء اللهب الأزرق ببرود وكأنها قطعتان من الجليد .

كنت أبقى ساعات عديدة مسمراً إلى السطح مندهشاً لتحمله هذا العناء.. . فأحياناً يقف الى النافذة ، ويداه وراء ظهره ، يتطلع تواً إلى السطح من غير ان يشاهدني ، ثم يقفز فجاة باتجاه طاولته ، وينحني فوقها منقباً بـين الأشياء المتراكمة فوقها .

كان سكان المنزل يكرهون « هذا بديع » ويتكلمون عنه بسخرية زائدة ، فامرأة الضابط اللعوب تـدعوه « صاحب الأنف الطبشوري » . والعم بيوتر يطلق عليه اسم « الكيمائي الساحر ». أما جدي فكان يلقبه : « الصيدلي بائع السحر الأسود » .

سألت جدتي :

— مادا يفعل « هذا بديع » ؟

فاجابت بغلاظة :

— هـذا ليس من شانك . يجب ان تعلم متى ينبغي ان تحتفظ بفمك مقفلاً .

وذات يوم ، استجمعت كل ما أملك من شجاعة وانطلقت الى نافـذته ...

سالته . محاولاً إخفاء انفعالي بصعوبة :

— ماذا تفعل ؟

فوجيء . وهو يشخص إليّ من فوق نظارتيه . وأعطاني يده المحترقة المليئة جروحاً وندوباً . ثم قال :

— تعال . اصعد الى هنا !

والحقيقة انه بسماحه لي الدخول من النافذة بدلاً من الباب قد زاد من قدره

عندي ، واحترامي له . تهاوى على صندوق في إحدى الزوايا ، ودعاني للجلوس قبالته ، واخيراً سألني :

- من أين أتيت ؟

لقد أثار سؤاله دهشتي ، فأنا أجلس بجانبه الى الطاولة في المطبخ اربع مرات كل يوم ، فأجبته :

- إني حفيد كاشرين .

- آه ، أجل !

ثم لاذ بصمت عميق ، وهو يتأمل إحدى أصابعه ...

وجدت انه من الواجب ان اوضح له الأمر ، فقلت :

- بيد انني لست من عائلة كاشرين ، انني من آل بشكوف . الكسي بشكوف .

فردد ، بلهجة شديدة النبرة :

- بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا بديع !

ونهض ، دافعاً بي عنه ، مسرعاً الى الطاولة قائلاً بلهجة آمرة :

- حسناً ! اجلس ، وإياك ان تأتي ضجة .

قبعت هناك فترة طويلة جداً ، اراقبه وقد وضع قطعة من النحاس بين فكي ملزمة صغيرة ، ثم يبدأ ببردها ، وعندما انتهى من ذلك جمع الفتات الذهبي على لوحة ثم صبه في بوتقة كثيفة . ثم أضاف اليها بعضاً من مسحوق أبيض كالملح تناوله من إحدى الزجاجات . وفي النهاية أتى بزجاجة سوداء اللون وسكب منها على المزيج . فاخذت هذه الأشياء تغلي . وتنفث الدخان . وتتصاعد منها رائحة حادة اجبرتني على السعال .

استوضح الساحر مبتهجاً :

- هل هي رائحة رديئة ؟

- أجل

- آه ! هذا بديع يا اخي . هذا بديع جداً !

حاولت أن أجد مبرراً للغبطة . فلم أستطع ...

قلت بحدة :

- ما دامت رائحة رديئة . من المستحيل ان تكون بديعة !

فصرخ . فاركاً عينيه :

- أحقاً ما تقول ؟ حسناً . ليس مـا تقوله يا أخي صحيحاً ! أتحب اللعب بالكعاب .

- أجل !

- أتريد أن أصنع لك كعبا من الرصاص ؟ ولن يستطيع أن يغلبك به أحـــد !

- طبعاً أريد ذلك :

- ناولني كعبك إذن !

وحمل البوتقة في يده . واتجه نحوي . ثم كلمني متطلعاً إليّ بعين واحدة :

- هل تعدني اذا صهرت كعباً لك . ألا تعود الى هنا مرة ثانية ؟

فصدمت لذلك ... وقلت :

- لست بحاجة إلى ذلك كيلا أرجع إلى هنا !

ثم خرجت الى الحديقة كئيباً غاضباً ...

كان جدي منشغلاً في تسوية الارض حول جذوع أشجار التفاح . كان الوقت خريفاً ومنذ وقت بعيد وأوراق الأشجار تتساقط .

اعطاني جدي المقص . وقال :

- خذ . شذب اشجار توت العليق .

فسألته :

ما الذي يفعله « هذا بديع » ؟

فأجاب مغتاظاً :

ـ انه يخلط ، فهو يتلف الحجرة ، ويحرق البلاط ، ويوسخ الجدران ، حتى انه قد أتلف جزءاً كبيراً من الورق الملصق عليها ، سأعلمه بضرورة إخلاء الحجرة نهائياً في أقرب فرصة ...

ـ إنك تفعل حسناً !

فوافقت معه ، وانا أشذب أطراف توت العليق :

بيد انني تسرعت في قولي هذا .

* * *

في الليالي الماطرة ، وعندما يخرج جدي الى بعض اعماله ، كانت جدتي تقيم في المطبخ حفلات رائعة .. فتدعو جميع الجيران ، بما فيهم السائقين والجندي ، وامرأته المرحة ، وبتروفنا السمينة . أما « هذا بديع » فكان دائماً يركن في الزاوية بجانب الموقد ، حيث يقبع جامداً لا يأتي حركة ، بينما يأخذ الأبكم الأصم ستيوبا بلعب الورق مع فالي التتري ، الذي يكيل له بين الحين والآخر على أنفه المفرطح ويصرخ :

ـ انت ، ايها العفريت العجوز !

وكان العم بيوتر يحمل معه دائماً رغيفاً ، وجاط مليء بمربى التوت ، فيأخذ المربى ويصبه بكثرة على الخبز ، ثم يحمل تلك القطعة من الخبز على كفه مقدماً إياها للضيوف ، وهو ينحني انحناءة خفيفة ، قائلاً :

ـ هل تفضلتم وأخذتم شيئاً من هذا ؟

وكانت بتروفنا الجميلة تحضر معها بعضاً من السوائل الكحولية بينما تحضر الجارة الصغيرة اللعوب بعضاً من قطع سكر النبات، والجوز ، وعند ذلك تبدأ وليمة حقيقية باشراف جدتي التي تنضح بالفرح والغبطة .

لقد اقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد مدة قصيرة من محاولة « هذا بديع » رشوتي كي ابتعد عن حجرته . كانت الريح تهب صاخبة ، وأمطار الخريف الحزينة تعارك الارض بشدة ، والاشجار تتراقص ضاربة جدران

المنازل باغصانها ... كان الجو في المطبخ حاراً يبعث الدفء ، وقد تجمع القوم الى بعضهم بعضاً ، وقد علت الغبطة اساريرهم، وتأخذ جدتي في سرد أقاصيصها بشكل يسترعي الانتباه ...

... وما ان تنتهي جدتي من سرد اقاصيصها حتى يقفز «هذا بديع» ويتعالى صراخه ، ويأخذ في الدوران على ارض المطبخ وقد شرّع ذراعيه ، وهو يصرخ :

– هذا بديع ! بديع جداً ... انه صحيح جداً ... وروسي بحت !

وادرك الجميع انه يبكي : فقد انهمرت الدموع من مقلتيه وانسابت فوق وجنتيه ، وكان من المدهش والمؤثر معاً ، مشهد هذا الرجل وهو يعدو في المطبخ بشكل يثير الضحك ... كان العم بيوتر يغرق في الضحك ، بينما لاذ الجميع بالصمت وقد اعترتهم الدهشة .

وفجأة ، توقف في وسط المطبخ وشرع يتحدث بنبرة عالية، مشيراً بذراعه الأيمن ، وقد بقي يتكلم بحماسة وقتاً طويلا ، تنم عنه بين الحين والآخر تنهدة عميقة ، ثم يضرب الارض بقدميه . وقد لاحظت انه ردد مرات عدة هذه العبارات !

– كلا ! كلا ! تلك جريمة لا تغتفر أن يعيش الانسان بوحي من ضمير غيره !

وفجأة ، تلاشى صوته ، والقى نظرة عجلى على المحتفين به ، ثم اتجه خارجاً مطأطأ الرأس . فتطلع الجمع بعضهم ببعض بقلق واستياء ، بينما انزوت جدتي بقرب الموقد حيث سمعتها تتنهد بحسرة ..

قالت بتروفنا ، وقد علتها الدهشة ممسكة بيدها شفتها الحمراء :

– كأنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتر :

– كلا ! انها طريقته بكل بساطة !

ثم اردف العم بيوتر بهدوء :

– ان المثقفين والنبلاء ، هكذا دائماً غريبو الأطوار !

وأضاف فالي :

– كل هذه التفاهات،مردها الحياة الانعزالية ، وحياة العزوبة .

فقهقه الجميع ...

لم يعد الجو في المطبخ يحتمل . وقد طمس الحزن قلبي . فقد ادهشني « هذا بديع ».واشفقت عليه وتألمت له وحتى الآن.لم تزل عيناه الدامعتان ، محفوظتين في ذاكرتي .

امضى الليل خارج الدار ، ثم عاد بعد ظهر اليوم التالي . كان يبدو تعباً . مشغول البال ، مكسور الخاطر ..

قال لجدتي بلهجة صبيانية بحتة :

– لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، هل انت غاضبة ؟

– ولمَ الغضب ؟

– لأنني ورطت نفسي فيما لا يعنيني ، وتفوهت بعدة حماقات .

– انك لم تنل من شعور احد .

ادركت ان جدتي ترهبه ، فهي لا تتطلع اليه ، ولا تكلمه كعادتهـــا في السابق .

ودنى منها ، وقال بصراحة :

– تعلمين انني أقطن بمفردي ، وليس لي من أنيس في العالم ... وعندما يبقى الانسان وحيداً هكذا . لائذاً بالصمت . فلا بد ان تأتيه فرصة ينفس بها عما تراكم في أعماق نفسه . فينفجر. انه في مثل تلك الحالة ، يكلم الجلمود . والاشجار ...

وسألته جدتي وهي تذهب بعيداً :

– لماذا لا تتزوج ؟

فصاح مشيراً بيده !

– آه !

ثم مضى مكتئب الوجه ...

رافقته جدتي بنظراتها وهو يتوارى ، ثم التفتت إليّ قائلة
ــ لا تتبعه البتة . فالله أعلم ما يمكن ان يؤتيه هذا المرء .
بيد ان شيئاً خفياً كان يشدني اليه باستمرار ...
لقد لاحظت التغير الذي علا وجهه وهو يقول : إنني أفطن بمفردي، فكان بعبارته تلك شيء ادركته جيــداً ولامس مني شغاف القلب ، فذهبت لرؤيته .
تأملت في نافذة حجرته فقد كانت خالية منه ، وقد غصت باشياء غريبة عديمة الفائدة . قد تركت بشكل عديم الترتيب . كصاحبها تماماً . فمضيت الى الحديقة حيث رأيته جالساً على خشبة ترك الحريق فيها أثراً . واضعاً رأسه بين يديه محدودب الظهر . يرتكز مرفقاه على ركبتيه ... بيد ان هذه الجلسة لم تكن تبعث الراحة فيه . مما جعلني أشعر بمزيد من الحزن والكآبة . شدني نحو ذلك الرجل بقوة اكبر ...
بقي مدة طويلة يتطلع إليّ بعينين غائرتين . لكن من غير ان يراني فيما يبدو ثم سأل فجأة في شبه ملل :
ــ هل أتيت في طلبي ؟
ــ لا !
ــ ماذا تريد اذن ؟
ــ لا شيء على وجه التحديد !
ثم نزع نظارتيه ومسحها بمنديله الملوث ببقع حمراء وسوداء . ثم قال :
ــ اقترب واجلس هنا .
وعندما جلست بقربه . ضمني اليه قائلا :
ــ إجلس هنا ! سنجلس من غير ان نتكلم ، ما رأيك ؟ هكذا . . انك فعلا لفتى عنيد !
ــ أجل !
ــ هذا بديع !
ثم مضى مكتئب الوجه ...
رافقته جدتي بنظراتها وهو يتوارى ، ثم التفتت اليّ قائلة :
- لا تتبعه البتة ، فالله عالم ما يمكن أن يؤتيه هذا المرء .

وبقينا هناك ، فترة طويلة ، دون أن ننبس بكلمة واحـدة ... كان المساء لطيفاً هادئاً ، من تلك الامسيات الصيفية المملة الكئيبة ، عندما تذوي الزهور والارض ترشح برائحة الخريف الرطبة ، والهواء يمضي مــذعوراً ، وتتواثب الطيور في الأجواء تاركة افكاراً حائرة . كان كل ما يحيط بنا هادئاً ، حتى ان حفيف اوراق الاشجار ، تهمس بصوت يبعث على الالتفات والتطلع مستفهماً ، ثم يعود كل شيء فيغرق مرة أخرى في سكون عميق ...

كانت تلك الجلسة الحالمة تستدعي الافكار النقية ، بيد انها شفافة كنسيج العنكبوت ، يصعب على الانسان تركيزها في فكرة مــا ... في تلك الجلسة تتكون الشخصية وتتقولب في نموذج أبدي ...

كان جليسي ، بين الحين والآخر ، يتنفس الصعداء ، ويقول :

– هذا بديـع ، اليس كذلك؟بديـع ، بيد ان الطقس رطب، اليس صحيحاً؟ ألا تشعر بالبرد ؟

وعندما القى الظلام وشاحه ، وتوارى كل شيء في الظلمة ، قال :

– حسناً ، اظن ان ذلك يكفي ، لنعد . هيا بنا ...

وفجأة ، عند بلوغنا البوابة ، توقف قليلا :

– ان جدتك امرأة بديعة ... يا لها من حياة !

ثم اغمض عينيه ، وتابع بهدوء وقد علت ابتسامة محياه :

– ذلك كان جزاءه ، لأنــه بلغ الدرك من الشر ، وسخر نفسه لضمير سواه !

ثم تقدمني نحو البوابة ، موجهاً كلامه لي :

– تذكر ذلك ، يا فتى ، اتجيد القراءة والكتابة ؟

– كلا !

– تعلم ذلك ، وعندما تتقن الكتابة دون قصص جدتك ، انها بديعة .

لقد أمسينا صديقين حميمين ... فأخذت في زيارة « هذا بديع » منذ ذلك اليوم ، كلما أجد رغبة لذلك ، فأقبع على صندوق مليء بالأقمشة ، أرنو اليه مغتبطاً ، وهو يصهر المعادن ، فاذا ما بلغ درجة من الاحمرار أخذ في تقويمه في صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، مستعملاً مطرقة صغيرة ذات مقبض بديع. وكان يستعمل أيضاً مبرداً ومناشير ، ويمزج بعض السوائل في وعاء صيني ، فيعبق جو الغرفة برائحة حادة ، ثم يشرع في تصفح كتاب ضخم ويدمدم ماصاً شفتيه ثم تند عنه تنهدة :

ـ آه يا زهرة شارون ...

ـ ماذا تفعل ؟

ـ عملا هاماً . يا اخي .

ـ وما هو ؟

ـ ستشاهده ، لأنني لا استطيع شرحه لك الآن حتى تدركه ...

ـ سمعت جدي يقول بأنك تزور العملة .

ـ جدك ؟ تلك سفسطة ! فالمال ، يا اخي ، لا يستأهل كل ذلك التعب .

ـ اذن ، فمن اين تدفع ثمن الخبز ؟

ـ هذا صحيح . إذ لا نستطيع ان نشتري خبزاً من غير مال .

ـ ارأيت ؟ واللحم ايضاً ...

ـ آه ! واللحم كذلك !

وندت عنه ضحكة بسيطة ، اثارت الغبطة في نفسي ، ثم دعك اذني مازحاً ، وأردف :

ـ انني غير قادر على مناقشتك ، فأنت تورطني دائماً في حديث لا أستطيع إفهامك إياه . والأجدر ان نتوقف عن الكلام .

كان يتوقف ، هو بين الفينة والفينة ، عن العمل ، ويأتي النافذة يتطلع من

خلالها الى اشجار التفاح العارية ، والمطر ينزل مداراً مغطياً الاعشاب . و« هـــذا بديع » مقتراً في حديثه ، فهو لا يقول إلا العبارات الضرورية ، تظهر لي ابداً ، وكأنها عين الحقيقة . واذا أحب ان يلفت نظري إلى شيء ما لكزني بمرفقه ، مشيراً الى ذلك الشيء بغمزة من عينه ...

لم اكن اشاهد شيئاً يسترعي الانتباه في ساحتنا . بيد ان تلك اللكزات وما يصحبها من كلمات متناغمة ، كانت تضفي على كل شيء ممـــا أشاهده معنى خاصاً يرسخ في أعماق مخيلتي . فهذا فالي الأعرج يشق طريقه وسط الساحة كجواد عجوز ، وقد ارتفع رأسه شزراً يتطلع الى السماء ، فتنعكس عليه أشعة الشمس الخريفية ، وتضيء ازرار معطفه النحاسية ، فيتوقف التتري عن السير ويدس تلك الازرار بأصابعه المرتجفة ، فيقول صاحبي :

ـ انه يتأمل ازراره وكأنها أوسمة علقت على صدره !

وسرعان ما ادركت ان تعلقي بـ « هذا بـــديع » يرسخ في نفسي ويزداد قوة . وأمسيت غير قادر على فراقه ، فقد كان يقاسمني أفراحي وأتراحي وعلى الرغم من طبيعته الهادئة وحبه السكون ، فقد كان لا يمنعني من التحدث في اية لحظة ، عما يجيش في نفسي من أفكار . على عكس جدي الذي ينهرني كلما انفرجت شفتاي بقوله .

ـ كفى ثرثرة ، أيها الطاحونة !

اما جدتي فلها افكارها وأحاسيسها الخاصة ، فهي لا تعـــير أدنى انتباه لأفكار الآخرين .

بيد ان « هذا بديع » كان يصغي إليّ بانتباه زائد . وفي أغلب الأحيان كان يقول مبتسماً :

ـ لكن هذا غير صحيح ، يا اخي ! انك تروي ذلك من مخيلتك ...

كانت ملاحظاته المقتضبة بعناية ، تقع في محلها ..فأتصور انـــه يغوص إلى

أعماق نفسي ويرى ما في قـــلبي وعقلي ، ويدرك الاشياء الكاذبة التي تختمر في رأسي قبل أن تنطقها شفتي ويقطع نقاشاً لا جدوى منه قبل أن يتأصل بكلمات لطيفـــة :

ـ أنت تكذب ، يا أخي !

وفي بعض الاحيان كنت أمتحن حدسه عن سابق تعمد ، فاختلق الروايات والاساطير وأقولها على أنها حقيقة واقعية . بيد انه يرهف السمع إليّ فترة ، ثم يهز رأسه قائلاً :

ـ أنت تكذب ، يا أخي !

ـ وكيف ادركت ذلك ؟

ـ آه اني أعلم ذلك جيداً !

غالباً ما كانت جدتي تصحبني معها، لنحضر الماء من مضخة ساحة سينايا . وذات يوم شاهدنا خمسة من أهل المدينة قد إنهـالوا ضرباً بفلاح مسكين ، وقد القوا به أرضاً ، ثم إندفعوا نحوه كعصبة من الكلاب الشرسة . فأخذت جدتي الدلو وامسكته من خشبته كالعصاة . واندفعت نحو البورجوازيـــين وهي تصرخ بي :

ـ إمضِ من هنا !

كنت وجلاً ، فأسرعت وأنا أعدو خلفها .. رامياً الاعداء بالحجـــارة ، بينما انهالت جدتي عليهم بالهراوة بشجاعة فائقة ، وشاركها المعركة بعض الناس ، فولى البورجوازيون الادبار ، وعند ذلك استدارت جدتي نحو الفلاح وشرعت في غسل وجهه المثخن بالجراح . وما زالت فرائصي ترتعـد خوفاً ، حتى اليوم ، كلما تذكرت مشهد الفلاح وهو يضغط على أنفه الممزق ، والدماء تنهمر بغزارة من أصابعه على وجهه وصدره .

وعدوت إلى حجرة المستأجر ، عندما بلغنا الدار ، أروي له ما وقع لنـــا

اليوم،فتوقف عن العمل قبالتي،وقد حمل مبرداً طويلاً يرهف السمع إلى حديثي. ثم تأملني بقسوة من تحت نظارتيه ، وقاطعني على حين غرة قائلا . مشدداً على كلماته بصورة غير معتادة !

– بديع ، هذا ما وقع تماماً ! حسناً !

كنت ما أزال مضطرباً ، متأثراً بما شاهدت ،فاردفت في كلامي من غير ان اعيره أدنى أنتباه. بيد انه طوقني بذراعه ،وشرع يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً، وهو يقاطعني ثانية ، ويقول معاتباً وموبخاً :

– كفى ! كفى ! لقد قلت ما يجب أن يقال ! هل سمعت ؟ هذا كفاية !

فتوقفت عن متابعة حديثي .. وقد تألمت لأول وهلة ، ولكنني ، عندما تأملت جيداً ، ادركت في دهشة فائقة أنه قد اوقفني حيث يجب أن اقف .. كنت في الحقيقة قد رويت كل شيء ..

قال :

– حاول أن لا تتذكر ذلك . وينبغي أن لا تهتم لهذه الاشياء ، فهذا أفضل لك .

كان أهل دارنا يكنون لـ « هذا بديع » كراهية تزداد يوماً بعد يوم ، حتى أن هرة الشابة التي تجلس في حجر الجميع من غير تفريق ، أخذت تستثنيه ، غير ملبية نداءه اللطيف، وقد إغتظت لذلك ، فعاقبتها بشد أذنيها ، وشرعت محاولاً إقناعها بألا تخاف من صاحبي . بيد أنه كان يجد لها الاعذار ، فيقول لي :

– لا عليك ! إن رائحة ثيابي العابقة بالحوامض ، تثنيها عن ذلك .

بيد أنني كنت على يقين من أن لكل فرد من سكان الدار ، بما فيهم جدتي، له الاسباب الخاصة التي تدفعه لمناصبة « هذا بديع » العداء الشديد ، وكنت أجد في ذلك خطأ فادحاً يبعث فيّ احزاناً لا تحتمل .

سألتني جدتي محتدة :

ـ لماذا تلف حوله دائماً ؟ إحذر منه ! فالله وحده عالم بما سيلقنك إياه .

اما جدي ، قمة الشر ، فكان يجلدني بوحشية عندما يعلم أنني ذهبت إلى ذلك المستأجر ، ومن الطبيعي أنني لم أكن اطلع « هذا بديع » على ما اصابني من جزاء كلما عصيت امر الامتناع عن زيارته، بيد أنني قلت له بصراحة رأي القوم فيه :

ـ ان جدتي ترهبك . وهي تدعي أنك تعمل بالسحر الاسود ، وهذا رأي جدي كذلك ، فهو يدعي انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس ان يتعاطوا معك .

فيهز رأسه . وتقفز ابتسامة شاحبة على محياه . ينفطر لها قلبي فيرد بهدوء .

ـ إنني أرى ذلك ، يا اخي ، هذا شيء مؤسف ! اليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ مؤسف جداً ، يا أخي .

وفي النهاية ، اخلوا البيت منه .

وذات صباح ، وبعد تناول طعام الافطار ، شاهدته متربعـاً على الارض يشد امتعته وكتبه وحقائبه في صناديقه ، وهو يدمدم بلحن زهرة شارون . .

وما ان أبصرني حتى قال :

ـ حسناً ! الوداع يا صاحبي ، فانا راحل .

ـ ولماذا ؟

فتأملني فترة بدقة ، ثم اجاب :

ـ الا تدري السبب ؟ إنهم بحاجة إلى هذه الحجرة من اجل والدتك .

ـ ومن قال هذا ؟

ـ جدك .

ـ لقد كذب !

فشدني « هذا رائع » اليه بحنان ثم همس بصوت هادىء . بينما كنت أقتعد الارض بالقرب منه :

ـ لا تحزن ! اعتقدت انك على علم بتلك المكائد، وانك تخفيها عني ، لذلك كلمتك عنها ، يا اخي ، ولست اود ذلك على أي حال .

كنت اشعر بضيق يخنقني ، واحس بالنقمة ، من غير ان ادري السبب ..

ابتسم وهو يقول بصوت هامس :

ـ صه ، اسمع .. هل تذكر منعي إياك من زيارتي ؟

ـ أجل

ـ لقد جرحت شعورك حينذاك ، اليس كذلك ؟

ـ أجل !

ـ انني لم اقصد ذلك ، بيد انني علمت انهم سيراقبونك إذا ما غدونا صديقين ، فأحببت أن أجنبك عناء ذلك ..

وشرع يحدثني كأننا أصدقاء سن واحدة . كانت عباراته تغمرني بالغبطة والسعادة . فيخيل اليّ أنني أعرفه ، منذ زمن طويل ، كل ما يريد أن يطلعني عليه . فقلت :

ـ لقد ادركت ذلك من زمن طويل .

ـ حسناً ! اعتقد ان ذلك افضل ، يا أخي !

وشعرت بالالم يعتصر قلبي . فسألته :

ـ لماذا لا يحبك أحد ؟

فغمرني بلطف ، وهو ينظر بعيداً :

ـ لأنني غريب ، هل تدرك هذا ؟ هذا كل شيء ! إنني غريب !

فتشبثت بكتفه من غير أن ادري ما اقول أو افعل .

فأردف :

ـ لا تحزن :
ثم قال هامساً :
ـ وكذلك لا تبك .

بيد أن الدموع إنسابت على خديه من تحت نظارتيه .. وقبعنا هكذا مدة طويلة من غير ان نتكلم ، ندمدم بين الحين والآخر بكلمات مقتضبة .

وفي المساء ، وبعد ان ودع الجميع ، وتعانقنا بحرارة ، ذهب في طريقه ..

عدوت خارج البوابة، وأنا أراقب العربة التي استقلها وهو يبتعد ، واخذت أصوات العجـلات تتلاشى .. وما ان برحنـــا حتى أخذت جدتي في تنظيف حجرته ، فقصدتهـا ، وشرعت أعدو امامها من زاوية إلى زاوية قاصـــداً مضايقتها ...

صرخت وقد اصطدمت بي :
ـ امضِ من هنا !
ـ لماذا طردتموه ؟
ـ هذا شيء لا يعنيك .

ـ إنكم بلهاء ، كل هذه العشيرة .
فاسرعت تكيل لي بالمسحة المبتلة ، صارخة ؟
ـ هل جننت ، أم ماذا ؟
فأجبتها مصححاً :
ـ لقد جن الجميع . ما عداك ...
بيد أن ذلك لم يرضها .
وفي المساء ، وعلى طاولة العشاء تنهد جدي :

ـ حسناً ! الشكر لله على خروجه . لقد كان يحز في قلبي كالسكين إذا ما ما رأيته، لذلك تخلصت منه .

فهشمت معلقة لشدة غضبي . كان جزائي عليها عذاباً اليماً . . .

وبهذا تكون قد انتهت صداقتي لأول إنسان من تلك الجماعة الكبيرة ، غرباء في وطنهم الأم ، رغم كونهم خيرة أبنائه .

٩

في مستطاعي ان اتمثل بخلية نحل يحمل اليها أناس مختلفون عسل آرائهم ومعرفتهم في الحياة ، وكل منهم يساهم في هذا العمل، حسب امكانياته الشخصية في نمو شخصيتي وتطورها . وفي معظم الأحيان كان العسل مراً ، بيد انه ، على أي حال ، عسلا .

توطدت اواصر الصداقة ، بعد ذهاب « هذا بديع » بيني وبين العم بيوتر وهو الى حد ما يشبه جدي في نعومته ، واناقته ، وان كان أصغر حجماً وانحل جسماً ، يبعث في مخيلة من شاهده صورة فتى يلبس ، لمجرد التسلية ، ثياب شيخ هرم . وقد غزت الأخاديد وجهه فحفرته... وكان شعره المتجعد أشيب اللون ، وقد تدلت لحيته بشكل دوائر ، يندس بين شفتيه غليون ينفث منه الدخان . كنت أتصوره هازئاً بالناس ابداً ، وهو يحكي قصة حياته :

ـ كانت تقول لي الكونتيسة التي تملكني في البدء ، وتسمى تاتيان ، بأنني سأصبح حداداً ، فما ان شرعت في ذلك العمل حتى قالت : ينبغي ان تعمل مساعداً للبستاني . فلم امانع ، وامسيت بستانياً . ولكن ، كما يقول المثل : « اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه » . لم انجح في عملي الجديد ، نصحتني : جرب عدة الصيد . وما ان بادرت في عملي الجديد ، وابتعت عدة الصيد ، حتى قلت للأسماك وداعاً ... وقبل ان تسنح لها الفرصة بأن تجعل مني شيئا ، جاءت الحرية وتحرر الناس ، واصبحت حراً لا املك سوى الحصان . ومنذ

ذلك اليوم غدوت اتبع الحصان بدل الكونتيسة .

كان حصانه هرماً ، سقيماً ، وقد اعوجت ارجله ، وتدلى رأسه المظمي في حزن شديد من عنق يكاد ان لا يصله بالجسد غير بعض الاوردة الضخمة ،وبشيء من الجلد القاسي المتجمد .

بيد ان بيوتر كان يعامله معاملة حسنة ، فيطلق عليه لقب تانيا ولا يحاول ضربه أبداً .

وذات مرة سأله جدي :

ــ لماذا تطلق على حصانك اسماً مسيحياً ؟

فأجابه

ــ لا، يا فاسيلي فاسيليفيتش، أبداً ! ليس تانيا اسماً مسيحياً الاسم المسيحي هو تاتانيا .

كان العم بيوتر ذو ثقافة واسعة . يلم بالكتاب المقدس . فيغوص مع جدي ابداً نقاشاً لا ينتهي ، موضوعه من هو أقدس القديسين ؟ وكان نقـــاشهما يبلغ بعض الأحيان الوطيس ، فيصرخ جدي . وقد التمعت عيناه شرراً :

ــ امض من هنا . يا الكسي !

كان العم بيوتر نظيفا الى حد كبير . وحيث مضى في الساحة كان يلتقط . من الساحة ، اشياء كثيرة من عظام . وقضبان . ويدمدم مشمئزاً :

ــ لا جدوى منها غير اعتراض الطريق !

كان كثير الثرثرة . تنضح بشائره باللطف . وان كانت سحابة آنية تغشى عينيه احياناً . فاذا هما شبيهان بعيني جثة هامدة. وكثيراً ما كنت أشاهده قد انزوى في زاوية مظلمة ، هادئاً ، كئيباً ، كإبن اخيه . فأمضي اليه واسأله :

ــ ما بالك ، ايها العم بيوتر ؟

فيجيب بأسى شديد وصوت متهدج :

- إمضِ عني !

كان يسكن احد منازل حيّنا سيد قد احدودبت جبهته . وقــد اعتراه جنون لا يفارقه : فهو كل يوم يقبع إلى النافذة ، ويأخذ في اطــلاق النار على الكلاب ، والهرر ، والدجاج ، والطيور ، وحتى على المارة الذين لا يعجبــه منظرهم . وقد فعل ذلك مرة مع « هذا بديع » . بيد ان الرصاص لم يخترق غير معطفه لحسن حظه . وما زلت اتذكر كيف توقف صاحبي متفحصاً باهتمـام بالغ جسده براحة يده . وعندما حثه جدي على تقديم شكوى ضد المعتدي ، فقال :

- انها لا تستأهل كل ذلك .

كان العم بيوتر ، عندما يرتفع صدى طلقات المجنون في الشارع يهرول إلى قبعته المهترئة ، فيلقيها على رأسه ثم يمضي خارج البوابة ، ثم يتخطر بكبرياء وهدوء امام نافذة ذلك المجنون ، ولا يتوقف عن ذلك ابداً . ويتجمهر جميع السكان امام البوابة يراقبون ما يحدث في الشارع ، بينما يطــل الضابط وامرأته الشقراء من النافذة ولا يبقى غير منزل آل اوفزيانيكوف عديم الحركة والضوضاء كأنه قبر لا يحوي غير الاموات ...

كان العم بيوتر يعود فاشلاً في معظم الأحيان ، فالمجنون لا يحسبه صيــداً يستأهل الصيد أبداً ... وفي أحيان اخرى ، كانت طلقتا البندقية تتواليان :

- بُوْم ! بوم ! ...

فيدنو العم بيوتر منا ، من غير ان يسرع الخطى ، ويقول متفاخراً :

- لقد اصابني في مؤخرة معطفي

وذات مرة ، أصابته طلقة في عنقه وكتفه ...

فسألته جدتي ، وهي تنزع من رقبته الخردق ، بإبرة الخياطة :

- لماذا تثير ذلك المخلوق المعتوه هكذا ، قد يقضي عليك مرة ..

فيجيب العم بيوتر باحتقار :

ـ آه ! لا اكولينا ايفا نوفا ! لا يستطيع ان يفعل ذلك مطلقاً ، فهو لا يجيد الرماية أبداً !

ـ ولماذا تتيح له الفرصة لارضاء غروره ؟

ـ لارضاء غروره ؟ إنني أفعل ذلك لإغاظته .

وأردف وهو يتفحص جروحه :

ـ كلا ، إنه ليس برام مطلقاً ! لقد ارتبطت الكونتيسة تاتيان مرة بعلاقات زواج انية ، مع ضابط يدعى مامونت إيليتش . وكان ذلك رامياً ماهراً .. قادراً على فعل كل شيء ببندقيته ..وكان هناك أبله يدعى إجنا شكا،كان يوقفه على بعد اربعين خطوة أو اكثر ، ويربط إلى حزامه الجلدي زجاجة،بحيث تتدلى بين ساقيه المتباعدين ، عندما يطلق مامونت النار كانت الزجاجة تتطاير قطعاً صغيرة .. وذات مرة حرك إجناشكا ساقه ، قد تكون عقصته حشرة ، فاذا بالرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطمها ، وعندما استدعي الطبيب أمر بقطع الساق .. وقد دفنوها ..

ـ واجنا شكا ؟

ـ آه ، لقد بقي حياً وعاش في احسن حال. فالاغنياء ليسوا بحاجة للارجل أو للأيدى لكي يعيشوا في عالمهم الجنوني .. وهم جماعة غير مؤذية كما يقول المثل « لا ضرر ، من لا عقل له » .

لكن هذه الحادثة لم تؤثر في جدتي فهي تعلم الكثير أمثالها ، بيد أنها جعلتني أرتجف فرحاً ، ثم سألت صاحبي :

ـ هل يستطيع الواحد من النبلاء أن يقتل أي إنسان ؟

ـ لماذا لا ؟ ان باستطاعته أن يقتل حتى نبيلاً في بعض الاحيان ..

كان يعاملني بلطف زائد ، فيحدثني كما يحدث الكبار . بيد أنـــه لم يكن

يعجبني في شيء ، وهو انه حين يعزمنا إلى اكل مرباه ، كان يقتطع لي قطعة كبيرة من الخبزاكبر من حصة الباقين ، وإذا نزل المدينة احضر لي معه كعك الزنجبيل . وفي غالب الاحيان كان يسألني باهتمام .

ــ حسناً ، ماذا تريد أن تفعل عندما تكبر ؟ اتريد أن تصبح جنديا ، أم موظفاً ؟ .

ــ اريد أن اصبح جنديا !

ــ ذلك يليق بك ، إذ لم تعد مهنة الجندية شاقة في هذه الايام. وكذلك بالنسبة إلى الكهنة، فما عليك إلا السير في الشارع، وتقول : « يا رب إرحم » ، وهذا كل شيء .. فحياة الكاهن أسهل من حياة الجندي . بيد انه من المستحسن ان تمتهن صيد الاسماك..

واخذ يقلد ، مغتبطاً ، كيف تلف السمكة حول الطعم ، ثم كيف تحاول جاهدة التخلص من الصنارة.. وفي بعض الاحيان ، كان يخاطبني قائلاباسى :

ــ أنت تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ، وهذا خطأ لأنه ليس من داع الى الغضب في مثل هذه الحالة . إذ أن جدك يجلدك لمصلحتك .

وأخذ يروي لي باطناب بعض القصص . وموضوعها الآلام البشرية. والذل، والهوان . في كل قصة يتعذب إنسانما ، أو فلاح يسخر منه . حتى مللت تلك الاقاصيص ، وعزفت عن سماعها فقلت له :

ــ حدثني عن شيء آخر .

فامسك بشعر لحيته الجعد ، واخذ في رفعها حتى عينيه . ثم قال .

ــ حسناً ، أيها النهم سأروي لك شيئاً آخر .. لقد كنا نملك ، ذات مرة طباخاً ..

ــ من الذي كان يملك ؟

ــ الكونتيسة تاتيان ألكسييفنا .

– لماذا تطلق عليها اسم تاتيان ، كأنها رجل ، بدلاً من تاتيانا ؟ إنها إمرأة اليس كذلك ؟

– اجل إنها سيدة ! ومع ذلك عندها شارب اسود اللون ، لأنها جرمانية الاصل ، قبيلتها شبيهة بالقبائل السود ، حسناً ، لقد كنا نملك طباخاً ، آه ، إنها قصة مضحكة ، يا عزيزي ...

تتلخص تلك القصة بان طباخاً قد افسد ذات مرة طبخ طير ، فكان عقابه بتناول ذلك الطير دفعة واحدة ، وفي النتيجة سقط مريضاً ، ولازم فراشه زمناً طويلا .

قلت متأففاً :

– إنها قصة غير مضحكة ابداً .

– إذن ماهو المضحك في رأيك ؟ هيا قله لي ..

– لست ادري .

– إذن عليك بالسكوت .

مرة ثانية ، اخذ يحبك أقاصيصه المملة ..

* * *

غالباً ما كان ابنا خاليّ ، في فترة الآحاد والاعياد ، يأتيان إلى بيتنا بقصد الزيارة ، احدهما ، إبن ميخائيل ، كئيباً خاملا كعادته ، والآخر ، ابن ياكوف ، فطناً ، يدرك كل الامور ، نظيفاً ، كعهدي به . وذات يوم ، بينما كنا ثلاثتنا نطوف السطوح ، رأينا رجلا قد جلس على كومة من الاخشاب في ساحة آل بيتلنغ ، يداعب عدداً من الكلاب الصغيرة .. كان يلبس معطفاً اخضر اللون ، يزدان بفراء اسود ثمين ، وقد بقي رأسه الاصلع عارياً من غير غطاء . فراقت لنا هذه الكلاب ، فاقترح ابن خالي ياكوف ان نسرق أحدها ، وقد لاقى هذا الامر منا تأييداً كبيراً من غير تردد .. فرسمنا بسرعة غريبة ، خطة مفادها أن يذهب

إبنا خالي الى الشارع . وينتظران عند البوابة الضخمة لآل بيتيلينغ ، في الوقت الذي أقوم انا فيه بإخافة الرجل ، حتى إذا لاذا بالهرب ، اغتنا تلك الفرصة لاختطاف جرو صغير .

فسألت :

ــ وبماذا اخيفه ؟

فاقترح احدهما :

ــ إبصق على صلعة رأسه .

فراقت لي الفكرة حتى انني لم اجد خطيئة كبيرة في البصق على رأسه ،لأنني أعلم أساليب عديدة أشد ضراً لإنزال الأذى بالناس . فلم أتردد في تنفيذ هـذه المهمة ...

بيد أن هذا التصرف أثار جلبة كبيرة ، وسرعان ما توافد الى الساحة جمع غفير من نساء آل بيتيلينغ ورجالهم وقد بدا في مقدمتهم ضابط انيق . وبما أن ابنا خالي كانا يلهوان في الشارع بهدوء وسكينة أثناء اقتراف الجريمة ، كتب لي ان اتحمل العقات لوحدي من دونها ، فقام جدي العزيز بجلدي ، في جمع غفير ، كي يخفف من غضب سكان الدار المجاورة ويعمل على إرضائهم .

كنت ممدداً في المطبخ منهار الأعصاب ، يعتصرني الألم ، حـــين أتى العم بيوتر ، وقد لبس أجمل ثيابه ، وقد بدا في حالة نفسية حسنة ، فاقترب مني وهمس في أذني .

ــ لقد قمت بعمل يدل على الذكاء والفطنة ، يا عزيزي ، ان ذلـك التيس العجوز يستأهل أكثر مما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كنت أفضل أن ترمي رأسه بقرميدة كبيرة ...

فتذكرت ذلك العجوز ، المربع الجسم ، ذو الرأس الأصلع بوجهه الذي يشبه وجوه الكلاب الصغيرة ، وقد أخذ يزعق كالجرو ويمسح رأسه الاصفر بيديـه الصغيرتين . وشعرت بخجل عظيم لا يوصف ، وكذلك شعرت بالكراهية لابني

خالي في نفس الوقت ، بيد انني تناسيت كل شيء الآن ، عندما رأيت وجه بيوتر الشبيه بالسلة ، المحفور بأخاديد عميقة ، فبدا منظره مرعباً ، لا يماثله في شناعة ذلك الا وجه جدي اثناء جلدي .

صرخت ، وانا اقذف بيوتر بيدي وقدمي .

ـ اخرج من هنا !

فتعالى ضحكه وغمز بعينه ، ثم نهض وتوارى ...

ومنذ ذلك الحين ، لم يعد بي رغبة في مخاطبته ، وأخذت أتجنبه ، وفي نفس الوقت أراقبه ، كانني انتظر منه شيئاً غامضاً لا ادرك كنهه على وجه التحديد !

* * *

وبعد تلك المغامرة حدث شيء آخر ... كان منزل آل أوفزيانيكوف شغلي الشاغل منذ فترة طويلة ، كانت جدرانه القديمة توحي لي بانه ينطوي على شيء غريب لا وجود له إلا في حكايات الجنيات .

وكان منزل آل بيتيلينغ يعج بالضوضاء والحركة ، تقطن فيه شلة من الفتيات الفاتنات ، كان يتردد اليهن عدد كبير من الطلبة والضباط الذين كنت تراهم دائماً ، أينما وجدتهم يضحكون ، ويصيحون ، ويلهون ، ويغنون ، ويعزفون الألحان الشجية ، وكان المنزل ذو طلة بهية . بيد ان جدي لم يحب ذلك المنزل ابداً ، فهو يطلق على سكانه لقب الكفرة والزنادقة ، بينما يصف فتياته بكلمة بذيئة ، شرحها لي العم بيوتر بطريقة قذرة ..

وعلى العكس كان الصمت والسكون الخيمين على منزل اوفزيانيكوف يبعثان فيه الاحترام والتبجيل . كان منزلاً شاهقا ، وان كان مؤلفاً من طابق واحد ، يطل على ساحة شاسعة قد غطيت بالاعشاب ، ويقوم في وسطها بئر ماء تحت سقف صغير ترفعه دعامتين . كان ذلك المنزل يركن بعيداً وراء الشارع كأنه يود الاحتجاب عن الأنظار ...

كنت أشاهد كل يوم تقريباً ، منذ الهجير حتى الغروب ، ثلاثة أولاد يلهون في الساحة ... كان الجميع يرتدون ملابس رمادية وقبعات متماثلة ، وكانوا جميعاً بوجوههم المستديرة ،يشبهون بعضهم بعضاً بشكل غريب ، فلا تستطيع التفريق بينهم إلا بقاماتهم .

كنت الاحقهم بنظري من خلال شق صغير في السور من غـير ان ينتبهوا لوجودي ، الشيء الذي كان يغيظني كثيراً . وكانت ألعابهم الحـلوة ، تبعث السرور في نفسي. كان الجميع يضحكون اذا ما تعثر صغيرهم وارتمى ارضاً . بيد ان ضحكهم كان مجرداً من الخبث لا تشوبه دناءة ، ثم يساعـده الآخران على النهوض ، ويمسحان بمنديلها ما بقي من اثر الارض على ركبتيه ويديه ... وكان الأوسط يدمدم بصوت عذب :

ـ انت ، ايها الغشيم !

ولم اشاهدهم مطلقاً يتشاجرون أو يحاولون خداع بعضهم بعضاً .. فقد كان الثلاثة نشيطون أشداء ، ينضحون بالحماسة .

ذات يوم تسلقت الشجرة ، وأخذت اصفّر لهم كي الفت انتباههم إليّ . فانثنوا عن اللعب ،ورنوا بابصارهم نحوي ،وأخذوا يتهامسون بصوت خفيض .. وتوقعت ان يرشقوني بالحجارة فأسرعت بالهبوط لأعود بعد لحظات وقد امتلئت جيوبي بالحصى . بيد انني وجدتهم يلهون في زاوية بعيدة ، وقد نسوا على مايظهر كل شيء عني . فأسفت لذلـك ، ولم أرغب في أن أكون البادىء بالمشاجرة وسرعان ما نادى أحدهم من النافذة :

ـ عودوا الى البيت ، ايها الصغار ! بسرعة ...

فاستداروا طائعين ، ومشوا ببطء نحو المنزل ...

وكثيراً ما تسلقت ، فيا بعد ، تلك الشجرة المتعالية فوق السور . متمنياً ان يدعوني لمشاركتهم اللعب ، لكنهم لم يفعلوا ... بيد انني كنت أشترك ، في مخيلتي ، معهم في تلك الألعاب ويبلغ في الحماس ان اهتف أو اضحك عالياًبين

الفينة والفينة . وعندئذٍ كانوا يرمقونني بنظرة ، ثم يتهامسون فيما بينهم ، بينما أكون قد هبطت عن تلك الشجرة حائراً مرتبكاً .

وذات يوم ، اخـــذوا يلعبون « الغميضة » وكان دور الأوسط ان يقوم بالتفتيش عن الآخرين ، فوقف في زاوية قرب المستودع ، وقد وضع يديـــه على عينيه ، من غير ان يسترق النظر ، بينما راح الآخران يفتشان عن مكان يختبئان فيه . فأسرع الكبير ، واستتر في العربة الكائنة في الساحة وقـــد غطاه سطح المستودع ، بيد ان الصغير بقي يلف ويدور حول البئر ، مفتشاً عن مكان يختبىء فيـــه .

صرخ الأوسط :

ـ واحد .. إثنان ...

فقفز الصغير ، في شبه هوس ، على حافة البئر ، وتعلق بالحبـــل ثم قفز الى السطل الفارغ الذي توارى تواً . وقـــد اصطدم بجدران البئر . فراعني المشهد حين شاهدت الحبل يهوي بسرعة . فقفزت داخل الساحة . وانا أصرخ :

ـ لقد سقط في البئر !

كان الأوسط قد وصل الى البئر ، في نفس اللحظة التي بلغته فيها ، فتمسك بالحبل الذي شده عالياً ثم القاه على الارض وقـــد احرق يديه . وتوصلت الى الامساك بالحبل ، وفي ذلك الوقت ، وصل الكبير وهو يعدو ، وساعـــدني في رفع الدلو ... قال .

ـ على مهل ، أرجوك !

اخرجنا الصغير الذي بدا مرتعباً ، والدم ينزف من اصابع يـــده اليمنى ، وقد جرح خده ، وابتل حتى خصره ، وبدا شاحب اللون . ومع ذلك ابتسم قائلا وهو يرتجف

ـ بالله ... كيف سقـ .. طت !

وارتبك الأخ الأوسط :

ــ انت . أيها المجنون !

وأخذه في حضنه ، وشرع يمسح الدم عن وجهه ، بينما اعتلت وجه الأكبر تقطيبة ، وصاح :

ــ تعال ، فنحن غير قادرين على إخفاء ذلك ابـــداً . يجدر بنا ان نسرع الآن .

فسألتهم :

ــ هل ستجلدون ؟

فهز رأسه ، ثم مد يده لي ، قائلاً :

ــ انت تعدو بسرعة فائقة .

فتمايلت لاثنائه ، وقبل ان أمد يدي لأصافحه ، شرع يقـول للأوسط :

ــ هيا بنا ، قبل ان يصاب بالبرد . سنقول بكل بساطة ، إنـــه سقط على على الارض . ومن المستحيل ان نقول شيئاً عن البشر .

فهز الصغير رأسه موافقاً :

ــ أجل . سنقول انني سقطت في بركة الماء .

ثم ذهبوا ...

كل ذلك حدث سريعاً ، بحيث ان الغصن الذي كنت اعتليته قبل نزولي إلى الساحة ما زال يهتز ، وأوراقه الصفراء تتساقط حين وقع نظري عليه ..

توارى الأخوة الثلاثة ، بعد ذلك مدة اسبوع عن ناظري .. وعندما بدوا اخيراً ، كانوا أكثر بهجة وحبوراً منهم في أي وقت مضى ،عندما ابصروا بي . صاح الكبير بلطف ورقة :

ــ تعال والهو معنا .

فمضيت اليهم ، وتعلقنا بعربة قديمة مهجورة حيث امضينا مدة من الوقت

نتعارف . استوضحت :

ـ هل جلدوكم ؟

فأجاب الكبير !

ـ لقد أخذنا نصيبنا، جميعاً !

كان يشق علي ان يجلد هؤلاء الصبية كما يجلدني جدي ، واعتبرت ذلك جوراً فتألمت لهم ...

سأل الصغير :

ـ لماذا تقتنص العصافير ؟

ـ لأنها تشدو بصوت رائع .

ـ لا تقوم بذلك مطلقاً ، دعها تطير حرة أيان شاءت ، وتغرد ..

ـ حسناً ، اعدك بذلك ..

ـ لكن ، قبل ان تعدل في رأيك ، اصطد واحداً واعطنيه .

ـ ماذا تفضل ؟

ـ عصفوراً مرحاً ، لأضعه في القفص .

ـ ينبغي أن يكون ذلك بلبلاً .

فقال الأوسط :

ـ ستلتهمه الهرة . ولن يدعنا والدي نحتفظ به .

فوافق الكبير :

ـ هذا صحيح !

ـ هل عندكم والدة ؟

فأجاب الكبير :

ـ كلا ! لكن ...

فصرح الأوسط قائلاً :

ـ اجل لنا . لكنها واحدة اخرى ، ليست امنا ، فقد ماتت امنا .

فقلت :

ـ ان هذا النوع يدعى خالة .

فهز الكبير برأسه قائلا :

ـ اجل ! هذا صحيح

ولاذ الثلاثة في صمت عميق ...

كنت ادرك من روايات جدتي ، ما هي الخالة ، فلم يصعب عليّ ان ادرك معنى ألمهم العميق ، وقد جلسوا الآن متلاصقين كصيصان مذعورة ... وعادت الى مخيلتي قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى اشنع الوسائل لتأخذ مكان الأم الحقيقية ، فقلت محاولاً تعزية الصبية :

ـ لا تحزنوا ! ستعود أمكم الحقيقية ثانية .

فهز الكبير كتفيه ، ثم قال :

ـ وكيف سترجع وهي ميتة ؟ ذلك لن يحدث مطلقاً !

واخذت اقص عليهم بعض اقاصيص جدتي بحماسة فائقة بيد ان الصبي الاكبر ابتسم باحتقار . قال :

ـ لقد سمعنا هذه الروايات ، فهي حكايات خرافية ليس إلاّ ! ..

كان اخواه يصغيان بانتباه . وقد عقد الصغير جبينه ، وعض على شفتيه . ووضع الأوسط مرفقه على ركبتيه . وطوق بذراعه الآخر رقبة اخيه ...

قبيل الغروب . كان السكون يهيمن . وتعالت بعض الغيوم الرمادية في الجو فوق السطوح . حين بدا على حين غرة وجه شيخ ابيض السالفين . وقد لبس معطفاً بنياً طويلا يشبه ثوب الكهنة . وقد اعتمر قبعة من الفرو .. دنا منا ثم استوضح وهو يشير إليّ بإصبعه :

ـ من هذا ؟

فنهض الكبير ، وأشار بيده الى دار جدي وقال :

— انه من هناك .

— ومن طلب منه الحضور الى هنا ؟

فهبط الثلاثة تواً عن العربة ، ومشوا باتجـــاه البيت ، وقد ذكروني مرة اخرى ، بالاوز المطيع ..

وامسك بي الشيخ من كتفي بقسوة ، وقادني من الساحة حتى البوابـــة .

كنت اشعر بالحاجة الى ذرف الدموع من شدة لوعتي ، بيد انــه ركض بي مسرعاً ، وبخطوات واسعة ، حيث وجـــدت نفسي في الشارع قبل أن تنهمر دموعي .

وتوقف بجانب البوابة ، هازاً إصبعه في وجهي منذراً ، فقال :

— إياك ان تجرؤ وتأتي لمشاهدتي مرة أخرى !

فصرخت مغتاظاً :

— انا لم آتِ لمشاهدتك انت ، أيها العفريت الهرم !

فمد ذراعه والتقطني مرة اخرى ، جاراً إياي على طول الطريق . مكرراً نفس السؤال ، فتتساقط عباراته على رأسي كضربات مطرقة ثقيلة :

— هل جدك في البيت ؟

وشاء القدر القاسي ان يكون جدي في المنزل ... وقف ذليلا امام الرجل المتوعد ، وقد شلح رأسه الى الوراء ، وانقذفت لحيته الى الامام ، وقال مرتبكاً وهو يتطلع بعينين مدورتين حزينتين :

— ان والدته غير موجودة ، وانا مشغول ، وليس من احد يرعاه . انني استميحك عذراً ، يا سيدي الكولونيل .

فهدر الكولونيل بصوت تردد صداه في انحاء البيت ، ثم استدار على عقبيه وتوارى ...

وبعد فترة قصيرة كنت اضطجع في عربة العم بيوتر اخفي دموعي،بعد ان اخذت نصيبي من العقاب ... فاستفسر العم بيوتر وهو مشغول بالحصان :

– هل جلدك جدك مرة اخرى ، يا صاح ؟ ما هو جرمك هذه المرة ؟

وعندما اعلمته بالأمر نهض واقفاً ، وصرّ على اسنانه ، وصرخ مغتاظاً :

– لماذا تصاحب مثل هذه الجماعة ؟ انهم من سلالة النبلاء ، فهم كالأفاعي.. ارأيت ما اصابك بسببهم ؟ لن تنسى ذلك ، اليس كذلك ؟

وبقي يهذي على هذا المنوال فترة طويلة . فأرهفت له السمع بادىء الأمر ثائراً نتيجة ما أصابني من جلد بسببهم .بيد ان الوجه الشبيه بالسلة اخذ يرتجف بشكل غريب . وسرعان ما تصورت ان اولئك الصبية هم يجلدون كذلك ، وقد وقع ذلك لهم فعلا فيما مضى . وانهم لم يقصدوا اذيتي أبداً فهم لا يستأهلون اللوم اكثر مني على اي حال . قلت :

– ليس من داع الى ذلك . فهم صبية طيبون . وان ما تتفوه به مجرد سخافات ليس إلاّ .

فتأملني بحدة . ثم صرخ فجأة:

– اخرج من عربتي .

فزعقت وانا اقفز من العربة

– أحمق !

واخذ يعدو ورائي في الساحة وهو يصرخ . من غير ان يتمكن من الامساك بي .

– انا احمق ؟ انا سخيف ؟ سأريك مرة ...

وبدت جدتي على عتبة المطبخ . فألقيت بنفسي في احضانها . بينما طفق بيوتر يشرح لها ما حدث بيننا قائلا :

– ان هذا الجرو الصغير ينغص عليّ حياتي . وهو لا يدرك معنى لعبارته . فيصفني بالقاب بذيئة . ويتجاسر على نعتي بكاذب مع اني اكبره بست مرات ...

كنت لا أتمالك نفسي امام الناس الذين يكذبون أمامي . فينعقد لساني من الدهشة ... وهذا ما جرى لي عندئذ . فرنوت اليه فاقد المقدرة على الكلام... بيد ان جدتي قالت بصرامة وحزم :

ــ والآن يا بيوتر ، أنت من يكذب . فأنا متأكدة من أنــــه لم ينعتك بالفاظ بذيئة ابداً .

أما جدي فكان يصدق ، ما يقوله له . ذلك السائق ...

* * *

منذ ذلك اليوم ، شنها بيوتر حرباً عليّ ، فهو يتحين الفرص . ليلكمني على ظهري ، أو يضربني باللجام الذي يلوحه بيده عابثاً . وكان هذا الأمر يحدث في بعض الأحيان صدفة ... وكذلك افلت عصافيري من الأقفاص ، وسلط عليها الهرر .. وكان يختلق مناسبات يشكوني فيهــــا الى جدي ، ويسر اليه بأشياء كثيرة ، مغالياً في إظهار أخطائي وتكبيرها . وهكذا كنت لا أجد فيه سوى صبي صغير في مثل سني ، بيد انه يرتدي ثياب الشيوخ .

واخذت بدوري أتفنن في الثأر لنفسي منه .فأفك شرائط حذائه ،واقطع اقمشة جواربه ، حتى إذا ما لبسها وشدهــا كانت تتقطع إلى آخرها . وذات مرة وضعت في قبعته مسحوق الفلفل ، فبقي ساعة يــــدور على نفسه وهــو يعطس ..وبكلمة اخرى أخذت أبذل قصارى جهدي لأكيل له الصاع صاعين. وما ان يأتي نهار الأحد حتى يأخذ في التجسس عليّ ، ويراقبني بعين يقظة ،حتى إذا ما ضبطني في بعض المرات مع الصبية النبلاء ، عدا إلى جدي واشياً بي.

ورغم كل ذلك ، بقيت اتصالاتي تزداد وثوقاً ، ويزداد معها سروري الذي اعجز عن وصفه . وكانت تركن بين حائط منزلنا وسور آل أوفريانيكوف . زاوية صغيرة تظللها أشجار الليمون . وقد غطيت بأشجار من البيلسان الـــتي

فتحت خلفها متسعاً صغيراً في السور يأتيني منه الأخوة . فنجلس القرفصاء نتحدث في سكون وهدوء بينما يقف شخص يحرس المكان مخافة ان يفاجئنا الكولونيل فجاة .

وذات يوم قصوا علي قصة الحياة الرتيبة التي يعيشونها في كآبة وحزن . فكان ذلك يحز في نفسي ... كنا نتجاذب الحديث عن الطيور التي اصطادها . وعن كثير من الأمور التي تملأ حياة الصغار . بيد انني ما زلت اذكر تماماً انهم لم ياتوا مطلقاً على ذكر والدهم أو امرأته . وغالبا ما كانوا يسالونني أن أروي لهم حكاية . فاعيد على مسامعهم بامانة متناهية . كل تلك الأساطير والروايات التي سمعتها من جدتي ... فاذا غابت عني بعض الأحداث . كنت أطلب اليهم الانتظار لحظة. وأمضي الى المطبخ استرجع جدتي ما غاب عن ذاكرتي الأمر الذي كانت تغتبط له كثيراً .

كنت احدثهم . غالبا عن جدتي ... وذات مرة ندت عن الأخ الأكبر تنهدة عميقة . ثم قال مكتئبا :

ـ لا شك ان الجدات لطيفات للغاية . فقد كان لنا جدة لطيفة . وكنا نكن لها كل الحب ...

كان يتكلم . في أغلب الأحيان بصيغة الماضي ويردد كثيراً . وبحزن باد . هذه الكلمات : « كنا » و « ذات مرة » و « كان لنا » . حتى ليخيل الى السامع انه عاش مئات السنين . لا احد عشر عاما .

كنت اغرق وإياهم في الحديث حتى يغيب عن بالنا امر العم بيوتر الذي ما ان يظهر حتى يفرقنا وهو يقول :

ـ ما ... ذا ؟ انت معهم مرة اخرى ؟

كنت ادرك انه يزداد تقطيباً وعبوساً . واصبحت ايضاً ادرك طبيعة مزاجه من طريقة فتحه للبوابة عند عودته من العمل . كا من عادته أن

يفتحها بتأن وتمهل . فاذا كان مزاجه سيئا كان يفتح البوابـــة بحيث تبعث المفصلات نباحا حاداً أشبه بتأوهات انسان يتألم ويعاني آلاماً قاسية .

وقد تركنا ابن اخيه الأبكم الأصم ومضى الى الريف منذ زمن بقصد الزواج. وهكذا اصبح بيوتر يقطن وحيداً في حجرته الواطئة السقف ، الكائنـة فوق الاسطبل ، ذات نافذة واحدة . كان مهملا في ترتيب تلك الحجرة حتى ازدحمت بالروائح ، من جلود مدبوغة وتبغ وقطران ، وعرق ، كل هذه الروائح كانت حاجزاً يمنعني من زيارته .

وفي الأيام الأخيرة . شرع ينام من غـــير ان يطفىء القنديل . الأمر الذي ازعج جدي كثيراً .

كان يقول له جدي دائماً :

— إحذر يا بيوتر . وإلاّ أحرقت المكان .

فيجيب . وهو يتطلع بعيدا حتى لا تتلاقى نظراته بنظرات محدثة :

— كلا . اطمئن . فلا خوف من ذلك مطلقاً ! فانني اركز الشمعة في الليل وسط حوض الماء .

أصبحت نظراته الى الناس والاشياء سريعة . مسترقة . واخيرا امتنع عـن حضور حفلات جدتي . ولم يعد يعزمنا على مرباه . في حين اخذ وجهـه يزداد غضوناً وجفافاً . واصبح يترنـــح في مشيته ويجر رجليه كرجـــل مريض منهار .

وصبيحة ذات يوم . بينما كنت اجرف الثلج مـــع جدي ، تناهى الى سمعي صوت صرير مزلاج البوابة بنغم وقح ، ودخل منه الى الساحة شرطي ثم اغلق البوابة وراءه . واستند اليها . ثم أشار الى جدي بإصبعه السمينة طالباً اليـــه الدنو منه . وما ان غدا بجانبه حتى انحنى عليه واسر اليه شيئاً جعله يدمدم . وهو مضطرب :

ـ هنا ؟ متى ؟ لو كنت اتذكر فقط ...

ثم اجفل بشكل مزر . وصاح .

ــ ايها الرب المجد ! هل ذلك ممكن ؟

فنبهه الشرطي بصوت هامس :

ـ صه ! لا تصرخ هكذا !

فتأمل جدي حوله ، فشاهدني ، وقال :

ـ خذ المجارف وامضِ الى المنزل .

فتواريت في زاوية ورحت اراقبها وهما يدخلان جناح السائــــق بيوتر في الاسطبل ، وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وطفق يضرب به اليسرى ، وهو يقول .

ـ لقد ادرك ذلك تماماً ، فترك حصانه وتوارى .

انطلقت الى المطبخ باقصى سرعة واخبرت جدتي بمـــا شاهدت وسمعت . فوجدتها منحنية فوق وعاء العجين ، يتأرجح رأسها مع حركاتها الى الامـــام والوراء .

وعندما انتهيت من كلامي ، قالت بتكاسل :

ـ ربمـــا سرق شيئاً . إمض إلى الساحة والعب ، فليس لك شأن في ذلك !

عدت إلى الساحة عدواً ، فرأيت جدي يقف بجانب البوابة ، وقـــد نزع قبعته عن رأسه . يتطلع الى السماء وهو يرسم اشاره الصليب . وقـــد اعتلت وجهه علائم الغضب . وقد ارتجفت ساقيه .

صرخ . ضارباً الارض بقدمه :

ـ ألم أقل لك بان تمضي الى الدار ؟

ودفعني الى المطبخ . وما ان رأى جدتي حتى هتف بها :

ـ تعالي ، يا أماه !

انطلقا الى غرفة مجاورة حيث امضيا فترة من الوقت يتهامسان .. وعندما عادت جدتي الى المطبخ ، فهمت ان شيئاً رهيباً قد وقع .. سألت ؟

ـ لماذا أنت مذعورة خائفة ؟

فاجابت بهدوء :

ـ إخرس ، هل فهمت ؟

وغرق المنزل في جو من الرهبة والضيق طوال ذلك اليوم وبقي جدي وجدتي طوال الوقت يتبادلان نظرات قلقة ، وعبارات غامضة ، زادت من اضطرابي وحيرتي . ثم اصدر الجد اوامره بصوت عال ، وهو يسعل :

ـ اشعلي القنديل ، يا اماه ..

تناولا طعام الغداء من غير شهية وبسرعة متناهية ، كأنهما بانتظار شخص ما . واثناء ذلك كان جدي ينفخ خديه ، ثم يسعل ، ويدمدم :

ـ إن الشيطان يفوق الانسان قوة .. تأملي هذا مثلا ، انه رجل مؤمن ، تقي ورع . ومع ذلك تأملي ماذا فعل !

فتنهدت جدتي ..

واخذ النهار يلملم اذياله في كسل ، واصبح الجو لا يطاق يزداد توتراً واضطراباً ساعة بعد ساعة .

وقبل هبوط الظلام ، اتانا شرطي آخر . كان سمين الجثة ، احمر الرأس ، اقتعد زاوية في المطبخ ، واخذ يغط في النوم فيعلو شخيره في ضجيج عنيف . سألته جدتي :

ـ كيف اكتشفوا ذلك ؟

فاجاب متكدراً ، بعد فترة من الصمت :

ـ لا تتباهي ، انهم يكتشفون كل شيء عندنا .

كنت جالساً الى النافذة واضعاً في فمي قطعة قديمة من العملة اسخنها كي اطبع بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النصر ، على زجاج النافذة

المتجمد .. وعلى حين غرة ، تعالى الضجيج ي الممر ، ثم فتح البا .
وبدت بتروفنا على العتبة ، وهي تصرخ :
ـ انهضوا وشاهدوا ماذا يوجد على أرضكم
وما ان وقعت انظارها على الشرطي . حتى ا
الهرب . بيد ان الشرطي امسك بها من ثوبها وصرخ بـ
ـ مهلك لحظة ! من انت ؟ ماذا يوجد هناك ؟
فخرت على ركبتيها ، وشرعت في البكاء وهي تبتلع دموعها
ـ لقد مضيت لاحلب البقرة.وفجأة شاهدت ما يشبه زوجين من الاحذية في ساحة آل كاشرين ..
فصرخ جدي مغتاظاً :
ـ هذا كذب ، أيتها الفاجرة ، انت غير قادرة على مشاهـــدة شيء في ساحتنا ، فالسور عال ، وليس هناك من فجوات فيه ابداً . انت تكذبين ! ليس هناك شيء في ساحتنا .
فبكت بتروفنا ، مادة اليه يدها وقد امسكت رأسها باليد الاخرى .
ـ آه يا إلهي ! انــــه على حق ، فانا اكذب . لقد مضيت لاحلب البقرة . وشاهدت آثار اقدام تقود الى السور ، وقد تبعثر الثلج في بقعة واحدة . مما اثار فضولي ، فتسلقت السور وتأملت من فوقه فرأيته ..
ـ مـ .. ن ؟
أتت هذه الصرخة طويلة ، لا معنى لها ..
وفجأة ، شرع الجميع يعدون ويتدافعون خارج المطبخ في اتجاه الساحة . وهناك ، بين اكوام الثلج ، في الحفرة التي احدثها احتراق غرفة الغسيل ، كان العم بيوتر ممدداً . وقد استند ظهره إلى جدع محترق ، وقـــد تدلى رأسه فوق صدره .. أغلقت عينيّ خوفاً ورهبة ، فرأيت من خلال اهدابي ، مدية العم بيوتر التي كثيراً ما شاهدته يقطع بهـــا الجلود ، قد القيت على ركبتيه ، بينما تراخت اصابع يده اليمنى ، اما يده اليسرى فقد دفنت في الثلج الذائب تحت

الجسد الصغير .. وقد تلوث الثلج عن يمينه بقع حمراء . بينما بقي عن يساره ابيض نقياً . وقد تدلى رأسه وارتاح فوق الصدر ، وقد ظهر من تحت لحيته صليب نحاسي قد احاطته خيوط من الدم المتجمد .

ومن كثرة الجلبة والاصوات حولي ، شعرت بدوار يجتاحني .. فبتروفنا تصرخ من غير انقطاع ، والشرطي يصيح بفالي ان يمضي الى مكان ما . وجدي يصيح بكل ما أوتي من قوة :

— حاذروا أن تتلفوا الآثار !

بيد انه سرعان ما قطب وهو يتأمل الارض تحت قدميه يخاطب الشرطي في صوت عالٍ بلهجة آمرة :

— لا جدوى من هذا الصراخ ايها الضابط ! تلك مشيئة الله . وانت تأتينا بهمتك الحمقاء هذه ! تباً لك !

فركن الجميع إلى الصمت ، وهم يطلقون الزفرات ويرسمون إشارة الصليب ، ويتأملون الرجل الميت طويلا .

واخذ آخرون يتقافزون من فوق السور ، يأتون من ناحية منزل بتروفنا . كانوا يتوقفون لحظة ثم يدمدمون بشيء غامض ، ثم يعدون عبر الساحة من غير ان يأتوا ضجة تذكر ، فكان جدي يرمقهم بنظراته ، واخيراً صاح حانقاً :

— انتم تتلفون اشجار توت العليق ، ايها الجيران ألا تخجلون من انفسكم ؟

فامسكت جدتي بيدي واصطحبتني الى المنزل .. سألتها !

— ماذا فعل ؟

فأجابت هامسة :

— اما شاهدت ؟

بقي اناس غرباء طيلة تلك الليلة . يملأون المطبخ والغرفة المجاورة له . بينما يصدر الشرطي أوامره ، ورجل آخر يشبه الشماس يدون بعض الملاحظات في دفتر صغير ، وليس في فيه غير سؤال واحد :

— ماذا ؟ ماذا ؟

احضرت جدتي الشاي وقدمته للجميع .. كان رجل مدور الجسم ،طويل الساقين ، يجلس إلى طاولة المطبخ يقول في صوت متهدج :

ـ ليس من يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الذي عرف عنه انه جاء من ايلانما فقط . أما ذلك الابكم الاصم فلم يعد ابكم او اصم اكثر من اي واحد منـا لقد تكلم واعترف . وكذلك اعترف ثالثهم ، وقد كانوا ثلاثة مهمتهم سرقة الكنائس . وقد مارسوا هذه المهنة منذ امد طويل ..

فهتفت بتروفنا ، وقد احمر وجهها ، وتصبب منها العرق :

ـ يا إلهي !

استلقيت في سقيفة المطبخ ، ابصرهم من علٍ ، فبدوا لي قصاراً غلاظـاً تعلوهم الشناعة ...

●

- ١٠ -

صباح يوم سبت ، مضيت باكراً إلى حديقة الجارة بتروفنا قاصداً اصطياد بعض الطيور ، بيد ان تلك الطيور منذ زمن طويل وهي تأبى ان تقترب من شراكي او تقع فيها . كانت تتباهى بجمالها قاصدة اغاظتي ، فتطير بمذوبة متناهية فوق الثلج الفضي ، وتتمايل على الاغصان التي يتناثر الثلج منها عندما تحط عليها .. كل هذا اضفى على المنظر روعة وجمالاً يفوق اغتباطي في اصطياد تلك الطيور لذلك لم اشعر بخيبة امل ولم آسف على محاولاتي الفاشلة للامساك بها ، وكذلك فانني لست بالصياد المتحمس .. فكان منظر الطيور ومشاهدة اسلوب حياتها يبعث في نفسي نشوة اكثر من اصطيادها وامتلاكها .

جمعت شباكي واقفاصي،عندما شعرت بالقشعريرة تحز مني العظم،وتسلقت السور المؤدي إلى حديقة جدي ، ومضيت مسرعاً باتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ،بيد ان قلبي وعلى حين غرة انقبض من غير سبب جلي عندما شاهدت مرجيك يقود خيوله المسرجة إلى مزلجة كبيرة مقفلة . استوضحته !

ـ بمن أتيت إلينا ؟

فالتفت ، وحدجني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده ، وصاح :

ـ لقد أتيت بالكاهن .

وصرخ الفلاح بالجياد ، وهو يهز عنانها ويحثها على العدو ، فتنثر في ارجاء الفضاء رنين اجراسها :

ـ هيا انطلقي ، ايتها الكتاكيت !

بقيت واقفاً اتأمل العربة وهي تتوارى بعيداً ، ثم أغلقت البوابة ، ودلفت الى الدار .. ولم اكد ابلغ المطبخ ، حتى تناهى الى اسماعي صوت أمي العميق في الحجرة المجاورة :

ـ حسناً ! ماذا تنوي فعله الآن ؟ قد تود الاجهاز عليّ ، اليس كذلك !

فألقيت بالاقفاص أرضاً ، وعدوت إلى الممر من غير ان انزع معطفي . بيد ان جدي امسك بي عند العتبة ، ورمقني بنظرة حادة ، وابتلع بصعوبة شيئاً ما كان قد علق في حلقه ، ثم صاح بصوت جهوري :

ـ لقد عادت امك .. فاذهب اليها ! انتظر ! ..

وهزني بشدة حيث لم احمل نفسي إلاّ بجهد ، وقذف بي ناحية الباب وقال :

ـ أدخل ! أدخل !

ارتطمت بالباب ،فوقفت عنده لحظه حائراً، ترتعد فرائصي برداً وانفعالاً .. واخيراً عندما فتحت الباب وبقيت في العتبة واقفاً مذهولا ، وقد انعقد لساني فهتفت أمي !

ـ آه ! ها هو ! يا للسماء ! كم كبرت ! ألم تتعرفني ؟ ماهذه الثياب التي يلبسها ! .. تأملي اذنيه المتجمدتين برداً ..

وانتصبّت في وسط الغرفة وقد انثنت فوقي ، تنتزع عني ثيابي وتجعلني ادور أمامها كالخذروف ..

بدا لي وجهها اصغر من ذي قبل ، وقد ازداد بياضاً . اما عيناها فقد اتسعتا وازدادتا غوراً .وقد التمع شعرها ببريق ذهبي اكثر من اي وقت آخر.. كانت تلقي الثياب التي تنزعها عني ناحية الباب .. وهي تتلفظ بلهجة كئيبة :

ـ حسناً لماذا لاتنبس بشيء ؟ الست مغتبطاً ؟ تفو ! يا له من قميص وسخ !

وتناهت الى سمعي اقوال جدتي ، معلقة على ملاحظات امي وهي تقول بلهجة شاكية :

ـ لقد تخلص من كل رقابة . ولم يعد يخاف حتى من جده ! آه ، يا فاريا ،

انظر لحالها ، واغفر لها ، يا ابتاه ! فليس احد منا معصوماً عن الخطأ..

فرمقها بنظرة ، وقد استند الى الجدار ، وهو يردد :

ـ آه ، اجل ، طبعاً ! لمَ لا ؟ انت على استعداد ان تسامحي اي انسان .. تفوا ! تباً لك ؟

ثم انثنى نحوها ، وامسكها من كتفها ، وشرع يهزها . وكلامه ينساب من بين شفتيه هامساً :

ـ لكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء اليس كذلك ؟ ها قد اصبحنا على حافة القبر. وما زال ينزل بنا العقاب . لقد ادركنا ايامنا الاخيرة فاذا هي لا تهدأ، خالية من الفرح ، والاستقرار .. سنموت متسولين ، تذكري ذلك ، متسولين معدمين !

فامسكت جدتي بيده ، وقبعت بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

ـ وما الاهمية في ذلك ؟ لماذا أنت خائف من ان تكون متسولاً ؟ سنصبح متسولين ، اذن ، استطيع ان اخرج انا لأستجدي ، وتبقى انت في البيت ... وليس من احد يستطيع ان يمنع عنا العطاء ، ولن نعيش جائعين. كفاك تعذيب نفسك بهذه الاهام .

وفجاة نفخ بمنخريه ورفع رأسه ، ثم لف ذراعه حول عنق جدتي ، وقد التصق بها تماماً ، صغيراً ، بالياً ، رثاً ، وقال بلهجة شاكية :

ـ أيتها الحمقـــاء المباركة ! انت الانسان الوحيد الذي بقي لي على وجه الارض . انت لا تأسفين على شيء في هذه الحياة لأنك بلهاء لا تدركـين شيئاً . تذكري ما فعلناه من اجل ابنائنا ! لقد ارتكبنا المعاصي في سبيلهم ! والآن ، في النهاية ، لو أنهم يعملون الشيء اليسير مما عملناه من اجلهم ! ..

وعند هذا الحد لم اعد احتمل ، فقفزت عن الموقد والعرق يتصبب مـــني . والدموع تنهمر من مقـلتيّ ، وعدوت اليها ، وانا ابكي من الفرح بعودة أمي ،

ولأنها قد تبادلا هذه العبارات الناعمة ، وبكيت حزناً لانهما سمحا لي بمشاركتهما احزانهما . فعانقاني ، واغرقاني في دموعهما ثم همس جدي في اذني :

— انت هنا ، ايها الشيطان الصغير ! لن تكون بحاجة اليّ بعد الآن ، بعد عودة امك ، انا جدك الشيطان العجوز ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، هذه الشمطاء الهرمة التي لا تعرف شيئاً سوى تدليلك . تفو ! تباً لك !

وباشارة من يده ابعدنا عنه ، ثم قفز واقفاً بعد ان تمالك نفسه .. صاح مغتاظاً :

— الجميع يتركوننا ! وكل واحد يمضي في طريقه الخاصة ، لا يعي الا مصلحته فقط .. حسناً نادوها . بسرعة !

فتركت جدتي المطبخ ، بسرعة ، بينما انزوى جدي في زاوية من المطبخ ، وهو يدمدم حاني الرأس :

— ايها الاله الرحيم ، هل ترى ماذا افعل ؟ اتراه ؟

وكال بقبضته ضربة على صدره ، دوى لها رنين لم يعجبني. كنت على اي حال ، اكره الطريقة التي يخاطب بها الله .. واتت امي ، فملأت الغرفة بالتماع ثوبها الاحمر . وقبعت الى الطاولة بين جدي وجدتي . وشرعت تحكي لهما برزانة ووقار قصة ما ، وهما يرهفان اليها السمع في سكون وهدوء . كانا يبدوان صغيرين بالنسبة اليها ، فكأنها الأم وهما والداها !

كنت مضطجعاً في السقيفة ، منهك القوى من وقائع النهار ، فسرعان ما استسلمت لسنة من النوم ...

تزي جدي وجدتي ذلك المساء افخر ثيابهما ، وذهبا لحضور صلاة الغروب. غمزتنا جدتي فرحة محاولة الفات انظارنا الى جدي الذي يتالق في بزة رئيس نقابة الصباغين ، المؤلفة من سروال مخملي ومعطف من الجلد ، ثم همست في اذن والدتي :

قالت وهي تسوي السجادة بقدمها :
ـ انك ستصبح شبيهاً بوالدك في يوم ما . هل كانت تحدثك جدتك عنه ؟

ـ اجل
ـ لقد كانت تحب مكسيم كثيراً . كانت مولعة به، وكان هو ايضاً يحبها كثيراً .
ـ اعلم ذلك.
رمت الشمعة بنظرة عابسة . ثم نفخت على الشعلة الضئيلة فأطفأتها ... قالت :
ـ هكذا أفضل .
كنت اجد الغرفة اكثر وداعة حين يخمد النور. وتحل محله اخيلة القمر الفضي الزرقاء ... بينا تأخذ شعاعات ذهبية تتراقص على زجاج النافذة .
ـ اين كنت تقطنين قبل رجوعك الى هنا ؟
فذكرت اسماء بلدان عديدة . كأنها تسترجع إلى ذاكرتها ماضياً سحيقاً غربت وقائعه عنها منذ أمد طويل ...
ـ من أين اتيت بهذا الرداء الجميل ؟
ـ لقد صنعته بنفسي . فأنا أصنع كل شيء بنفسي .
كنت اغتبط كثيراً إذ أجدها تختلف عن الجميع كل الاختلاف . فلا شيء يؤسفني منها غير قلة كلامها . فهي لا تتكلم إلا مجيبة على سؤال ...
وقبعت مرة اخرى ، بجانبي على الأريكة ، وقد شدتني اليها ، وبقينا كذلك مدة طويلة ، إلى أن عاد جدي وجدتي من الصلاة ، ورائحة البخور والشموع تفوح منهما وقد علا الهدوء ، واللطف ، والاكبار سيماءهما ...
وفي المساء ، أقيم عشاء احتفالي ، يليق بحدث كبير الأهمية ، لم نتفوه خلاله بالكلام إلا فيما ندر . كأننا نخشى إيقاظ شخص عزيز من نومه الخفيف الذي حمله

على اثيره ...

وبعد مضي ايام قليلة اخذت امي على عاتقها مهمة تعليمي الثقافة «الحياتية» فاشترت لي بعض الكتب، منها «مبادىء القراءة الروسية» الذي تعلمت فيه، خلال عدة ايام حروف الأبجدية الواردة في غير الكتب الدينية. بيد أن امي ارادت مني ان احفظ الشعر عن ظهر قلب، فكان ذلك شاقاً وبدء عذاب مشترك لكلينا.

وكانت هذه اولى المقطوعات الشعرية التي ينبغي عليّ حفظها:

«طريق تذر به الرياح
تجوب الفيافي ودور البشر
لم ينزل الفأس فيها صداح
لكن حوافر الخيل تمر»

وكنت عند قراءتها اقول «النباح» بدلاً من «الرياح» و«الكأس» عوضاً عن «الفأس» و«فرافر» بدلاً من «حوافر» ... فتصيح والدتي محتجة بقولها:

ــ فكر قليلاً كيف يمكن ان يذر «النباح» ايها الأبله؟ «الرياح» هذا ما ينبغي قوله!

ادركت ذلك جيداً، بيد انني بقيت اقول (النباح) أثناء تلاوة الدرس متعمداً، فتغضب امي غضباً شديدا. وتلقبني بالعنيد الأبله. فأجد هذه الكلمات جارحة. فاحاول جاهدا الا اخطىء مرة ثانية ... فقد كنت اردد‌ها في ذهني من غير ان اخطىء فيها أبدا. لكن ما ان اتلوها بصوت مرتفع حتى ابدأ بالخلط بين الكلمات من جديد. واخيرا شعرت بالكراهية نحو تلك السطور واخذت اتعمد تشويهها، وذلك بجمع عدة كلمات من نغمة واحدة الى بعضها بعضاً، وأسرُّ كثيرا حين تفقد تلك الأشعار كل معنى لها.

بيد ان تلك التسلية كلفتني غالياً، فقد طلبت مني والدتي في نهاية الدروس

ذاكرتي، وتزداد رغبتي في تحريف تلك السطور الايقاعية ، ويشدني الشوق الى تبديل بعض الكلمات وتشويهها . وكنت ابلغ غايتي في ذلك من غير صعوبة ، فتتدافق الكلمات الغريبة الى مخيلتي وتأخذ ، بكل بساطة ، موضع الكلمات الاساسية،وكانت ذاكرتي ترفض في بعض الاحيان استيعاب مقطوعة كاملة مهما حاولت من جهد ، وامثال هذه الرباعية الشاكية ، واعتقد انها من شعرالامير فيازيمسكي التي كابدت من ورائها متاعب كثيرة :

« من الفجر حـــتى دنو الغسق
يمـر ، في الشارع ، جمع يصيح !
يودون شيئـــاً باسم المسيح ...
فكان الشطر الرابع يغيب دائماً عن ذاكرتي :
يبغون قوتـاً يسد الرمق . »

وتغضب امي لضعف ذاكرتي فتشتكي الى جدي ، الذي يجيبهـــا قائلاً في حـدة :

ـ ماكر ، شيطان ، انه يأتي ذلك عمداً : انه يتقن جميع الصلوات افضل مني فذاكرته صلدة ، اذا ما استوعبت الشيء فانه ينحفر فيها الى الابد ، ينبغي ان تجلديه !

واتت جدتي تؤيد رأيه .

ـ انه يحفظ القصص والخرافات جيداً ، حتى الاغاني ،والاغاني شعر ، اليس كذلك ؟

كان ذلك حقيقة لا مراء فيها . احسست انني ملوم ، ومع ذلك كنت اذا بدأت في حفظ مقطوعة جديدة،تأخذ اسراب الكلمات الغريبة تتدافع الواحدة تلو الاخرى في ابيات اقل او اكثر تناغماً :

« يدب الى بيتنا في الصباح
جمع غفير ينتظرون ..
يبتهلون .. ويبكون
وبكاؤهم كصفير الرياح ! »

كنت اعيد على جدتي ، وقت النوم كل ما ترسخ في ذهني من دروس النهار وما ابدعته مخيلتي، فتبتسم احياناً ، واحياناً اخرى تؤنبني بقولها :

ـ أرأيت ؟ انك قادر على فعل ما تريد ساعة تشاء ! لكن ، ينبغي عليك ان لاتسخر من الفقراء لأن الله معهم .. لقد كان المسيح نفسه فقيراً ، وكذلك سائر القديسين .

ـ « إني امقت التعساء
وكذلك امقت جدي !
فسامحني ، يا رب ..
أأحلق في السماء
هارباً من ظلم جدي
ام اتوارى في جب ؟ .. »

فصرخت محتدة :

ـ يجب ان يقطع لسانك من جذوره ، أيها العاق الشرير، ماذا يجري لو سمع جدك هذا؟

ـ ليسمع ..

فتأخذ في رجائي بلطف :

ـ لماذا تغيض امك البائسة هكذا ؟ يكفي ما تعانيه من احزان ..

ـ وما هي احزانها ومشاغلها ؟

ـ إخرس . فانت لست بقادر على ادراك هذه الامور !

ـ انا اعلم ان جدي هو ...

رأتني حتى صرخت بلهجه غاضبة :

– ارجع هذه الوسائد وباقي الاشياء إلى مكانها لقد قلت لك الف مرة ان لا تتدخل بما لا يعنيك .. وذلك الشيطان العجوز ماذا جرى له حتى فقد عقله بهذا الشكل الوحشي ؟

وفجأة تغضن وجهها وندت عنها صرخة خافتة ونادتني وقد اكبت رأسها :

– انظر هنا ما الذي يؤلمني بهذا الشكل ؟

فرفعت شعرها الكث مفتشاً حتى عثرت على دبوس قد غرز في فروة رأسها ، ثم وجدت دبوساً آخر .. وهنا احسست بالكلل يرهق جسدي فقلت :

– ينبغي ان انادي والدتي ، انني خائف !

فصرخت ملوحة بيدها :

– ماذا تقول ؟ انادي والدتي ؟ شكراً لله على انها لم ترَ ذلك او تسمعه ، وانت تود مناداتها ! امض من هنا !

وشرعت تبحث بأصابع ماهرة عن الدبابيس الغارزة في شعرها الكث البديع ، وجمعت قواي وساعدتها على سحب دبوسين آخرين من جسدها .

– هل يؤلمك ذلك ؟

– قليلاً ! سأغتسل غدا ويزول الالم كله .

ثم شرعت في تغنيجي متملقة اياي بحنان :

– بيد اياك ان تعلم امك بما حدث لي ، ايها الكتكوت الصغير . يكفيها ما يجري بينهما . انك لن تخبرها اليس كذلك ؟

– كلا !

– يجب ان لا تنسى وعدك والآن ، لنصلح سوية كل شيء .. هل تشاهد

الذي في وجهي ؟ لا . حسناً ! ان ما جرى سيبقى سراً بيننا .
وشرعت تمسح الارض . فقلت لها من صميم فؤادي :
ـ انت قديسة ، يضربونك ويعذبونك ولا تعيري اليهم بالاً .
ـ ما هذه السخرية؟ قديسة ! يا له من مكان عظيم للبحث فيه عن قديسة !

كانت المرة الاولى التي يقسو فيها جدي لهذه الدرجة على جدتي ، على الاقل في حضوري .. فرحت ابحث عن طريقة للانتقام منه على فعلته هذه .
وبعد مضي يومين ، ولجت غرفته في الطابق العلوي ، فوجدته متربعاً على الارض وقد اكب على صندوق مفتوح يعبث ببعض الاوراق . وعلى كرسي بالقرب منه قد وضع التقويم الكنسي المؤلف من اثنتي عشرة رقعة وقد قسمت الى مربعات بعدد ايام الشهر وقد كان جدي يحرص عليه كثيراً ويقدره ولا يسمح لي بمشاهدته الا نادراً عندما يكون راضياً عليّ ..

وفي تلك اللحظة قررت ان امزق هذا التقويم ، فلبثت اترقب الفرصة السانحة حتى اذا مضى جدي الى النافذة ليقرأ ورقة تزينها عـــدة رسوم ، اسرعت واختطفت عدة ورقات من ذلك التقويم ، ثم عدوت حتى المطبخ حيث اخذت المقص وقبعت في السقيفة اقص رؤوس القديسين . ولم اكد ازيل اول صف منهم حتى صعب عليّ قصهم على هذا النحو ، فأخذت اقص الورق على موازاة الخطوط التي تفصلها الى مربعات . وما ان انتهيت من قص السطر الثاني حتى بان جدي على عتبة الباب وقال :

ـ من سمح لك ان تأخذ التقويم ؟
وعلى حين غرة ، ابصر بالمربعات الصغيرة المتناثرة على الارض فاختطفها وتأملها طويلاً ، ثم القى بها وتناول غيرها حتى اذا فهم ما جرى اضطرب جسده وتوالى تنفسه مسرعاً فرمى الاوراق في الفضاء .
واخيراً صرخ ، وهو يشدني من قدمي عن الموقد :

– ماذا فعلت ايها الشيطان ؟

بيد انني افلت منه ، وقفزت منطلقاً وارتميت بين ذراعي جدتي .. فصرخ وهو يكيل لنا الضربات :

ـ سأقتله .

وبدت أمي فجأة،فوجدت نفسي في الزاوية وقد وقفت امامي تحميني .

صرخت وهي تحاول ان تصد اللكمات المنهالة من قبضة جدي :

– كفى يا ابتاه ! ارجع الى صوابك !

فتهاوى جدي على نفسه قرب النافذة وهو ينتحب :

– لقد قتلتموني ، كلكم ضدي !

فأتى صوت امي الهزيل :

ـ الا تخجل من نفسك ؟ انت تسخر من الجميع بتمثيلك .

فشرع يصرخ ويرفس الارض بقدميه ، وقد اغمض عينيه بقوة، ونفث لحيته بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لي فعلاً انه خجل مما يؤتيــه امام والدتي ، وهذا ما دفعه الى اغماض عينيه ..

قالت أمي وهي تجمع الاوراق المبعثرة :

ـ سألصق لك هذه الصور على قطعة من القماش.. فتغدو اكثر متانة وأجمل مما كانت عليه. تأمل هذا التقويم لقد اهترأ ولم يعد صالحــاً .

كانت تكلمه بنفس اللهجة التي تحدثني بها اثناء الدرس عندما يصعب عليّ فهمها . وفجأة نهض جدى ، واصلح من هندامه ، ثم سعل وقال :

ـ يجب عليك ان تلصقي هذه الاوراق اليوم وسآتيك بالبقية الباقية .

واتجه نحو الباب . بيد انه ما ان بلغ العتبة حتى استدار وقال ، هــازاً اصبعه المعوج وهو يشير إليّ :

– اما هو فيجب ان اجلده !

فوافقت والدتي :
– اجل لا شك في ذلك .
ثم سألتني وهي تحنو عليّ .
– لماذا فعلت ذلك ؟
– لقد تعمدت ذلك . وان هو ضرب جدتي مرة اخرى لأنزعن له لحيته .

فهزت جدتي رأسها ، وهي تنزع قميصها الممزق ..
قالت ، وهي تبصق محتدة :
– كان ينبغي ان تربط لسانك عن الكلام كما وعدت . يجب ان يلسع هـذا اللسان حتى يكف عن الثرثرة .
فتأملتها امي ، ثم التفتت اليّ قائلة :
– متى ضربها ؟
– ألا تخجلين يا فارفارا ، ان تطرحي مثل هذه الاسئلة على طفـل صغير ؟ ذلك ليس من شأنك !

فصرخت امي ، وهي تعانقها بلهفة :
– آه ، اماه ، ايها الانسان المبارك !
– آه ، يا لها من ام عظيمة بالنسبة اليك ! هيا ، اتركيني امضي ..
وتطلعت الواحدة منهما الى الاخرى بسكون لحظة ، ثم ذهبت كل منهما في سبيلها .. وكنت ارهف السمع الى جدي يدب في الممشى في غـــدو ورواح لا ينتهيان ..

* * *

لقد ارتبطت امي منذ اليوم الاول لمجيئها ، باواصر الصداقـــة مع إمرأة الضابط اللطيفة ، واخذت تزورها كل مساء تقريباً . وهناك كانت تجتمع ببعض افراد آل بيتلنغ ، جماعة من السيدات الجميلات ، وشلة من الضباط الشجعان .

بيد ان ذلك لم يعجب جدي ، فكان وقت العشـــاء يلوح بملعقته باتجاههم ، ويغمغم :

ــ انهم يقيمون حفلة اخرى ، لعنة الله عليهم ! فهذه الليلة لن اجد سبيــلا للنوم .

وسرعان ما طلب من الجيران إخلاء مسكنهم، وبعد رحيلهم اتى باثاث بال وزعه مكانهم ، فكان يقول :

ــ لسنا بحاجة بعد اليوم الى اولئك المستأجرين ، وسأستقبـــل منذ اليوم الضيوف بنفسي.

ومع قدوم نهار الاحد شرع الزوار يتوافدون علينـــا . ومن بينهم اخت جدي، ماتريونا إيفانوفنا ، كان برفقتها ولداها: فاسيلي . وهو رسام شاب ، حلو المعشر ، رقيق القلب ، طويل الشعر . وفيكتور ، كبير الرأس وقد غطت بقع النمش وجهه الضيق . وما ان بلغ الممر ، حتى أخذ في نزع معطفه ، واخـــذ يبلغ اذني صفيره وترنيمه بهذه الكلمات :

ــ أندريه ، با با .. أندريه ، با با ..

فدهشت لذلك وارتعبت في الوقت نفسه ..

واتى الخال ياكوف يحمل قيثارته ، برفقة ساعـاتي اصلع الرأس ، اعور ، يلبس معطفاً طويلا اسود يضفي عليه مسحة الرهبنة . وكان يقبع في الزاوية مبتسماً .. قليل الكلام ، يردد دائماً نفس الجملة :

ــ ارجوك لا تجهد نفسك ، فالامر سيّان ..

وعندما تأملته للنظرة الاولى تذكرت فجأة الزمان الغـــابر (وكنا لم نزل نقطن في شارع نوفايا) عندما تناهت اليّ اصوات الطبول وهي تقرع منذرة بالشر والويل في الطرقات العامة. وشاهدت كذلك عربات سوداء مرتفعة ،وقد التف الجنود حولها ، تتحرك من السجن باتجاه الساحة العامة ، وقد قبع فيهـا

رجل تحجب رأسه قبعة مستديرة وقد وضعت السلاسل الحديدية في يديه ترن كلما تحرك في مكانه . وكانت تتدلى من عنقه لوحة سوداء ، قد كتب عليها شيء ما باحرف بيضاء كبيرة ، انكبب رأس الرجل عليها كأنه يقرأ ما فيها ..

– هذا هو ولدي !

تلفظت امي بذلك وهي تقدمني إلى الساعاتي ، بيد انني عدت الى الوراء مذعوراً . وقد عقدت يدي وراء ظهري .. فأجاب هذا الاخير ، وقد انشدق فمه حتى اذنه اليمنى بطريقة مخيفة :

– ارجوك ، لا تجهدي نفسك ...

وتشبث فيّ من حزامي ، وشدني اليه وبرمني امامه بحركة ماهرة . ثم قال وقد تركني :

– ان صحته جيدة انه لفتى قوي !

واتخذت مكاني في مقعد يتسع للنوم ، وكان جدي يعتز ان ذلك المقعد كان يخص الامير جروزينسكي فيما سلف من الايام ، وشرعت اراقب من تلك الزاوية كيف يحاول الكبار ان يلهوا وكيف كانت تعابير وجه الساعاتي تتغير من غير توقف ، الامر الذي اثار دهشتي وارتيابي ..

وتناول الضيوف الشاي الذي مزج بالروم ، واحتسوا الشراب الذي تهيؤه جدتي .. واكلوا الكثير من معجناتها المشوية التي تغمرهـــا « القشطة » .. يشكرون جدتي على كرمها وما ان انتهوا حتى تهالكوا بتراخٍ في مقاعدهم وقد توردت وجوههم وزهت الوانها ، بينما يغرق خالي ياكوف في اغانيه الشجيـــة بصوته القبيح ..

كان جدي مشغولاً في محادثة هامسة مع الساعاتي ، وهو يعد على اصابعه .. وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحية امي ، ويهز رأسه . بينما تغرق اسارير وجهه في اضطراب بادٍ خبيث . اما والدتي فكانت جالسة بـــين الاخوين

سيرجييف كعادتها ، تتكلم بصوت هامس رزين الى فاسيلي الذي كان يتنهد ويقول :

ـ آه ! ينبغي ان افكر في ذلك !

فيبتسم فيكتور ابتسامة خبيثة ويجر قدميه على ارض الغرفة ، ثم يشرع في الانشاد فجأة بصوت حاد :

ـ اندريه ، با با ... اندريه ، با با ...

فيتوقف الجميع عن الكلام ، ويرنون بابصارهم إليه ...

قالت امه باعلاء :

ـ لقد حفظ ذلك عن « المسرح » إنهم ينشدون هكذا في المسرح .

امضينا ليلتين او ثلاثاً من هذه الامسيات... وما زلت اذكر كم كنت احس بالملل والارهاق في هذه الامسيات . ثم أتى ذلك الساعاتي ، عند ظهيرة يوم احد ، بعد القداس الاخير تواً . وكنت قابعاً في غرفة والدتي اساعدها في نزع اللآلىء من ثوب بالٍ عتيق . حين فتح الباب على مصراعيه ، وبان وجه جدتي المضطرب فترة قصيرة كانت تهمس اثناءها :

ـ فارفارا ، لقد اتى !

فلم تتفاجىء امي لذلك ، ولم تنتفض لها عضلة ، ثم فتح الباب ثانية وولج الغرفة جدي وهو يهتف بوقار زائد :

ـ إرتدي ثيابك وتعالي ، يا فارفارا !

فسألت والدتي من غير ان تتطلع الية أو تقف :

ـ إلى اين ؟

ـ تعالي يباركك الله ، وكفى جدالاً . انه رجل نزيه ، ماهر في عمله ، وسيصبح اباً طيباً لألكسي .

كان جدي يتكلم باهتمام لم اعهده به ، وهو ينقر على وركيه بيده من غير

انقطاع .. بينما اخذ مرفقاه يرتعشان . كأن يديه تودان الامتداد إلى الامام ، وهو يحاول منعهما من ذلك .. قالت امي بهدوء :

– لقد سبق وقلت لك ان ذلك لن يتم .

فدنى جدي اليها ، وهو يمد ذراعيه إلى الامام كرجل متسول ، وصـــاح بصوت جهوري ، مرتعشاً من قمة رأسه حتى اخمص قدميه :

– تعالي ، وإلا جررتك جراً من رأسك !

– ستجرُّني ؟

طرحت امي هذا السؤال وهي تنهض مقطبة الوجه ، وقد غاصت عيناها في وجهها وفيها وعيد مخيف .. وبسرعت نزعة عنها المعطف ، ثم تنوُرتهـــا .

قالت ، وليس غير القميص يستر جسدها .

– حسناً ، جرني إذن !

فصر على اسنانه هازاً قبضته ، وصرخ :

– إلبسي ثيابك ، يا فارفارا !

فدفعته امي، واسرعت نحو الباب وصاحت :

– حسناً ، هيا بنا ! ...

همس من رأس شفتيه :

– سألعنك .

– لست خائفة .. والآن ؟

وفتحت الباب . بيد ان جدي تشبث بها من طرف قميصها وتهـــاوى على ركبتيه منتحباً ، وهو يقول بصوت خافت لا يكاد يسمع :

– ستهلكين، يا فارفارا ! اينتها الشقية الماكرة لا تجلبي علينا العار..

وبعث بأنين مؤلم ، كأن الالم يعتصر قلبه :

– اماه ! اماه !

اثناء ذلك كانت جدتي قد سدت الطريق على امي واخذت تدفعهـــا الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة وهي تهمس :

ـ ايتها الحمقاء فاركا ! عودي ، يا قليلة الحياء !

وعندما امست امي في وسط الحجرة ، اغلقت جدتي البـاب بالمزلاج ، ثم التفتت نحو جدي واقامته عن الارض بيد واحدة هازة اليد الاخرى في وجهه منـذرة :

ــ انت ايها الشيطان الهرم ، ايها المخلوق الاعوج !

واسندته على صرة من الثياب ، وهو حاني الرأس، فاغر الفم هاتفة بوالدتي :

ــ ارتدى ثيابك ، يا فاركا !

فقالت امي ، وهي تتناول ثيابها عن الارض :

ــ اني غير ذاهبة اليه ، أتسمعان ؟

ودفعتني جدتي قائلة :

ــ امض وآت بوعاء من الماء ... هيا اسرع !

كانت تتكلم هامسة ، لكن بلهجة الآمر ... عدوت نحو الممر انفذ طلبها ، ومن هناك ارهفت السمع إلى احدهم يسير ببطء ذهاباً وإياباً ، بخطوات ثقيلة في الحجرة المقابلة . بينما بلغني صوت أمي تصيح في غرفتها .

ــ سأرحل غداً !

تابعت الى المطبخ ، حيث جلست الى النافذة كالحالم . كان جدي يتأوه ويئن وجدتي تدمدم بشيء ما في نفسها . واغلق باب بشدة ، ثم نشر الصمت وشاحه من جديد .. وفجأة تذكرت الغاية التي اتيت من اجلها ، فملأت وعـــاء بالماء ومضيت الى الممر حيث شاهدت الساعاتي يسير حاني الرأس ويدغدغ قبعتـــه المصنوعة من الفرو ، ويتفوه بكلمات جافة ... وكانت جدتي تخب في أثره ، مصالبة ذراعيها على صدرها ، وهي تنحني له من غـــير أن يشاهدها ، تقول

هامسة :

– انت تعلم ذلك جيداً ، فالحب امر لا يجبر عليه احد ! . .

وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم مضى الى الساحة ، ووقفت جدتي هناك ، وهي ترسم اشارة الصليب يرتجف كل عضو فيها ... تُرى هل ترتجف من الضحك أم البكاء ؟ لست ادري ! لانني في تلك اللحظة لم استطع ان اغوص في اعماقها ...

انطلقت اليها سائلاً :

– ماذا جرى لك ؟

فانتشلت الوعاء من يدي بشدة ، حتى اسالت بعض الماء على قدمي ، وقالت :

– من اين ذهبت لاحضار الماء ؟ اقفل الباب !

وقفلت عائدة الى غرفة والدتي ، بينما ذهبت انا الى المطبخ ، ومن هناك اخذت استمع الى تأوهاتها وتنهداتها المستمرة من غير توقف ...

كان الجو رائعاً ، والشمس ترسل اشعتها الذهبية التي تخترق زجاج النافذة . وكانت المائدة قد أعدت للغداء ، فانعكست اشعة الشمس في الصحون النحاسية وفي الوسط تربعت زجاجتان من الشراب .. وشدت الطيور الحبيسة في اقفاصها وتغنت باشعة الشمس ، المتسلقة على حفاف النافذة .. بيد ان هذا الشدو وهذه الروعة المتألقة في وضح النهار ، لم يبعثا فيَّ شيئاً من الغبطة أبداً . كان الهم يفيض في قلبي . فاعزف عن التمتع بجمال ذلك النهار البديع وعن أي شيء آخر في الحياة . واحسست بشيء يشدني الى إطلاق سراح الطيور لكي تنعم بالحرية والانطلاق . وما ان وضعت يدي على الاقفاص حتى تناهى الى أسماعي صوت جدتي في المطبخ وهي تصيح . وتلطم خديها وتصرخ وهي تعدو الى الموقد :

ـ لعنكم الله جميعاً . واخذكم الشيطان ! آه . يا لك من عجوز بلهاء ، يا أكولينا !

واخرجت من الفرن فطيرة كبيرة . ونقرتها باصابعها على القشرة المحترقة . ثم بصقت على الارض :

ـ لقد احترقت حتى اصبحت رماداً ! وقد اردت تسخينها ! تفو ، ايها الشياطين هلا ذهبتم جميعاً !

وأخذت تنتحب وهي تقلب الفطيرة من جهة الى اخرى ، وتدس القشرة المحترقة . وتبلُّها بدموعها السخية ...

وولج جدي ووالدتي الى المطبخ . فالقت جدتي بتلك الفطيرة المشوهة على الطاولة ، فتراقصت الصحون وعلا ضجيج صاخب ...

ـ هل رأيتما ما جرى . كل ذلك بسببكما . اخذكما الشيطان !

فالقت امي بنفسها عليها،واخذت تعانقها بعد ان استعادت مرحهاوهدوءها ورجتها ان تنسى ما جرى ... بينما اخذ جدي يتطلع حوله منهكاً متغضن الوجه ، وهو ياخذ مكانه الى المائدة ويربط منديله حول عنقة ، ويتامل مشمئزاً بعينين منتفختين من الشمس ويدمدم :

ـ حسناً لننس ذلك . فقد اكلنا من قبل فطائر لذيذة . إن الله مقتر بعض الشيء، مقابل دقائق من السعادة ياخذسنوات من الشقاء ولا يعترف بالفائدة .. اجلسي يا فاركا ... وانسي ما جرى !

كان يبدو كأن مساً من الهوس قد انتابه ... بقي يتكلم طوال الغداء عن الله ، وعن آهاب « الكافر » وعن المصائب الشداد التي يتحملها الأب.فقاطعته جدتي محتدة :

ـ هيا تناول طعامك . ولا تتكلم كثيراً !

فضحكت امي وعلت البسمة محياها ..

واخذت تربت على كتفي وهي تسالني :

ـ حسناً . هل آسفت كثيراً على ما وقع منذ لحظة ؟

ـ كلا لم آسف ! بيد انني احس الآن بالضيق والقلق . ولا استطيع إدراك ما وقع ...

لقد اطالوا في جلستهم الى طاولة الطعام . كما جرت العادة أيام الآحاد والأعياد ، حتى شعرت بالملل يضنيني ... ولم استطع ان اتصور ان هؤلاء الجماعة هم أنفسهم الذين كانوا لساعة مضت يصرخون في وجوه بعضهم يستشيطون غضباً . وهم على ستعداد للقتال في أي لحظة ... ولم استطع أن أصدق انهم كانوا يذهبون الى حد الفعل الجدي في اقوالهم وان كلفهم ذلك بعض التعب ... لقد اصبحت معتاداً على صراخهم ، ونحيبهم ، وذلك الشجار الذي لا يفتأ أن يتكرر ، كي يعود فيختفي بسرعة فائقة ، حتى اصبحت غير مبال بما يحدث ويقع لهم .

لقد فهمت بعد فترة طويلة ، ان الروسيين الذين اجبرتهم الحياة على العيش فقراء كانوا يبحثون عن شيء يتلهون به حتى وان كان الحزن بعينه ، فيلهون به كالأطفال ، ولا يشعرون بالخجل من بلائهم إلاّ فيما ندر ...

وعندما تكون الحياة رتيبة ، يصبح الألم نفسه عيداً يرحب بـه ، حتى ان الحريق يصبح تسُلية لذيذة . حتى ان الجراح البسيطة ، في الوجه الخالي من أي معنى يمسي زينة جميلة رائعة ...

١١

بعد ذلك الحادث ، أمست أمي قوية ، وعمـــاداً للبيت كله ، بينما استسلم جدي الى صمت عميق ، وتواضع زائد ، حتى غـــدا غير ذلك الشخص الذي اعهده ...

كان يقبع طوال النهـــار في الطابق العلوي يطالع كتابـــاً غامضاً يدعى « مذكرات ابي » . ولم يعد يترك البيت مطلقاً ... كان يحتفظ بذلك الكتاب في صندوقه الضخم .. وكثيراً ما شاهدته يغسل يديه قبل تناوله من موضعه . كان الكتاب من القياس الصغير الحجم ذا سماكة كبيرة ، وكان غلافه من الجلد اصفر اللون ، وقد دون على صفحته الزرقاء الاولى هذه العبارة بحبر شاحب اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشرين مع اخلص التحيات وأصدق الشكر ... » وكان يذيل هذه العبارة اسم غريب ينتهي بصورة جميلة تمثل عصفوراً يطير ... كان جدي يبذل عناية فائقة وهو يقلب الغلاف الجلدي السميك ، ويلبس نظارتيـه الفضيتين ، ويتطلع مدة طويلة الى تلك العبارة ، وهو يلامس انفه محاولاً مـــن إصلاح وضع نظارتيه . وقد سألته عدة مرات عن ماهية ذلك الكتاب . كان يجيب بشكل مثير :

— ليس من داعٍ لك لمعرفته الآن . تمهل قليلاً ، وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطفي كذلك .

وغدا يقتضب في حديثه مع والدتي ، ولا يحادثها الا بصوت عذب لطيف ، ويرهف السمع اذا ما تحدثت إليه ، وهو يدمدم بصوت مبهم مشيراً بيده ، غامزاً بعينيه كما كان يفعل العم بيوتر تماماً ..

كانت صناديقه تعج بالثياب الغريبة : قمصان حريرية مزركشة ، واثواب من البروكار طويلة من غير اكام قد طرزت بالفضة ، وصدار من الفرو والساتان، وقبعات مزدانة باللؤلؤ ، وعقود من الاحجار الكريمة مختـلفة الالوان . وكان يحمل ذلك الصندوق الى حجرة والدتي ، ويلقي به على الطاولة ويقول ، عندما يشاهد اندهاش والدتي بالحلى :

ـ لقد كانت الثياب اثمن واجمل في ايام صباي منها اليوم ! اما الناس فكانوا يعيشون ببساطة متناهية ويسودهم الحب والوئام اكثر منهم في هـــذه الايام . واعتقد ان ذلك الزمن ولى الى غير رجعة ، فجربي هذه الاشياء ، وانتقي ما يعجبك منها ..

وذات مرة ، نزلت امي عند رغبته ، وذهبت الى الغرفة المجاورة وارتدت ثوباً طويلا ضارباً الى السواد ، وقد زخرف بخيوط من الذهب ، واعتمرت غطاء مزيناً باللآ لىء .. قالت وهي تنحني لجدي :

ـ ايعجبك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فاشرق وجه جدي وهو يلهث، واخذ يدور حولها هازاً بذراعيه ، يدمدم بارتباك كمن يحلم :

ـ آه ، فارفارا ! لو كنت غنية ، وكان هناك اناس اشراف فيما حولنا !

كانت والدتي تشغل غرفتين اماميتين في المنزل ، حيث انها كانت تستقبل العديد من الزوّار . وكان اكثر الزوار تردداً علينا الاخوان مكسيموف . كان احدهما يدعى بيوتر ، ضابط قوي البنية ، بهي الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء وعينين زرقاوين ، وقد جلدني جدي مرة بحضوره يوم بصقت على رأس ذلك الاصلع . اما الآخر فيدعى يفجيني، شاب طويل القامة فارغها ، شاحب الوجه

وله ساقين طويلتين ، ولحية سوداء ، وكان دائماً يرتدي بذلة خضراء ذهبية الازرار،ومن عادته ان يلقي بشعره الطويل من فوق جبهته العالية الى الوراء ، وهو يبتسم بتواضع مكشوف،ثم يأخذ يروي حديثاً مابصوت خافت «مبحوح» يفتتحه دائماً بهذه العبارة :

ــ أنت ترين ، يخيل إليّ ان ..

فترهف والدتي سمعها الى حديثه ، وقد اغلقت عينيها نصف اغلاقة،وكانت غالباً ما تقاطعه ضاحكة :

ــ انت ما زلت طفلا يا يفجيني فاسيليفيتش ، وارجو ان تغفر لي قولي هذا ..

فيثني الضابط على قولها ، ضارباً على ركبته زيادة في التأكيد :

ــ اجل ! طفل ! إنه لكذلك !

انقضت عطلة الميلاد في حفل صاخب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل ليلة وقد تزيوا بازهى الثياب ، كانت ثياب امي اجملها ، ثم ينطلقون من الدار للقيام ببعض الزيارات ..

كان المنزل ، كلما تدافع ذلك الجمع النشوان من البوابة ، يبدو كأنة يغوص في الارض، ويسبح في لجة من الكآبة والسأمة . ويغرق في صمت عميق خانق .. وبعدها كانت جدتي تجوب الغرف معيدة كل شيء الى سابق ترتيبه ، بينما يقبع جدي مديراً ظهره الى قرميد الموقد يتدفأ وهو يدمدم بينه وبين نفسه :

ــ حسناً ، سنرى إلامَ ستقودها هذه الطريق التي تسلكها الآن .

وما ان انتهت فترة عيد الميلاد حتى قادتني والدتي مع ساشا ، ابن الخال ميخائيل إلى المدرسة .. وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، وما ان مضى على زواجه عدة ايام حتى اخذ ساشا ينال عذاباً مراً من خالته التي كرهته بسرعة فائقة ، ونزولاً عند رغبة جدتي ، اقترح جدي ان يتكفل بتربيته . وداومنا مدة شهر واحد على حضور الدروس . ولست اذكر ، من كل ما تلقنته

خلال تلك الفترة ، إلا شيئاً واحداً ، وهو انه لا يكفي عندما اسأل عن اسمي ان اجيب « بشكوف » .. بل ينبغي أن اقول : « إسمي هو بشكوف » .

وكذلك انني لا استطيع ان اخاطب المعلم هكذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا النحو ، يا استاذ . فانا لا ارهبك ! .. »

وسرعان ما كرهت المدرسة .. بينما ازداد بها ابن خالي شغفا، ورافق عدداً لا بأس به من الطلاب . بيد انه ذات يوم غفا اثناء الدرس وشرع يصرخ في نومه : « كلا ! لا أر ..يد » .. وعندما استيقظ استأذن بمغادرة الصف ، بيد ان الطلاب قد هزأوا منه بقسوة .. ونحن في طريقنا الى المدرسة صباح اليوم التالي توقف عن المسير ، بعد ان تجاوزنا ساحة سينايا ، وقال لي :

ــ ستكمل الطريق من دوني ، فانني لست بذاهب هذا اليوم إلى المدرسة ، انني افضل القيام بنزهة ..

وجلس القرفصاء ، ووارى كتبه في الثلج ، وانطلق .. كنا في كانون الثاني والشمس مشرقة ، وقد التمعت الارض بما اضفت عليها اشعتها وضياؤها .. وانتابني شعور بالغيرة من ابن خالي ، بيد انني صررت على اسناني واكملت طريقي باتجاه المدرسة حباً بأمي .. وكان ان سرقت كتب ساشا المدفونة في الثلج ، فاتخذها ذريعة لعدم ذهابه الى المدرسة في اليوم التالي .. وفي اليوم الثالث ، اكتشف جدي تصرفات ساشا وسلوكه الغريب .

وقُدِّم كلانا للتحقيق : فقد جلس جدي وجدتي وامي خلف الطاولة في المطبخ يتولون التحقيق . وما زلت اذكر ، حتى الآن ، اجوبة ساشا السخيفة على اسئلة جدي :

ــ لماذا تمنعت عن الذهاب إلى المدرسة ؟

ــ لقد نسيت مكانها .

ــ نسيت؟

ـ اجل ، وبقيت ابحث عنها وقتاً طويلا ..
ـ كان ينبغي ان ترافق الكسي . فهو يعرف الطريق .
ـ لقد افتقدتُ الكسي .
ـ افتقدتَ الكسي ؟
ـ أجل .

ـ وكيف يعقل ذلك ؟
غرق ساشا لحظة في التفكير ، ثم قال متنهداً :
ـ لقد حدثت عاصفة ثلجية فلم اعد اقدر على رؤية شيء مطلقاً .
فقهقه الجميع . لان الطقس كان بديعاً صافياً مشمساً ذلك اليوم . حتى ان ساشا لم يستطع ان يحجب عن ثغره ابتسامة خفيفة . بيد ان جـــدي صرّ على أسنانه وقال بمكر :

ـ الم تستطع الامساك بيده أو حزامه ؟
ـ لقد فعلت ، بيد ان الرياح عصفت بي وافتقدتني اياه ..
كان يتكلم بلهجة فاقد الامل . فكرهت ذلك الكذب الذي لا فائدة منه ، ولم أستطع أن أفهم معنىً لعناده .

وبعد ان اخذنا نصيبنا من الجلد ، استأجروا لنا أحد عمال المطافىء ، وهو شيخ ذو ساعدين ملتويتين ، ليرافقنا الى المدرسة . وقد اوكلت اليه مهمــة مرافقتنــا إلى المدرسة والحذر من ان يضلّ ساشا الطريق او يحيد عنها . لكن عبثاً ، فما ان بلغ خندق الساحة في اليوم التالي حتى نزع ابن خالي احد حذائيه والقى به عن يساره . ثم نزع الحذاء الثــاني والقى به عن يمينه ، واخذ يخب في الساحة بجوربيه .. وعدا الشيخ محاولاً جمع الحذاءين ، ثم قفل عائداً بي إلى الدار وقد ارتجفت منه الاوصال وبدا الرعب عليه ..
بقيت جدتي وامي . طوال ذلك النهار ، تبحثان في البلدة عن الهارب حتى

عثرنا عليه . قبيل المساء . في حانة شيركوف بالقرب من الدير ، يسرّي عن الجمهور برقصاته .. ورجعنا به إلى الدار . بيد انهما لم ينزلا به عقاباً لشدة القلق والاضطراب اللذين اثارهما فيهما صمته العنيد . وتمدد بالقرب مني في السقيفة . يضرب بقدمه الفضاء وهو يقول بهدوء :

– خالتي لا تحبني . وجدي كذلك ، فلما بقائي هنا ؟ سأتعرف إلى مكان اللصوص من جدتي ، واهرب اليهم .. وعندئذٍ ستعلمون كل شيء .. لنفرْ معاً ، ما رأيك ؟

كان الهرب بالنسبة اليّ مستحيلاً ، فقد كنت ارمي هدفاً في ذلك الحين ، وارنو إلى غاية اخرى في الحياة . وهي ان اصبح ضابطاً ذا لحية كبيرة شقراء . الامر الذي يجبرني على متابعة دروسي ، والمواظبة على المدرسة . وعندما شرحت لابن خالي المشروع ، غرق في تأمل عميق ، ثم اجاب وقد رأى فكرتي عين الصواب :

– حسناً ! فعندما تصبح ضابطاً اكون انا قد اصبحت زعيماً للصوص ، وينبغي عليك ان تمسك بي .. وسيضطر احدنا إلى قتل الآخر . او اخذه اسيراً ، وانا لن اقتلك مطلقاً مهما كلف الامر ..

– ولا انا كذلك .

وعلى هذا تم قرارنا .

* * *

في الغداة عندما استيقظت وجدت جسمي قد امتلأ لطخاً حمراء صغيرة .. إنه الجدري ! ..

نقلت إلى غرفة في الطابق العلوي منفردة ، حيث قبعت هناك زمناً طويلا مضطجعاً في سرير وقد قيدت اليه ذراعاي وساقاي بربطات عريضة ، لا اعي ما يجري حولي ، وكانت جدتي الانسان الوحيد الذي يعودني ، تناولني الطعام

بالملعقة كأنني طفل صغير . وتحكي لي أقاصيص وخرافات لا تنضب .. وذات يوم ، وقد تحسنت حالتي وامسيت في طريق الشفاء ، فقـــد فكت اللفائف والرباطات عن ساقي وذراعي ، وان بقيت اكمام سترتي مربوطة بشكل يمنعني من حك وجهي باصابعي ، تأخرت جدتي عن زيارتي كعادتها ، فتضايقت لذلك وتصورت أشياء عدة .. وفجأة تصورتها ممددة على ارض الحجرة التي يملاهـــا الغبار . وقد دس رأسها في التراب ، وتباعد ذراعاها . وحز عنقها من الوريد إلى الوريد تقريباً كعنق العم بيوتر ، وعيناها الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريهما من غير توقف .

قفزت من السرير ، وهشمت زجاج النافذة بقدمي وكتفي. ورميت بنفسي على الثلج تحت النافذة .. في ذلك المساء كانت امي تستقبـل بعض الزوار ، مما حجب عن اسماع أي إنسان صوت تحطيم الزجاج .. وبقيت مدة طويلة ممدداً على الثلج من غير ان يعلم احد بأمري ، ولم يكسر أي عظم ، وان وهن عظم كتفي ، في حين نالني الزجاج في مواضع كثيرة من جسدي بجروح . كما اصبحت عاجزاً عن تحريك ساقي ، بقيت على اثر هذا الحادث مضطجعـاً في غرفتي مدة ثلاثة اشهر من غير ان آتي حركة . أرهف السمع إلى اصطخاب الحياة في الدار ، وإلى صوت الابواب تصطفق من غير انقطاع ، وغدو الناس ورواحهم .

كانت الرياح تزمجر ، وعواصف الثلج تهب عاتية فوق السطوح ثائرة امـام باب الطابق العلوي ، تعصف بالنوافذ بشدة ، تخترق المدخنة صارخة حزينة . وفي النهار كنت استمع إلى نعيب الغربان ، اما في الليالي الهـــادئة فكانت اصوات الذئاب المرعبة تتناهى الي عبر الحقول البعيدة ، ونفسي تنضح بتلك الموسيقى المرعبة ..

ومن بعدهـــا اتى الربيع ، خجولاً هادئاً ، وطرق نافذتي ببشر وفرح ، واخذت الهر تموء على السور وتلعب ، وانغام ربيعية حلوة تنساب عبر النافذة ،

من تكسير الجليد ، وتدحرج الثلوج على السطوح ، إلى رنـين أجراس العربات التي ازدادت بنزوح الشتاء ..

ولن تتوانى جدتي عن زيارتي لحظة واحدة .. واخذت في المدة الاخيرة تكثر من شرب الفودكا ، حتى انها اخذت في حمل ابريق الشاي معها مخفية اياه تحت سريري ، وهي تحذرني بقولها :

ـ إياك ان تعلم جدك الشيطان بهذا ، ايها العصفور الصغير !

ـ لماذا تشربين الخمرة ؟

ـ صه ، ستعرف ذلك عندما تكبر ..

وبعدها تأخذ جرعة من الابريق . ثم تمسح فمها بكم قميصها ، وتلتفت نحوي مبتسمة :

ـ حسناً ايها الفتى اللطيف ، عمن كنا نتحدث البارحة ؟

ـ عن والدي .

ـ واين توقفنا عن الكلام ؟

وعندما اخبرها ، يأخذ حديثها الموزون ينساب طوال ساعات ..

فقد كانت البادئة في الحديث عن والدي من غير ان اسألها ، فذات يوم كانت منهوكة القوى ، هادئة ، حزينة :

ـ شاهدت في احلامي ليلة البارحة اباك . لقد كان ينبعث من فمه صفير لطيف . وهو يجوب الحقول ، وقد حمل في يده عصاً من شجر الجوز ، يعدو خلفه كلب مفصوم الجسم وقد تدلى لسانه الوردي حتى بلغ الارض .. إن مكسيم سافاتييفيتش ما زال يعودني كثيراً في هذه الايام في أحلامي .وأنا جاهلة سبب ذلك .. أعتقد ان روحه متألمة هائمة ..

وبقيت خلال أسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتحكي لي عنه أقاصيص، تبلغ في اهميتها ، باقي قصصها الاخرى . كان أبي إبناً لجندي ترفع إلى رتبة

ضابط بعد خدمة طويلة ، لكنه بتعسفه لمرؤوسيه نفي إلى سيبيريا . وهناك في مجاهل سيبيريا ولد أبي ، فعاش حياه عسيرة شاقة .. واخذ ، ولم يزل طفلا، في محاولة الهرب من المنزل.. وذات يوم أفلت والده كلبا من كلاب الصيد ،وطفق يبحث عنه في الغابات كأنه أرنب هارب .. وعندما وجده ضربه ضرباً مبرحاً حتى أتى الجيران واختطفوه منه وخبأوه في منزلهم .. فسألت :

— هل يجلدون الصغار دائماً ؟

فأجابت بسكينة :

— دائماً !

ولم يتجاوز أبي التاسعة حتى توفي والده وكانت والدته قد توفيت وهو لم يزل طفلا .. فتبناه عرابه الذي كان يعمل نجاراً ، والحقه بعمله في مدينة برم واخذ يعلمه مهنة النجارة ، بيد ان والدي سرعان ما لاذ بالهرب . شرع في بادىء الامر ، يجر العميان في الطرقات، حتى وفد اخيراً إلى نيجني نوفجوررود، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وأخذ يعمل ، عند متعهد للمراكب يدعى كولشين ، نجـــاراً . وما أن بلغ العشرين حتى أصبح مشهوراً في صنع الغرف الخشبية وتنجيد الفروشات.. وكان المصنع الذي يعمل فيه نجاراً يجاور منزل جدي « والد أمي » في شارع كوفاليكا ..

فقهقهت جدتي وهي تقول :

— سور منخفض ، وساقان رشيقان .. وهكذا فقد كنا،انا وفاريا، نقطف توت العليق في الحديقة . عندمـــا تطلعت إلى السور وشاهدت والدك يقفز من فوقه بشكل أفقدني صوابي . واتى في اتجاهنا يتخايل في مشيته بين أشجـــار التفاح ، فتىً مارداً يرتدي قميصاً ابيض اللون ، وسروالاً مقلماً ، حافي القدمين عاري الرأس ، يربط شعره الطويل إلى الخلف بربطة من الجلد . وماذا تعتقـده اتى يفعل ؟ أتى يطلب يد أمك ! وكنت قد رأيته مرات عدة من قبل يتخطر

تحت النافذة . فأقول في نفسي كلما شاهدته : « ما ابدع هذا الفتى ! » وهكذا يمت نحوه عندما جاءني، وقلت : « لماذا اخطأت السراط المستقيم، يا عزيزي ؟ » . فقال ، وقد ركع على ركبتيه : « اكولينا إيفانوفنا ، هأنذا ، وهـا هي ذي نفسي بكليتها تجثو عند قدميك ، وها هي فاريا ، محبة بالمسيح ، ساعدينـا على الزواج ! » . فعلاً ، فهذا ليس بالامر السهل ! فبغتُ ، ولم اعـد قادرة على الكلام .

« تلفتُ ، فشاهدت أمك الماكرة متوارية خلف شجرة تفاح ، وقد تورد وجهها، وهي تشير بيديها . وقد طفحت عيناها بالدموع . قلت لها : « آه ، ايتها الغبية ! أيها العصفوران ما هذا الذي أتيتماه ؟ هل فقدت إحساسك يا فارفارا ؟ وأنت أيها الشاب ، هل فكرت فيما تفعـل ؟ أفلست ترنو إلى اكثر ما في استطاعتك مناله ؟ » . كان جدك غنياً في تلك الايام ، إذ أن امواله لم تكن قد قسمت بعد بين اولاده ، كان يملك اربعة منازل . وقدراً من المال لا يحصى . وكان أتباعه يكنون له قدراً عظيماً من الاحترام، علاوة على ذلك فقد منحوه ، بزة وقبعة مزخرفتين بالقصب إحتفالاً بالعام التاسع لترأسه المعمل . بيد أنه كان متعجرفاً عظيم الكبرياء ، في تلك الآونة ! وهكذا فقد قلت ما ينبغي قوله ، وكنت مضطربة طوال الوقت ، والحسرة تمزق قلبي أسىً عليها . فقـد بدا اليأس على محياهما قاتلا . وعند ذلك نهض والدك وقال : « انني عالم أن فاسيلي فاسيليفيتش لن يزوجني فاريا بارادته ، لأجل ذلك لا بد لي من أن اخطفهـا إذن ، وها نحن في أمس الحاجة إلى مساعدتك » .. مساعـدتي تصوّر ذلك ! لقد طردته ، ورفعت يدي قاصدة ضربه ، بيد انه لم يتحرك من مكانه . قال : « تستطعين رمي بالحجارة إن أردت ، بيد انه ينبغي أن تساعديني ! فأنا لست براجع عن رأيي ! » وعندئذٍ تقدمت فارفارا نحوه ، واضعة يدهـا على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجاً وامرأة منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار .. وكل

ما نحن بحاجة اليه هو الاكليل فقط » .. عند ذلك تهاويت على الارض كأنني تلقيت ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ..

وتمايل جسد جدتي من الضحك ، ومسحت الدموع من مقلتيها ، واردفت وهي تتنهد بسعادة :

ـ لم تزل صغيراً بعد لتدرك الفرق بين معاشرة رجل وامرأة اعتباطية وبين الزواج . انما يجب ان تعلم أنه امر فضيع ان تلد فتاة من غير زواج . ينبغي ان تتذكر ذلك عندما تصبح شاباً فلا تزجر الفتيات في مثل هـذه الامور ، تلك خطيئة لا تغتفر ، وتصبح مسؤولاً عنها، لانك ستسبب التعاسة والشقاء للفتاة ، ويصبح الطفل من غير اب شرعي ، ينبغي ان لا تنسى ذلك مطلقاً ! ينبغي ان ترحم تلك المرأة ، وان تحبها من كل جوارحك ، ليس لمجرد المتعة . وهـذا درس كبير إياك أن تنساه .

وسرحت لحظة في تأملاتها قبل ان تتمالك نفسها . وتتابع قصتها من جديد :

ـ إذن ماذا ينبغي ان افعله في مثل هذه الحـال ؟ ضربت مكسيم على رأسه وجررت فاريا من جدائلها . بيد ان والدك افضى الي بشيء عظيم على جـانب كبير من الحس السليم ! « ان الضرب لا يصلح المسألة ! » . واضافت والدتك : « ينبغي ان توجدي لنا مخرجاً لهذه المشكلة، ثم تضربيننا» فقلت له : «هل عندك شيء من المال ؟ » . فأجاب : « عندي الشيء القليل منه . بيد انني قـد ابتعت به خاتماً لفاريا » . فسألته : « هل يساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا بل مائة روبل تقريباً » .. وكانت الاشياء في تلك الآونة بخسة جـداً ، المال يكلف غالياً . تأملت والدك ووالدتك وهما يقفان امامي ، انهما صبيان صغيران لا اكثر ، وابلهان كذلك . قالت امك : « لقد دسست الخاتم تحت احد الالواح حتى لا ترينه . والآن نقدر ان نبيعه » . إنهما طفلان ، اليس كذلك ؟ حسناً ، لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان عليّ ان اتفق مع الكاهن على ذلك

آه لكم بكيت آنذاك . وانفطر قلبي وارتجف خوفاً من جدك ، بيد انــــه كان يحب فاريا ويعطف عليها ..

« كان هناك عدو واحد لأبيك ، رجل حقود شرير من رؤساء العمال . بقي مدة طويلة يراقبها فاستطاع تخمين كل شيء. ففي ذات يوم ألبست ابنتي الوحيدة أبهى ما عندي من ثياب ، وانطلقت بها من البوابة . وخلف احد المنعطفات ، كانت ترويكا تنتظر مركبتها ، وبعث مكسيم بصفير خافت من بـين شفتيه .. وها هما يذهبـــان .. رجعت أدراجي إلى المنزل ، وقد انسابت دموعي على خدي .. واذ بذاك الوغد اللئيم يدنو مني بمكر قائلا: « انني رجل طيب القلب، ولا ابغي تهديم سعادتهما .انما اطلب منك اعطائي خمسين روبلا فقط يا اكولينا إيفانوفنا ! » . كنت لا املك شيئاً ، فانا اكره المال ولا ادخر منه شيئــــاً ، وأجبته ببلاهة : « انني لا املك شيئاً من المال ، ولن أعطيك شيئاً ! » فأجاب: « إذن عديني بان تدفعـين لي » . فصرخت : « أعدك ؟ ومن اين آتي بالمال ان وعـــدتك ؟ » . فأجاب : « أيصعب عليك أن تختلسيه من زوج ثري يغص به ؟ » . يا لي من غبية ! كان ينبغي ان اجره إلى نقاش طويل واحتال عليه ، بيد انني بدلاً من ذلك بصقت في وجهه ، ومضيت في حال سبيلي. فتبعني حتى الساحة ، ويا للفضيحة التي أثارها !

واغمضت عينيها ، بينما علت شفتيها ابتسامة شاحبة :

« وحتى هذا اليوم ، انني كلما تذكرت ما تلا ذلك حماقة ولؤم ، ترتعـد فرائصي .. اخذ جدك يهدر كوحش مفترس كاسر . فقد كانت صفعـة بالنسبة إليه . فقد كان يرنو إلى فارفارا ويفتخر بأنه سيزوجها من سيد نبيل ، واليك النبيل الذي انتقته ؟ بيد ان العذراء الطاهرة تعلم اكثر منا من هم الاشخـــاص الذين يفهمون بعضهم بعضـــاً .. وشرع جدك يركض في الساحة وكأن النيران تلتهم جسده . ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والسائس كليم ، ورئيس العمال

اللئيم ، الذي شاهدته يحمل عصاة .. في حين تناول ميخائيل بندقيته .. كانت خيولنا جسورة ، والعربة خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من غير شك ! » .

« بيد ان ملاك فارفارا الحارس الهمني فجأة ، فأخذت سكيناً وحززت به الحبل .. وتوقعت أن ينقطع في الطريق . وهكذا كان .. فقد خارت مقاومة الحبل . وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا إلى التوقف بعض الوقت لاصلاح ما حدث. وما أن بلغوا الكنيسة اخيراً حتى كانت فاريا ومكسيم واقفين أمام بابها ، وقد تم زواجهما .. شكراً لله !

عند ذلك القى رجالنا بانفسهم على مكسيم ، بيد إنه كان مقداماً قوي البنية ، وقلائل من الرجال يتمتعون بالقوة التي يتمتع بها مكسيم .. وهكذا فقد أطاح بمخائيل والقاه أرضاً وأصابه برضوض في ذراعه ، وأتبع كليم به سريعاً ، لذلك وجل منه جدك وياكوف ورئيس العمال، ولم يجدوا الشجاعة الكافية على الدنو منه . وبقي مكسيم متمالكاً أعصابه، على الرغم من آجام غضبه .. فتوجه إلى جدك قائلاً : « الق بهذه العصاة هناك ! فأنا رجل احب السلام ، وما حصلت عليه كان نعمة من الله ، وليس لأي إنسان حق في أخذه مني وهذا هو ما أطلبه منكم ! »

ورجع رجالنا أدراجهم .. جلس جدك مكتئباً وصرخ : « وداعاً يا فارفارا ! فأنت لست إبنتي بعد الآن . وليس لي رغبة في رؤيتك بعد الآن . فسيان عندي رؤيتك حية أم ميتة » وعاد إلى المنزل حيث أمطرني بوابل من السباب والضرب . بيد انني ركنت إلى الصمت ولم أقل اية كلمة .

« كنت أعلم ان كل ذلك يمضي سريعاً ، وان ما ينبغي أن يكون سيكون . قال لي « إسمعي يا أكولينا ، يجب أن تعلمي أن ابنتك ذهبت إلى الابد ، كأنه لم يكن لك ابنة مطلقاً ، أتفهمين ؟ » . أما انا فكنت دائماً أفكر بيني وبين نفسي :

« أيهـا الاحمر الرأس ، إغرق في الكذب ! لا بأس عليك ، إنك الآن في ثو ؟ نفسية من الغضب ، لكن ذلك لن يطول .. فالغضب كالجليد ، لا تلمحه الشمس إلا ويذوي ! .. »

كنت أصغي اليها لاهث الانفاس .. فقد كان في روايتها أشياء عدة تروعني، لان جدي قد روى لي قصة زواج أمي بصورة مختلفة جداً عن روايةجدتي .. لقد عـارض الزواج فعلاً حسب ادعائه ، ولم يسمح لأمي أن تأتي المنزل بعد ذلك ، لكن هذا الزواج كما قال لي ، لم يكن سرياً مطلقاً ، بل حضره بنفسه وترددت وانا احاول إيضاح ذلك من جدتي، لكنني فضلت حكايتها التي كانت اكثر روعة وخيالاً ..

وأخذت تهتز في مقعدها ، وهي تتحدث وتبالغ في تمثيل المشهـــد بحركات مثيرة عندمـــا تبلغ مشهداً محزناً أو مرعباً من حكاياتها .. وفي اغلب الاحيان كانت تغمض عينيها ، ويرتجف حاجباهـا ، بينما تعلو محياها إبتسامة فرحة ، وكنت أرثي لتلك الطريقة الاعتباطية التي تعفو فيها عن كل شيء ..

« لقد بقيت مدة اسبوعين أو ما يزيد لا اعلم شيئاً عن فاريا ومكسيم ومحل إقامتهما. ولكنهما أرسلا إليّ بطفل صغير يعلمني بمكان إقامتهما . وعندما خرجت نهار السبت التالي بحجة الذهـاب إلى الكنيسة لحضور قداس الغروب ، مضيت اليهما بدلاً من الذهاب إلى الكنيسة .. وفي جنـاح صغير من دار سيو تينسكي يقطنه عدد من العمـــال ، كانا يقيمان .. كانت القذارة تملأ الدار ، تعج بالحركة والضوضاء بيد انهما لم يعيرا بالاً لذلك ، وبقيا يلهوان ويمرحان كهرين سعيدين . وابتعت لهما بعض الحوائج من سكر ، وقمح وطحين وشاي وبعض المال سرقته من جدك ، بيد ان والدك أبى أن يأخذه ، وقال شاكياً : « أنحن متسولان ؟». واخذت فارفارا تلحن نفس النغم : « لماذا احضرت هذه الاشياء يا أماه ؟ » . فقلت مغتاظة بلهجة موبخة : « إنني ام بعثها الله إليك أيها الابـــله ! أما انت

ايتها المجنونة فانني امك الحقيقية ! هل سمعت ان شخصاً يستطيع إهانة امه ؟ فاذا اهانها على الارض مرة ، جعل ام الله في السماء تبكي .. » عند ذلك حملني مكسيم بين ذراعيه واخذ يلف بي في ارجاء الغرفة فقد كان قوياً كالوحش ، واخذت فاريا تزهو مفتخرة باعتزاز عن « دراهما » ، وكأنها مربية هرمة ..

« وهكذا جرت الامور مدة طويلة .. حتى اصبحت انت على وشك ان تطل على الوجود ، وجدك لم يزل معتصماً بالصمت انه انسان شرير ، ولم اتوان عن زيارتهما الامر الذي لم يخفَ عنه ، وان تظاهر بالجهل .. بيد انني كنت ادرك ان قلب الاب لن يبقى اصماً .. واتي الوقت المناسب .. كان مساء ليل عاصف ، والرياح تضرب النوافذ وتدوي بوحشية ، وقد كنت الى جانب جدك والنوم لا يراود اجفاننا .. وفجأة نهضت.. وقلت له : « في هذه الليالي العاصفة يرقد الفقراء بتعاسة بينما الاثرياء الذين ترهق الخطيئة ضمائرهم هم اكثر تعاسة » .. ومن غير انتظار قال جدك : « كيف حالهما؟ » فقلت « لا بأس، ليست سيئة ! » . فسألني : « عمن تعتقدين انني اسأل ؟ » . قلت : « عن ابنتنا فارفارا ، ومكسيم ! » . فصرخ : « وكيف اعتقدت ذلك ؟ » . فقلت له : « يكفينا مهزلة ! لقد اتى الوقت الذي يجب ان نكف عن ذلك الهراء فهو لا يجلب السعادة لاحد ! » . فتنهد طويلاً ثم قال : « ما اخبار ذلك الغشيم المجنون ؟ — يقصد والدك — لقد تزوجت بابله ، اليس كذلك ؟ ». قلت له : « ابله ! ان الابله هو الذي لا يعمل ويعيش عالة على الآخرين ، لو القيت نظرة تأملية على ولديك ياكوف وميخائيل لوجدتهما وحدهما الابلهان المجنونان ! من يأتي بالمال والاشياء لهذه الدار ؟ انت وحدك فهل يساعدانك في العمل » . وعند ذلك امطرني بوابل من الشتائم يعلم الله وحده عددها، وبقيت ساكنة حتى قال اخيراً : « كيف خدعت بانسان اجهله ، ولا يدري احد من أين اتى ؟ » . وبقيت لائذة بالصمت حتى تعب من حديثه ، عندئذٍ قلت : « من الافضل ان تذهب وتشاهد بنفسك الحياة التي يعيشانها انها حلوة رائعة ! » . فقال : « ذلك شرف

لا يستحقانه ، فليجيئا هما إلى هنا ! » . وعند ذلك طفقت ابكي من الفرح والغبطة حين تلفظ بذلك ، فيما راح هو يحل ضفائر شعري وهو يدمـــدم :
« كفاك نحيباً ، ايتها العجوز الحمقاء ! اتعتقدين انني بدون قلب ؟ » ..

وهكذا أتيا لزيارتنا، والدك ووالدتك ، في عيد الفصح .. كانا جميلين جداً وانيقين . ووقف مكسيم تجاه جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال له مكسيم : « لاتظن ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ، أنني اتيت مطالباً بالمهر . لا أبداً ! بل اتيت اقدم احتراماتي الحارة لوالد زوجتي فقط » . فاغتبط جدك لذلك ، وقال : « ايها الوحش الكبير ! كفانا هزاراً فقد حان الوقت لتأتي الى دارنا وتقطن معنا » فعقد مكسيم ما بين حاجبيه وقال : «هذا يتعلق بفاريا ، وسأعمل على اسعادها فكل شيء يرضيها يرضيني ».

لقد سكنا في الجناح المطل على الحديقة، وهناك ولدت انت، عند الهجير .. وعندما عاد والدك لتناول طعام الغداء ، واذا بك تطل عليه فكاد يفقد صوابه من السعادة والفرح ! وكاد يقتل والدتك بمداعباته .. ثم حملني على كتفـــه ، وانطـــلق بي عبر الساحة لأخبر جدك بمجيء حفيد آخر له .. فغرق جدك بالضحك ، وقال : « يا لك من شيطان يا مكسيم ؟ » .

« وقد كره خالاك مكسيم كثيراً لأنه كان فطناً ، سليط اللسان ، ماهراً في اكتشاف الإلاعيب والحيل .. وفي يوم عاصف بينما كان مكسيم وخاليك عائدون من بعض الزيارات ، أقنعوا والدك بالذهاب الى بحيرة دوكوف بحجة انهم يودون التزلج هناك ، ولكنهم ما ان بلغوا البحيرة حتى القو به فيها .. » .

— ما الذي يجعل خاليّ شريرين بهذا الشكل ؟

فاجابت جدتي بلهجة صامتة هادئة .

— انهما ليسا بشريرين ، انهما بكل بساطة ابلهان .. لقد القيا به في الحفرة اذن بيد انه طفا على وجه الماء وتمسك باطراف الجليد ، عند ذلك شرعـــا

يدوسان على اصابع يديه بأحذيتهما ومن حسن حظه انه كان صاحياً بينما كانا ثملين .. وبعون الله تدبر امره وبقي في وسط البركة لا يطفو غير رأسه كي يتنفس بينما شرعا هما يرميانه بالجليد من غير ان يصيباه ، واخيراً تركاه ومضيا ظنـاً منهما بأنـــه سيغرق . ونجا اخيراً من البركة وانطلق الى مركز الشرطة وكان رئيسها يعرفه كما يعرف افراد الاسرة جميعاً فسأله عما جرى له .. فلم يخبره بـما حدث فعـلاً بل قال له : « لقد ذهبت الى البحيرة ثملا حيث سقطت هناك من خلال الحفرة » . بيد ان رئيس الشرطة ادرك أنه يكذب فهو يعرف تماماً أنه لا يشرب .. ودلكوا له جسمه بالفودكا هناك في المخفر ودثروه باغطية جافة ثم اتوا به الى المنزل .. ولم يكن ياكوف او ميخائيل قد رجعا بعد الى الدار .. كان ازرق اللون . مهشم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد شاب شعره وغدا ابيض اللون .. فصرخت فارفارا .

ـــ ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟

وشرع رئيس المركز يطرح عليه الاسئلة التي لا تنضب .. بينمـــا رحت احاول ان اعرف منه الحقيقـة بعد ما اوكلت امر المفتش الى فارفارا قال هامساً : « امضي وابحثي عن ياكوف وميخائيل واعلميهما بان يقولا اننا افترقنا عند شارع يامسكايا ، ونبهيهما من ان يخلطا الامور ، والا وقعنا في متاعب مع الشرطة » .

« فمضيت الى جدك واخبرته بالحقيقة فارتدى ثيـابه وهو يرتعد خوفاً .. واتجـــه جدك الى مكسيم وقال له : « شكراً لك يا بني ، لو كان غيرك في مكانك لتصرف بطريقة اخرى . اني ادرك ذلك تماماً . وشكراً لك يا ابنتي اذ اتيتني برجل كهذا الى داري ! » .

« وبقي والدك بعد ذلك مدة ثلاثة اسابيع وهو يهذي ويقول : « لنرحل الى مدينة اخرى ، يا اماه ، انني اكاد اختنق هنا » . وسرعان ما رحل بعد

ذلك الى استراخـــان حيث كانوا ينتظرون زيارة القصير فطلبوا من والدك ان يشيد لهم قوس نصر . واجرا على اول مركب بخاري .. كانت الكآبة تخيم يوم الفراق فقد كان فراقاً اليماً قاسياً بالنسبة الي وحـــاول ابوك ان يقنعني بمرافقتهما ..

كان جدي يدخل الغرفة على حين غرة ويفاجئنا اثناء الحديث فيرنو الى جدتي ، وينصت لحظة ويدمدم :

– إكذبي ، إكذبي ..

وفجأة كان يسألني :

– أكانت تحتسي الخمرة هنا يا ألكسي ؟

– كلا !

– انت تكذب ، انني الاحظ ذلك من عينيك !

ويترك الغرفة والشك يخامره .. فتغمزني جدتي بعينها باتجاه جدك الذي يبتعد وتردد دائماً !

– رافقتك السلامة ، لكن لا ترعبنا

وذات يوم وقف في وسط الغرفة ، وقد ركز عينيه في ارض الغرفة وقال :

- اماه ! ..

– ماذا بك ؟

– اتعلمين كيف تجري الامور ؟

– اجل اعرف .

– وماذا تعتقدين في ذلك ؟

– إنه القضاء يا ابتاه ! الا تذكر ما قلته لك عن ذلك الـ بد البديع ؟

– ام ... مْ ؟

– حسناً ، يظهر انك على حق .

- بيد انه صعلوك .

- ذلك شيء يخصها وحدها .

وانطلق جدي . وقد شعرت بعصبية جديدة :

- عمّ تتكلمان ؟

فقالت متأففة وهي تمسك ساقي وتقول :

- انك تود ان تعرف كل شيء اليس كذلك ؟ واذا عرفت كل شيء وانت صغير ماذا يبقى لتعرفه وانت كبير ؟الحقيقة ان جدك فقد كل شيء .. فقد استلف منه احد النبلاء ، مبلغاً كبيراً من المال يبلغ الآلاف ، وقد افلس ذلك النبيل ..

ثم لاذت في صمت عميق مدة طويلة واعتلت كآبة قاتمة ثغرها المشرق .. سألتها :

- بماذا تفكرين ؟

- كنت افكر فيما اقص عليك ..

ونادراً ما كانت تأتي والدتي لزيارتي في الطابق العلوي فاذا فعلت كانت تتفوه بكلمات مضطربة عجلى .. ثم تسرع بالرحيل ..

وفي اغلب الليالي كنت اضطجع في سريري احاول الرقاد بيد ان النوم يأبى ان يزورني ، فأسرح ناظري اراقب السماء والنجوم .. كنت اذهب في خيالي بعيداً فأختلق اقاصيص كئيبة واجعل والدي بطلا لها . كان ابي فيها وحيداً ، يحمل في يده عصاة ، ويعدو في اثره كلب صغير مشعث الشعر ..

* * *



أنا زالوموف الانموذج الحي لشخصية الام
(نيلوفنا) في كتاب (الأم) .

ذات مساء وبعد كبوة قصيرة نهضت وقد شعرت ان ساقيّ قد تحركتا.. فالقيت بها على حافة السرير .. فاذا بالجمود يعود اليهما مرة ثانيـــة ، ولكن ثقتي بأنني سأتمكن من السير على قدمي ، ولدت في نفسي غبطة عظيمة مما جعلني أهتف عالياً.. حاولت الضغط على قدمي عندما وضعتهما على الارض فحاولت النهوض بيد انني تعثرت وسقطت ، فأخذت اجر نفسي حتى بلغت الباب حيث هبطت السلم زحفاً ، وانا اتخيل المفاجئة التي ستدهش الجميع حين يشاهدونني ..

ولم اعد اذكر كيف عثرت على نفسي في أحضان جدتي في حجرة والدتي . حيث التف حولي اناس غرباء بينهم إمرأة هرمة ، نحيـــلة القوام ، مخضرة اللون .. تفرست هذه المرأة بصوت رهيب سيطر على الجو :

– أعطه بعضـــاً من مربى توت العليق مع الشاي الساخن ، دثريه جيداً بالاغطية ، من رأسه حتى اخمص قدميه ..

فسألت مرتبكاً :

– من تكون هذه ؟

فأجاب جدي بلهجة حادة .

– ستصبح لك جدة اخرى !

فعلا ضحك والدتي ، ودفعت بفجيني مكسيموف نحوي وهي تقول :

– وهذا سيكون أباً لك !

واردفت ببعض كلمات سريعة مبهمة ، بينما ضيّق مكسيموف من فتحة عينيه ، وانثنى قائلاً :

ـ سأقدم لك بعض الوان التصوير .

كانت الانوار تسطع في الغرفة بشكل شديد ، وعلى طاولة في احدى الزوايا يركن شمعدان فضي تذوي فيه شمعات خمس.. كانت وجوه مستديرة كالكعك تطل من خلال النوافذ السوداء . واخذ كل ما يلف بي يموج بشكل غريب بينما اخذت المرأة الخضرة تجس بأصبعها الباردة ما وراء اذني ، وهي تتمتم !

ـ على كل حال : على كل حال ..

فقالت جدتي :

ـ لقد غفا ..

وبعد ذلك حملتني نحو الباب ..

والواقع انني لم اغفُ ، بل اطبقت عيني بكل بساطة ..

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

ـ لماذا لم تعلميني ؟

ـ حسناً ! لا تتكلم الآن ، هل تسمع ؟

ـ دجالون كلكم .

وعندما مددتني في سريري، وضعت رأسها تحت الوسائد ، وسبحت في بحر من الدموع ، بينما اخذ جسدها يتشنج بفعل نحيبها وهي ما زالت تقول لي :

ـ هيا ابك ! إبك قايلا !

لكن لم يكن لي رغبة في البكاء .. كان الجو في الطابق العلوي بارداً يخيم عليه الظلام ، ومن شدة اضطرابي اخذ السرير يهتز ، وخيال تلك المرأة الخضراء يأبى أن يزول من امامي .. فتظاهرت بالنوم ، فذهبت جدتي وخلفتني وحيداً ..

مرت الايام التالية رتيبة مملة .. أما والدتي فقد تركتنا بعـد ان تكللت ، فخيم السكون الرهيب على منزلنا .

وفي صباح يوم ، اتى جدي وقد حمل في يده ازميلا ، وشرع ينزع المعجون من حول النافذة المزدوجة،ثم اتت جدتي في إثره وهي تحمل وعاءً من الماء وبعض الثياب المهترئة .. سأل في صوت هامس :

– حسناً ايتها العجوز !

– ماذا بك ؟

– هل انت سعيدة ؟

فاجابته كما اجابتني ونحن على السلم

– حسناً ، لا تحدثني الآن هل تسمع ؟

كان لهذه الكلمات معنىً خاص، فهي تستر شيئاً بغيضاً عظيماً يعلمه الجميع ، ويتناسونه .. فتحت جدتي النافذة المطلة على الحديقة ، فشلحت بناظري عبر الحقول .. كانت العصافير تغرد اجمل الالحان، وتناهى إلى الغرفة رائحة زكية ، رائحة التربة المتصاعدة من الارض بعد ذوبان الجليد ، فنهضت محاولاً النزول إلى الارض ، بيد ان جدتي نبهتني قائلة

– اياك ان تمشي حافياً !

– انني قاصد إلى الحديقة .

– تريث حتى تزول الرطوبة .

لكنني لم اجد رغبة في الاستماع اليها ..

كانت براعم الزهر تتفتق في اغصان الاشجار ، وانبلجت بعض الاعشاب من الطلحب من باطن الارض وغطت سطح منزل بتروفنا ، واخذت العصافير تمرح متنقلة بين الاغصان تشدو اجمل الالحان ورائحـــة ذكية تعبق في جميع الارجاء تبعث في نفسي نشوة فائقة .. وبدا لي المكان الذي ذبح فيه العم بيوتر

قد ازدان بعشب بني اللون يوشحه الثلج من كل جانب ، فلم تكن هذه البقعة تنسجم مع إنشراح الربيع بل اصبحت هذه الحفرة عديمة النفع .. واجتاحتني فجأة رغبة عارمة في نزع تلك الاعشاب ، وازالت كل ما يدنس الحفرة ثم اشيد مكانها كوخاً استطيع أن امضي فيه فصل الصيف بعيداً عن سائر الناس ..

كانت جدتي وامي تستوضحان دائماً :

ـ لماذا انت عابس هكذا ؟

كان هذا السؤال يزعجني كثيراً .. فانا لست بحاقد عليهما .. كل ما هنالك ان كل شيء يمت إلى البيت بصلة اصبح غريباً عليّ .. وغالباً ما كانت تلك المرأة الخضراء تشاركنا الغداء او العشاء او الشاي ، فتقتعد هناك كأنها كتلة بالية عفنة ، قد شدت عيناها إلى وجهها بخيوط غير مرئية ، تتفحصان كل شيء وتدوران بشكل غريب .. كانت تمسك شوكة الطعام بشكل يبعث على السخرية .. كانت وابنها مبالغين في النظافة حتى لا يجرأ امرىء على الاقتراب منها .. ولقد حاولت مرات عدة ، في الايام الاولى لتعارفنا ،حملي على تقبيل يدها الميتة ،التي تفوح منها رائحة البخور والصابون. فكنت أزوغ من طريقها .. ولا تزال تقول لابنها :

ـ ان هذا الولد بحاجة إلى تربية .. أتدرك هذا ، يا يفجيني ؟

فلا يجب يفجيني سوى الاطراق برأسه طائعاً ، وقد قطب وجهه وفي الواقع كان الجميع يقطبون وجوههم عندما تحضر تلك المرأة الخضراء .. لقد كرهت تلك العجوز وكرهت كذلك ابنها كرهاً عظيماً كلفني الكثير من الجلد ..وذات يوم بينما كنا نتناول الطعام،شرعت تحدجني بنظرها وهي تقول :

ـ يا عزيزي ألكسي ، لماذا تلتهم الطعام بهذة الشراهة ؟ ولماذا تجعل حجم اللقمة كبيراً هكذا ؟ سوف تختنق !

فقذفت اللقمة من فمي غارزاً فيها الشوكة ! وقدمتها لها قائلاً :

ـ هيا ، تناوليها ان كنت آسفة عليها !

فاختطفتني والدتي من على الطاولة وطردتني بشكل مخزٍ إلى الطابق العلوي . وبعد ذلك لحقت بي جدتي ، ووضعت يدها على فمها وهي تنفجر ضاحكة :

ـ آه ، يا إلهي كم انت وحش صغير ، اخذك الشيطان .

لم يعجبني وضعها يدها على فمها ، فزغت منها ، وصعدت سطح المنزل ، وقبعت هناك خلف المدخنة مدة طويلة .. اجل ، انني احس برغبة لا تقاوم في اعمال (الشيطنة) وفي اهانتهم جميعاً .. فذات يوم احضرت غراء وطليت به مقعدي زوج امي وجدتي الحديثة ، وما أن جلسا حتى تشبث كل منهما بمقعده بصورة تبعث على السخرية والضحك ، وبعد ان جلدني جدي ، اسرعت امي الي في الطابق العلوي وشدتني اليها واضعة اياي بين ركبتيها ، ثم قالت :

ـ لماذا تفعل هذ الاعمال الشيطانية ؟ لو تعلم كم يحز ذلك في نفسي ! .

واغرورقت عيناها بالدموع ، وقد شدت رأسي إلى خدها الناعم ، واحسست بضيق كبير فلو جلدتني لكان ذلك اخف وطأة علي ، حلفت بعد ذلك الا اتعرض لآل مكسيموف بشر . شرط أن تكف عن البكاء .. قالت بلطافة :

ـ حسناً .. ينبغي الا تكون ماكراً ! سوف نتزوج عما قريب ، ثم نرحل إلى موسكو في رحلة قصيرة ، وعندما نرجع ستعيش معنا .. إن يفجيني فاسيليفيتش رجل طيب ، وانا اعلم انك ستكون سعيداً معنا . سيرسلك إلى المدرسة لمتابعة دروسك حتى تصبح مثله وعند ذلك تصبح الرجل الذي تحب أن تصبحه لان الرجل المثقف قادر على فعل ما يريد .. امضِ الآن والهو ..

كنت اشعر أن هاتين الكلمتين (الآن) و (عند ذلك) اللتين تتكرران أبداً ، هما سلم منحدر يؤدي بي إلى الاسفل بعيداً عنها حيث اغرق في الظلمة والوحدة . وان هذا السلم لم يكن يبعث في نفسي الفرحة أبداً ، فتشدني رغبة

في أن اقول لها :

ـ لا تتزوجي . سأعيلك ، انا وحدي ..

بيد انني لم أقل ذلك .. كانت والدتي تبعث فيّ احساساً وعواطف رقيقة لم اكن اجد الشجاعة للافصاح عنها .

كنت اعمل في الحديقة بنجاح يوماً بعد يوم .. فقد ازلت الاعشاب ومهدت الارض بقطع من الآجر، ثم بنيت من قطع اخرى مقعداً مريحاً واسعاً استطيع أن اتمدد فيه كما يحلو لي . ثم جمعت قطعاً من الزجاج الملون والصحاف المكسورة ووزعتها في الطين بين الآجر فكانت ترسل وميضاً برّاقاً كلما زارتها الشمس في الصباح .

وفي ذات يوم بينما كان جدي يتأمل عملي هذا قال :

ـ ان عملك هذا بديع ! بيد ان الاعشاب ستنمو ثانية وتفسد كل شيء فقد تركت في جوف الارض جذور الاعشاب ، هيا ناولني معولاً لانزع لك هذه الجذور .

وعندما اتيته بالمعول نفث في يده ، ثم غرس المعول في اعماق الارض وهو يهمهم قائلا :

ـ إلقِ بالجذور بعيداً ، سأزرع لك هذه الزاوية بالخبيزي ودوار الشمس سيكون ذلك بديعاً ، بديعاً جداً !

وعلى حين غرة انثني على المعول من غير حراك وبقي مدة لا ينبس بكلمة واحدة .. فتأملته جيداً ، فشاهدت الدموع تذرف من عينيه الصغيرتين .. سألته :

ـ ماذا بك ؟

فاضطرب ومسح وجهه بيده ، وتأملني ثم قال :

ـ آه ، ان العرق يغسلني .. تأمل ما اكثر هذا الدود ، واخذ يحفر الارض

مرة ثانية ، وقال فجأة :
– من العبث العمل هنا . سأبيع البيت باسرع ما يمكن .. في الخريف على الارجح .. انني بحاجة إلى المال مهراً لوالدتك . يجب أن تعيش بصورة لائقة .. وسيكون الله معها ! ..

والقى بالمعول جانباً ، ومضى قاصداً زاوية من الحديقة حيث يحتفظ ببعض ادواته .. فشرعت احفر الارض حتى قطعت ابهامي بحد المعول .. مما جعلني غير قادر على حضور عرس والدتي ، وقد رافقتها بعناء حتى البوابة حيث اخذت أتأملها وهي تجتاز الشارع مع مكسيموف الذي امسك بذراعها ، كانت مطرقة الرأس تمشي بعنـــاية فائقة بين الاعشاب المنبجسة من بـين شقوق الرصيف القرميدي وكأنها تمشي على مسامير مسننة ..

كان العرس هادئاً .. فقد تناولنا الشاي بعد الاحتفال ، من غير بهجة .. ثم اسرعت والدتي إلى حجرة نومها ، واخذت في حزم امتعتها ، بينما جلس زوجها بجانبي وقال !
– لقد صممت ان اهديك بعضاً من الالوان . بيد ان الانواع الموجودة هنا مـــن الصنف الرديء الذي لا يصلح للرسم . ولا استطيع ان اهديك الواني الخاصة . لاجل ذلك سأبعث لك بهديتي من موسكو ..
– وماذا افعل بها ؟

– الا تحب الرسم ؟
– لست ادري كيف اقوم بذلك !
– إذن سأبعث بشيء آخر .
وفجأة دخلت امي .. قالت :
– لن نتأخر سنعود قريباً .. بعد أن ينتهي والدك من دراسته وامتحانه .
كنت اشعر بغبطة عظيمة وهما يتحدثا الي كأنني واحد من الرجال ، بيد

اني عجبت أن يكون رجل ذو لحية في طور الدراسة . فسألت :

ــ ماذا تدرس ؟

ــ تخطيط الاراضي .

ولن اود ان اسأل معنى ذلك .. كان يخيم على البيت سكون عميق ، وصوت حفيف الاوراق ، فتشوقت لهبوط الليل .. وقبع جدي وقد استند بظهره إلى الموقد ، يتأمل بعينين نصف مغلقتين المشهد من النافذة .. بينا اخـــذت المرأة الخضراء تساعد امي في حزم امتعتها ..

وتركتنا امي في غداة اليوم التالي .. فعانقتني مودعة ثم رفعتني عن الارض بكل بساطة ثم تأملتني بنظرة غريبة لم اشاهد مثلها من قبل ..

قالت وهي تعانقني :

ــ حسناً ، الوداع !

فقال جدي بلهجة كئيبة ، وقد تعلقت عينـاه في لازوردية السماء :

ــ سليـه أن يطيع أوامري .

فتقدمت نحوي راسمة اشارة الصليب فوقي :

ــ ينبغي أن تسمع اقوال جـدك .

كنت انتظر أن اسمع شيئاً آخر ، فغضبت على جدي لمقاطعته اياهـــا عن الحـــديث .. صعدت ومكسيموف إلى العربة ؛ بيد ان ثوبها تعلق بشيء ما ، فبقيت مدة طويلة تحاول في غضب شديد على افلاته ..

قال جدي موجهاً الحديث إليّ :

ــ ساعدها في تحرير ثوبها ،الا ترى ؟

كنت هائماً في هاوية من التفكير اليائس لا اقدر على فعل شيء .. ومـــد مكسيموف ساقيـه الطويلتين اللتين قد التفتا بسروال ازرق اللون ، فيا ناولته جدتي بعض الصرر التي تكدست فوق ركبتيه ، فشد عليها بذقنه ، ثم رفع

حاجبه المضطرب وقال :

– يكفي !

وصعدت المرأة الخضراء اللون ابنها الاكبر ، الضابط ، في عربة اخرى . جلست باستقامة كجسم شمعة ، بينما شرع ابنها يحك لحيته بقبضة سيفه .. سأله جدي :

– إذن ، فأنت ماضٍ إلى الحرب ؟

– بدون ريب .

– هذا بديع ! ينبغي قهر اولئك الاتراك .

وتحركت العربتان .. فيما التفتت امي مرات عدة نحوها وهي تلوح بمنديلها، واخذت جدتي تنتحب بجانب حائط الدار ملوحة بدورها بمنديلها ، اما جدي فقد انسابت الدموع من عينيه ، وهو يدمدم بصوت متقطع :

– لن يكون شيء نافع .. شيء جيد .. من هذا .. مطلقاً !

جلست إلى مقعد صغير اتأمل العربتين تتواريان شيئاً فشيئاً وراء احد المنعطفات ، فاحسست بشيء يختلج في صدري ..

كان الوقت لم يزل باكراً في الصباح ، والشوارع خالية ، والنوافذ ما زالت مغلقة . فلم أرَ ابداً من قبل مثل هذا السكون المخيف .. ومن البعيد ، من الاماكن النائية ، تناهت إلى اسماعي الحان راعٍ يعزف على نايه . فامسكني جدي من كتفي وقال :

– تعال لتناول الفطور ، يبدو ان الله قد شاء لك ان تعيش معي ابداً ، وتلازمني حتى النهاية .

كنا نعمل في الحديقة ، انا وجدي ، من الغدوة حتى هبوط الظلام والصمت ينشر اشرعته بيننا ، هو يحفر التربة ويشذب اغصان الاشجار ويقتلع بعض الاعشاب الشزرة . ويقتل الدودالذي يجده متدثراً ببعض الاوراق ، بينما اغرق

انا في توضيب زاويتي من غير كلل .. أنسج مظلة من الاعشاب اليابسة أقي بها منزلي من حر الشمس وقطر الندى حتى غدت زاوية رائعة .. وعندما اقتلع جدي آخر الكتل الخشبية ووضع مكانها جدع مستقيم ثبته في الارض لكي اعلق به اقفاص عصافيري .. قال :

ـ انه لعمل رائع أن تتعلم تنسيق امورك الخاصة بنفسك .

كنت اعتز بملاحظاته العظيمة في الحياة .. وفي بعض الاحيان كان يفترش مقعدي الذي غطيته بالعشب ، ويكلمني بهدوء ، فأتصور أن الكلمات تسحب من فيه بصعوبة فائقة !

ـ انك الآن قطعة فصلت عن والدتك ! وسوف تلد امك أطفالاً آخرين يكونون بحاجة إلى امهم اكثر منك ، اما جدتك فقد اصبحت كما تعلم تتعاطي شرب الخمرة .

ثم ينصت فترة طويلة ، كأنه يحاول الاستماع إل شيء ما ، ثم يعود إلى متابعة حديثه معتصراً الكلمات في فمه :

ـ انها المرة الثانية التي تتعاطى فيها الخمرة ، كانت المرة الاولى عندما طلب ميخائيل إلى الجندية الاجبارية ، ولكنها اقنعتني اخيراً ان اتقدم إلى السلطة وادفع التعويض ، يا لها من معتوهة ، من يدري لو انه خدم في الجيش لكان اصبح شيئاً آخر.. اما انا، فعما قريب سأموت وهذا يعني انك ستصبح وحيداً. هل انت فاهم؟ ستبقى وحيداً تتدبر امورك بنفسك..بيد اياك ان تنحني للغير ! عش حياتك هادئاً ، مسالماً ، لكن يجب ان تكون عنيداً ، وسر في طريقك الخاص من غير خوف أو وجل .. واستمع للجميع ، لكن إفعل ما يمليه عليك ضميرك وما تراه مناسباً ..

أمضيت الصيف باكمله في الحديقة، ما عدا الايام الماطرة . فقد كنت اقضي الليالي الدافئة فيه ، فقد خصصت لي جدتي قطعة من اللباد صنعت منها

ريراً . واغلب الليالي كانت جدتي تمضيهـا وهي تقص علي روايات عديدة كنت أصغي اليها بانتباه ..

وتميل الشمس نحو المغيب ، وترسل أشعتهـا وهي تذوي في الشفق تاركة وراءها الحدائق وقد اكتست برداء لازوردي محمراً فوق الاغصان . وبعد ذلك تزور الظلمة الكون فتذوي اشعة الشمس من على الاغصان ويحني العشب رأسه أسفاً على دفيء الشمس .. وتنبعث من البعيد موسيقى ملائكية تستقبل الهدوء كأنها ترانيم ام حنون ..

وتتمدد جدتي بالقرب مني ساعات طويلة وقد اسلمت رأسها إلى ذراعها .وما تزال تروي بعض الاقاصيص بانفعال سلس ، غير مبالية ان كنت اصغي لها أم لا ..وكانت بمكانة عظيمة إذ تعرف كيف تضفي على سكون الليل وهدوئـه باقاصيصها المناسبة فيزداد روعة وجمالا ..

كنت استسلم إلى نوم عميق وانا أصغي إلى حديثها الموزون ، وما استيقظ إلا والشمس تغسل بنورها وجهي وتملأ العصافير أسماعي الحاناً شجية . ويهب نسيم الصباح يدغدغ وجهي بلطف . وتلتمع حبيبـــات الندى على غصون الاشجار ، وينتفض العشب مستقبلا نور الشمس البهي ..

لقد كانت تلك المراحل اكثر سكينة وتأملا في حياتي ، ففي ذلك الصيف ازداد شعوري بثقتي بنفسي وتأصل . وأصبحت اتجنب النـــاس ، فلا تدفعني الرغبـة ، عندما اسمع صراخ الاطفال إلى الاستماع اليهم او الانضمام اليهم . واصبحت عندما يأتون لزيارتي أخاف من أن يعبثوا بحديقتي ، بدلا من الابتهاج والغبطة ، وهي أول شيء صنعته يداي في حياتي ..

وكذلك لم تعد احاديث جدي تثير في نفسي ادنى اهتمام ، بعد ان اصبحت اكثر جفافاً ومدى .. وازدادت مشاجرات جدي وجدتي ، واصبح يطردها من البيت ، فتقصد إلى منزل الخال ياكوف او الخال ميخائيل . واحياناً كانت

تتوارى عن البيت اياماً عديدة . فيضطر جدي إلى تهيئة طعامه بنفسه ، وهو يكيل الشتائم ، ويحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، وتتأصل الشراسة فيــه يوماً بعد يوم .

وعندما كان يزورني في حديقتي ،كان يقتعد في مجلس مريح بين الاعشاب . ويأخذ في تأملي مدة طويلة من غير أن ينطق بكلمة واحدة .. ثم يسألني فجأة :

– لماذا لا تتفوه بكلمة ؟

– لست ادري .

فيشرع عند ذلك بالحديث كأنه استاذاً يلقي محاضرة :

– اننا من غير طبقة النبلاء ، كما تعرف .. وليس من احد قد علمنا شيئاً ، فينبغي أن نأخذ العلم بانفسنا ، ان الكتب قد وجدت لغيرنا ، والمدارس قد اشيدت ليس لنا بل لسوانا .. فالواجب علينا بالتالي أن نحصل كل شيء مـن تلقاء انفسنا ..

ثم يغرق في صمت عميق ويبقى صامتاً حتى يبعث الرعب في نفس المتأمـل فيــه ..

ثم باع المنزل في ذلك الخريف ..

وقبل ان يبيع جدي الدار، قال ، بينما كنا نجلس إلى طاولة الطعام لتناول الافطار ، بلهجة حازمة حزينة :

– حسناً يا اماه ، لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى ومن الآن وصــاعداً حاولي أن تكسبي قوتك بنفسك .

اصغت جدتي اليه سمعها في هدوء عميق، كأنها كانت تنتظر منه هذا الكلام منذ زمن طويل .. فاجابت .

– حسناً ، كما تشاء .. يجب أن نتدبر أمرنا على اكمل وجه

واستأجر جدي منزلاً مؤلفاً من غرفتين صغيرتين مظـــلمتين في قبو عتيق يؤدى اليه عبر طريق ضيقة .. وعندما كنا نحزم امتعتنا ، اخذت جـــدتي حذاءً قديماً ورمته تحت الموقد ، ثم جلست القرفصاء وشرعت تنادي عفريت البيت الحارس :

– تعال ايها العفريت ، تعال واركب هذا الحذاء وامضِ معنـا إلى المنزل الجديد حاملا معك الحظ السعيد لنا ..

وأطل جدي من الساحة عبر النافذة وصرخ :

– انك تناديه لاخذه معك ، اليس كذلك ؟ سوف ادق عنقك ، ايتهـــا الجاحدة لسوف تجعلين مني مهزلة في اعين الناس !

فنبهته قائلة :

– ماذا ! يا ابتاه احذر جيداً لما تقول .. أن ذلك يعني حظاً تعيساً لنا ..

بيد ان احتداد جدي كان يفوق التصور . فمنعها من مرافقة العفريت لنـا إلى المنزل الجديد .

وخلال فترة ثلاثـــة أيام بقي يبيع الاثاث لبعض التتريين ، وهو يساومهم ويكيل لهم السباب من غير حساب . بينما كانت جدتي تراقبهم من النافذة ، تضحك تارة وتنتحب اخرى ، وهي تصرخ في صوت خافت :

– هيا خذوا كل شيء كسروا كل شيء، ولا تتركوا شيئاً .

كانت الدموع تترقرق في مقلتي كلما فكرت في زاويتي التي اقمتها في الحديقة، واتت عربتان لنقلنا إلى المنزل الجديد ، فاخذت العربة التي اعتليتها تتأرجح كأنها تود أن تقذف بي خارجاً من فوق أكداس الأمتعة والصناديق ..

وبقيت مدة سنتين أعيش واحساس يطغى عليّ بان شيئاً خفياً يحـــاول انتزاعي والقذف بي، حتى توفيت والدتي .. وبعد انتقالنا إلى القبو اتت أمي لزيارتنا .. كانت شاحبة اللون ، نحيلة القوام ... كانت تتأمل كل شيء بانتباه

فائق ، وكأنها تشاهدني مع والديها للمرة الاولى في حياتها .. اخذت تتأملنا في صمت ، بينما بقي زوجها يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً ، مطلقاً صفيره الخافت ، وقد وضع يديه خلف ظهره ..

قالت أمي وهي تدغدغ وجنتي بين راحتي يديها :

– يا للسماء كم كبرت !

كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً بشعاً، ينفتح فوق بطنها،بني اللون،قال زوجها، وهو يمد لي يده :

– مرحباً كيف الاحوال معك ؟

ونفث بمنخريه ودمدم :

– إن الرطوبة لزائدة هنا !

كان التعب بادياً على محياهما، كأنهما كانا يعدوان منذ أمد طويل.. وليس في سيمائهما سوى الطلب للراحة .. ثم اخذنا الشاي بصمت تام ، بينما قبع جـدي يتأمل المطر طوال الوقت ، واخيراً استوضح قائلا :

– إذن فقدتما كل شيء بسبب النار ؟

فاجاب زوج والدتي بلهجة صارمة كئيبة :

– كل شيء . ولم ننقذ أنفسنا إلا بصعوبة كبيرة .

– آه ! إن النار ليست في الحقية هزار .

ودنت والدتي من جدتي وأسرت اليها بشيء في اذنها فضيقت جدتي من دائرتي عينيها وقد ازداد الوجوم شدة ..

وعلى حين غرة قال جدي بلهجة مغتاظة :

– لقد تناهى إلى أسماعي يا يفجيني فاسيليفيتش،بعض الاشاعات التي تقول أنه لم يكن هناك من نار أبداً . بل أنك فقدت كل شيء في لعب الورق .

فخيم صمت عميق ، لا يسمع خلاله سوى بعض قطرات من المطر التي تنقر

على النوافذ ..
قالت أمي .
– ابتاه ...
فزعق جدي :

– أبتاه ! حسناً ، ماذا ايضاً ؟ الم افهمك أنه من الهوس أن يتزوج الجيل الثالث من الجيل الثاني ؟..اليك ما غدوت،إنه نموذج بديع لقد جعل منك نبيلة ما كيف ترين ذلك ، يا ابنتي ؟

وعند ذلك تعالى صراخ الجميع وكان صراخ زوج أمي يفوقهم جميعاً.مضيت إلى المشى حيث جلست على رزمة من الحطب مندهشاً..هذه المرأة لا يعقل ان تكون والدتي ،إنها مختلفة كل الاختلاف عن أمي..وانا الآن في الظلمة استطيع أن اتذكر وجهها تماماً كيف كان قبلا ..

وبعد ذلك اجدني من غير أن اذكر كيف جرى ذلك ، في سورموفو ، في منزل جديد بنيت جدرانه من الخشب .. وقد تركت شقوق صغيرة بين قطع الخشب قد حشيت بنبات القنب، قد اكتنزت بعدد كبير من الصراصير . كانت أمي وزوجها يقطنان في حجرتين في مواجهة الشارع ، بينما سكنت وجدتي في المطبخ الذي له نافذة واحدة تطل على السطح . وفي البعيد خلف السطح كانت المداخن تنتصب يتصاعد منها الدخان محلقاً في السماء ..

كانت جدتي تقوم بجميع أعمال البيت اليومية ، فهي مشغولة منذ الصباح حتى المساء في إعداد الطعام ، وتنظيف الارض، وجلب الحطب ، وإحضار الماء، وما أن يأتي المساء حتى تتهاوى متعبة منهوكة القوى ، وفي بعض الاحيان بعد إعداد طعام الغداء كانت ترتدي معطفا قصيراً وترفع اكام قميصها ، ثم تمضي إلى البلدة وهي تقول :
– سأذهب لمشاهدة ذلك العجوز وكيف يتدبر امور حياته ..

– خذيني معك ..

– سوف تتجمد حتى الموت . ألا ترى هذه الرياح الهائجة !

كانت جدتي تقطع مسافات طويلة حتى تبلغ البلدة ، في حقول من الثلج ، بينما تقبع والدتي الحامل في الدار ، وقد التفت بشال بالٍ رمادي اللون ينتهي بزركشة طويلة.. كنت أكره ذلك الشال البالي فاود تمزيقه نتفاً . وقد كرهت البيت وسائر تلك الضاحية . كانت والدتي تجوب الغرفة وهي منتعلة حذاء مهترىء .. كانت بين الحين والآخر تتأمل الشارع مدة طويلة ..

سألتها :

– لماذا نقطن في هذا المكان ؟

فاجابت .

– آه ، لا تسل :

وغدت تقتضب في حديثها معي ، فلا تحادثني إلا إذا أرادت أن تصدر أمراً ، او تطلب مني عملا :

– آتِ لي بهذا ، تناول ذلك . إمضِ إلى المخزن .

ولم تكن تسمح لي بالخروج إلى الشارع للهو ، لانني كنت أرجع دائماً وقد أشبعني أقراني ضربا ولكما .. كانت المشاجرة اللذة الوحيدة التي بقيت لي من الماضي. فكنت أستسلم اليها بكل طبيعتي ، وكان جزائي العقاب الاليم الذي لا يزيدني إلا شغفا بها ، فاقاتل في اليوم التالي بوحشية ، فتضاعف أمي بدورها العقاب .. وذات يوم أنذرتها بانني ساعض لها يدها وأتوارى في الحقول إن عادت إلى معاقبتي ..

قالت وهي تلهث تعبا :

– يا لك من وغد حقير !

كان زوج أمي شديد القسوة عليّ يقتضب في حديثه مع والدتي ، كان دائما

يرسل صفيره الناعم ، ويتوقف قبالة المراة يطرق اسنانه العوجـــاء . وغدت مشاجرته مع والدتي كثيرة ، فقد كانت هذه المشاجرات تثير في نفسي نقمة يائسة. فكلما تشاجرا كان يوصد باب المطبخ حتى لا يتناهى إلى أسماعي حديثه معها ، بيد أن اصداء صوته الاجش كانت تصلني رغما عنه ..

كان يضرب الارض بقدمه ويصيح :

– أنني غير قادر على دعوة أحد إلى المنزل بسبب بطنك اللعين ، ايتهـــا البقرة الشمطاء !

كان عدد كبير من العمال يأتوننا نهار السبت ليبيعون بطاقات طعامهم ، إلى زوج أمي،التي تكون الشركة قد وزعتها عليهم لابتياع حاجياتهم من مخزنها .. فقد كان المعمل يوزع هذه البطاقات بدلا من الاجور فيشتريها زوج أمي بنصف ثمنها . .لاجل ذلك كان يستقبل العديد من العمال في المطبخ، فيجلس إلى الطاولة وعلى وجهه مسحة من الرزانة ، ويأخذ يتأمل البطاقات وهو مقطب الحاجبين:

– روبل ونصف .

– يفجيني فاسيليفيتش ، محبة بالسيد المسيح ..

– روبل ونصف .

لم تمتد بي هذه الحياة التميسة المضطربة ، فقد ارسلوا بطلي قبـل أن تضع أمي طفلها ، لاعيش مع جدي ..

كان يسكن منزلاً جيداً مؤلفاً من طابقين في شارع بيستانايانا في كونافينو، يطل على مقبرة كنيسة نابولنايا . وقد وضع في الغرفة التي يقطنها مؤقد ضخم ، وفيها نافذتين تطلان على الساحة ..

أخذ جدي يضحك حين لمحني ، وشرع يرسل صراخاً حاداً متقطعاً :

– حسناً ! يقول المثل (خير رفيق لك هو أمك ..) لكنـــه يظهر ان افضل رفاقك هو جدك ، الشيطان الهرم ! تفو ، تبا لهم من قوم !

وما ان تعرفت على البيت الجديد حتى جاءت امي وجدتي بالمولود الجديد . بينما فقد زوج امي عمله في المعمل لاحتياله على العمال. بيد انه استنجد باصدقائه الذين سرعان ما اوجدوا له عملا كمحاسب في محطة للسكك الحديدية ..

ومضت الايام طويلة قبل ان اذهب ، مرة ثانية ، لاقطن مع والدتي في قبو منزل حجري.. لقد ارسلتني امي تواً إلى المدرسة، بيد انني كرهتها لتوي منذ اليوم الاول ..

كان الاستاذ اصلع الرأس،مصفر الوجه،يلج غرفة الدرس وقد حشا منخريه بالقطن ، ثم يجلس إلى الطاولة ، ويطرح علينا الاسئلة في صوت (مخنخن) ثم يتوقف في منتصف الكلمة يسحب القطن من انفه ويتأمله هازاً رأسه .. كان وجهه مسطحاً ، نحاسي اللون ، تبدو فيه بقع زرقاء .. اما عيناه الصغيرتان ، وهما اشنع ما في وجهه حيث لا مكان لهما مطلقاً ، وتبقيان عالقتين في وجهي فامسح وجهي بيدي لازالتهما عن وجهي ..

قبعت في الايام الاولى في المقعد الامامي. تواً تحت انف الاستاذ ، حتى انني اتصوره لا يشاهد احداً غيري ، ولا يبرح يقول من بين أسنانه :

ـ بشكو .. و .. ف ! غيّر قميصك ! بشكو ..و .. ف يكفي احتيالاً ! بشكو .. وف ! لقد ترك حذاؤك مرة ثانية بعض الوحل على الارض !

لقد كان ذلك فوق ما اقدر على احتماله .. بيد انني كنت اخترع الآلاعيب القاسية انتقاماً لنفسي .. ففي ذات يوم ، احضرت بطيخة نصف متجلدة ، ونزعت محتوياتها ، وبعد ذلك ربطها بقبض الباب في الممشى المعتم ، فعندما فتح الباب، صعدت البطيخة في الهواء وما أن أوصده الاستاذ حتى سقطت على رأسه الاصلع .. فرافقني الحارس الليلي إلى منزلنا وقد حمل معه ورقة من الاستاذ ، فكان جزائي كبيراً على تلك الفعلة ..

ومرة ثانية وضعت مسحوق الفلفل في درجه وما أن فتحه حتى إجتاحته

نوبة قوية من العطاس اضطرته على الاثر إلى مغـادرة الصف حيث أرسل صهره الضابط كي يراقب مكانه .. وامرنا الضابط بانشاد (انقذ الله القيصر) و (آه يا حريقي المباركة) عدة مرات..وعندما كان أحدنا يغلط في اللحن يضربه على قمة رأسه بمسطرة حديدية تتعالى منها ضجة تبعث على الضحك . وان كانت لا تؤلم مطلقاً .

وكان استاذ الدين كاهنا في عز الشباب ، كثيف الشعر وقد كرهني لانني لا أقتني نسخة من (قصص مقدسة من العهدين القديم والحديث) ولانني بالتـالي اقلد اسلوبه في الحديث ..

وبعد أن يدخل قاعة الدرس كان يقول لتوه :

– بشكوف ، هل أبتعت الكتاب أم لا ، أجل ، الكتاب !

– كلا لم افعل . أجل .

– وماذا تقصد بأجل ؟

– كلا !

– هيا إلى البيت ! أجل إلى البيت ! لانني لا ارغب في تعليمك ، أجل لا ارغب مطلقاً !

لم أكن أبدي أي اعتراض على مغادرتي الصف فكنت اسرح في ساحـات الضاحية وأدور في ازقتها القذرة ، أراقب الحياة الصاخبة من حولي حتى يأتي موعد انصرافي من المدرسة .

كان وجه الكاهن بديعاً كوجه السيد المسيح ، وعيناه جميلتـان كعيون النساء . ويداه لطيفتان صغيرتان .. كان قليل العطف على الاطفال وبالرغم من ذلك كانوا شغوفين به .. وبالرغم من أن علاماتي كانت حسنة للغاية ، فقد حـذرت بانني ساطرد من المدرسة بسبب سلوكي ، مما جعلني اضطرب ، لان النهاية ستكون محزنة قاسية لان والدتي أصبحت تزداد حدة يومـاً بعد يوم

وغدت تضاعف من جلدي ..

بيـــد أنني نجوت من تلك المصيبة عندما زار ، على حين غرة الاسقف كريستانس مدرستنا، وكان على ما أذكر محدودب الظهر.. وغصت غرفة الصف بجو من الحرارة والانطلاق غير معهود عندما ولج ذلك الرجل الصغير وقـــد ارتدى ثوباً واسعاً اسود اللون ، واخذ مكانه إلى الطاولة ..

قال ، وهو يخرج يديه من كميه الواسعتين :

ـ حسناً ! هلا تحدثنا قليلا ، يا اولادي ؟

واتى دوري للمثول أمامه في نهاية الجدول تقريباً .. سألني :

ـ كم عندك من العمر ؟ حقـاً ؟ يا الهي ! يا لك من فتى طويلا بالنسبة إلى عمرك ! لا شك انك قبعت طويلا تحت المطر !

فوضع إحدى يديه فوق الطاولة ، بينما أمسك في الاخرى لحيته الصغيرة ، وحدجني بلطف :

ـ هل لك أن تحكي لنا قصة من التاريخ الديني تحبها .

وعندما اجبته بانني لا املك كتابا دينيا حتى احفظ التـــاريخ الديني ، سوّى من وضع قلنسوته وقال :

ـ كيف ذلك ؟ ينبغي ان تحفظ هذه الاشياء . لكنني أعتقد انك تحفظ منها شيئا من كتاب آخر . الم تستمع إلى بعض الاقاصيص في مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ لعلك تعرف حياة بعض القديسين يظهر انك فتىً مثقف !

وولج كاهننا الاحمر الوجه وهو يلهث .. وبعـد أن باركه الاسقف شرع يحدثه عني .. فقال الاسقف مقاطعا اياه بحركة من يده :

ـ أنتظر لحظة !

ثم التفت اليّ ثانية :

هل أخبرتنا شيئا عن رجل الله الكسي ..

وعندما توقفت عن قراءة الشعر لأنني نسيت منه سطراً قال :

ـ شعر بديع ، اليس كذلك يا ولدي ؟ علّك تعلم شيئاً عن الملك داوود ؟ بديع ! سوف اكون مغتبطاً بالاستماع اليك ..

واستشفيت من سيما وجهه انه فعلا مغتبطاً ، وانه يحب الشعر وترك لي مجالاً لتلاوة بعض الاشعار قبل أن يقاطعني :

ـ هل تعلمت احرف الهجاء من المزامير ؟ من لقنك اياها ؟ جدك ؟ جدك الطيب ؟ جدك (الشرير) ؟ انك لا تقصد ذلك ابداً . بيد انهم اعلموني انك تسبب بعض الشغب ..

فعلت الحمرة الوردية وجنتي،ثم اعترفت بذلك،رأصدق هذه الحقيقة الكاهن والاستاذ إلى درجة كبيرة . ثم قال اخيراً وهو يتنهد :

ـ هل سمعت ما يقولون عنك ؟ تعال إلى هنا !

ووضع يدي التي تفوح منها رائحة البخور على رأسي ، ثم قال :

ـ ما الذي يدفعك إلى هذه الشقاوة ؟

ـ ان المدرسة تبعث فيّ الضجر .

ـ تبعث فيك الضجر ، ان في ذلك بعض الخطأ ! لانك ان وجدت المدرسة تبعث فيك الضجر لاصبحت تلميذاً سيئاً ، بيد ان علاماتك تـدل على عكس ذلك . اعتقد أن هناك شيئاً آخر يضايقك .

واخرج من ثوبه كتاباً صغيراً ودوّن :

ـ بشكوف ، الكسي ! يجـدر بك أن تعدل عن شقاوتك ، يا ولدي ! شيء قليل من الشغب لا بأس به ، لان الناس غير قادرين على تحمل الكثير منه ، كما تعرف الست محقاً ، ايها الصغار ؟

فاجابته مجموعة من الاصوات :

ـ اجل ! انك على حق !

– وماذا عنكم ؟ أعتقد انكم لا تأتون الا القليل منه ، اليس كذلك ؟ .
فعلا ضحك الاطفال :
– آه ! لا بل الكثير .
فقال بنغمة مندهشة ، دوت لها عاصفت من الضحك اشترك فيها الكاهن والاستاذ كذلك !

– ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغباً كبيراً عندما كنت في مثل سنكم ، ما الذي يدفعنا إلى ذلك في رأيكم ؟
فتعالى ضحك الاولاد ، وهو يطرهم باسئلته فيوقعهم في شراكه الشيء الذي زاد من فرحتي واخيراً نهض قائلا :
– انه لمن المؤسف أن اتركك ، ايها الماكرين بيد أن ساعة مغادرتي قد حانت .

ورفع يده ، دافعاً كمه العريض إلى الخلف ، ثم رسم اشارة الصليب فوق الصف باكمله :
– ليطل الله في حياتكم، ويهديكم سواء السبيل ، باسم الآب والابن والروح القدس . الوداع !
فصاح الاولاد :

– الوداع، يا صاحب الغبطة ! ارجع الينا باكراً !
فاجاب وهو يسوّي قلنسوته :
– سأرجع باكراً ! وسآتي لكم ببعض الكتب .
ثم التفت إلى الاستاذ :
– ليذهبوا الآن إلى بيوتهم .
واوقفني في المشى، وهمس في صوت خافت :
– عدني بان لا تأتي بعض المتاعب في المستقبل، هل تعدني ؟ آه انا افهم لماذا

تفعل ذلك ، حسناً إلى اللقاء !

كان الانفعال يسيطر عليّ وقد احسست بشعور غريب يعتلج في صدري ، حتى انني وجدت نفسي أصغي اليه بانتباه فائق، ووجدت نفسي كذلك اصغي إلى الاستاذ بكل طيبة خاطر، الذي طلب مني ان ابقى بعد انتهاء الدروس واخذ يفهمني ان اكون كالحمل وداعة ولطافة .

وكلمني الكاهن قائلا وهو يرتدي معطفه :

– ينبغي من الآن وصاعداً ان تحضر دروسي . اجل، هذا ما ينبغي فعله.. لكن ابقَ هادئاً . اجل ، هادئاً !

وسارت الامور في المدرسة بصورة حسنة ، بيد ان حادثاً قد وقع لي بعث في الاشمئزاز والنفور في البيت .. اذ انني قد سرقت روبلا من امي ، من غير ان اتعمد ذلك أو أقصده ..

ففي ذات مساء خرجت والدتي ، وخلفتني وحيداً مع الطفل الرضيع ، فتناولت كتاباً من كتب أمي (ملاحظات طبيب) مؤلفه دوماس الكبير ، وقد تناولته لاني لم اجد شيئاً افعله افضل من ذلك . وقد عثرت بين صفحات الكتاب على ورقة من فئة الروبل الواحد ، وثانيـــة من فئة العشرة روبلات فاطبقت الكتـاب وما ان اردت ارجاعه إلى مكانه حتى راودتني فكرة بأنني استطيع بذلك الروبل ان ابتاع ليس (تاريخ الدين) فحسب،بل و(روبنسون كروزو) كذلك،الذي علمت به حين كنت أقص على الاولاد في يوم بارد احدى روايات الجان فقاطعني أحدهم باحتقار ! (ان روايات الجان لا تنفع بشيء اما أما روبنسون كروزو ، فانها قصة واقعية) .

كان عدد كبير من الاولاد قد قرأوا روبنسون كروزو ، وشرع الجميع بمدح الكتاب . وقد تألمت كثيراً لسخريتهم من قصة جدتي ، وقررت ان اقول ، بعد قراءته انه سيء لا يساوي شيئاً .

وفي الغداة اتيت المدرسة وانا احمل كتاب (تاريخ الدين) وكتابين صغيرين من روايات هانس اندرسون الخرافية ، وتزودت بثلاثة اوقيات من الخبز الابيض ، وأوقية واحدة من اللحم، وفي زاوية مظلمة عثرت في مكتبة فلاديمير على نسخة من روبنسون كروزو ، كان كتاباً صغيراً اصفر اللون وما أن فتحت اول صفحة منه حتى وجدت صورة رجل له لحية قد وضع قبعة من الفرو على رأسه ، وعلى كتفيه قد القى معطفاً من جلد النمر . لكنني لم ارتح لمنظره بل فضلت عليه روايات الجان التي تأخذ بشغاف قلبي ، على الرغم من مظهرها الخارجي الذي لم يكن مزخرفاً ..

واثناء الفرصة اقتسمت الخبز واللحم مع الاولاد واخذنا نقرأ معاً قصة (العندليب) الساحرة التي اخذت بشغاف قلوبنا منذ الصفحة الاولى :

(ان غالب الناس في الصين صينيون، وكذلك الامبراطور نفسه صيني) ..

وما زلت اذكر كم اسرتني هذه الجملة بمضمونها البسيط ، وموسيقاها الشجية ولست ادري إن شيئاً آخر فيها كان اكثر عمقا بصورة بديعة ..

ولم يكن لدي الوقت الكافي لانهي قراءة (العندليب) في المدرسة ، وعندما رجعت إلى البيت سألتني والدتي بصوت متهدج ، وهي تقلي البيض :

ــ أأخذت روبلا ؟

ــ أجل وها هي الكتب ..

فقاطعتني بضربة قاسية من المقلاة. وخطفت الكتب الخرافية مني ،وواربتها عني إلى الابد .. فكان هذا الجزاء اشد ايلاماً من الجلد ..

وتخلفت اياماً عدة عن المدرسة .. لان زوج والدتي قد اخبر الناس في المعمل على فعلتي ، وقد نقلوها بدرهم إلى أطفالهم الذين اتوا بالقصة إلى باحة المدرسة حيث رتبوا لي استقبالاً عندما عدت إلى المدرسة واطلقوا عليّ لقب (اللص) .. كان اللقب مختصراً ، جلياً ، بيد انه خاطىء .. ولم احاول أن اخفي حقيقة

سرقتي للروبل .. وعندما حاولت أن اوضح ذلك لم يصدقني احد .. وهكذا عدت إلى البيت واطلعت والدتي بما حدث واخبرتها بانني لن اعود إلى المدرسة مطلقاً ..

كانت قابعة إلى النافذة تناول اخي الصغير ساشا طعـــامه فالتفتت نحوي وتأملتني بعينين مذعورتين يبدو فيهما البؤس ، وفغرت فاها كالسمكة ..

قالت بصوت خافت :

ـ إنك تكذب إذ لا يعقل أن يدري إنسان بانك سرقت الروبل ·

ـ يجب عليك أن تستوضحي إذن .

ـ لا شك بانك انت الذي اطلعتهم على الحقيقة ! قل لي الحقيقة ألم تخبرهم ؟ ولكن لا تكذب ، لانني سأذهب غداً إلى المدرسة لأستوضح الحقيقة .

فاعلمتها باسم التلميذ ، فاذا بوجهها يتغضن ، والدموع تترقرق من مقلتيهـا بغزارة ..

قصدت المطبخ ، ثم اضطجعت على الفراش خلف الموقد الذي كان خاصتي .. وقد تناهى إلى أسماعي صوت أمي وهي تنتحب في الغرفة المجاورة وتصعـــد تأوهاتها :

ـ آه يا إلهي ! يا إلهي !

ولم أعد احتمل رائحة الاسماك التي ترسلها الحرارة ، فمضيت إلى الساحة . ندهتني والدتي :

ـ إلى أين انت ذاهب ؟ تعال إلى هنا !

افترشنا الارض سوية ، وقد جلس ساشا على ركبتيها يشد بازرار ثوبها .. فالتصقت بوالدتي فطوقتني بذراعها ، قالت :

ـ اننا فقراء معدمون .. كل كوبيك واحد ...

ثم شدتني بذراعيها ، غير قادرة على التصريح بما تود قوله ..

وفجأة زمجرت ، وهي تعيد كلمة سمعتها تتفوه بها كثيراً من قبل :
– آه يا للوحش ، يا للوحش !
فقلدها ساشا قائلا :
– وش !

كان طفلا عجيباً ، كبير الرأس ، حذق الطباع ، ذا عينين زرقاوين تتوجهما الابتسامة دائماً ، ولقد شرع يتكلم في سن مبكرة .. ولم يكن يبكي مطلقاً بل يبقى دائماً في حالة فرحة .. كان يغتبط كثيراً عندما يشاهدني ، فيمد يديه إليّ ويأخذ في مداعبة اذني باصابعه الندية التي تتضوى منها رائحة ، لست أدري لأي سبب ،البنفسج . وقد مات فجأة من غير أن يصاب بمرض . كان مسروراً كل السرور في الصباح كعهده دائماً .. بيد أنه عندمـــا أتى المساء ، وشرعت اجراس الكنائس تدق داعية الناس إلى الصلاة ، كان يتمدد على الطاولة من غير حراك . وقد وقع ذلك بعد ولادة الطفل الثاني نيقولاي بمدة وجيزة ..

وقد برت والدتي بوعدها بترتيب الامور في المدرسة ، فرجعت إلى متابعة دروسي كالعادة.بيد أنني عدت اعيش من جديد مع جدتي بعد اسبوع كامل..
وذات يوم بينما كنت ادخل إلى المطبخ تناهى إلى سمعي صوت أمي تصيح بلهجة يائسة :
– يفجيني، يفجيني ، لا تمضِ ، اتوسل اليك !
فاجابها زوجها :
– سخافة !

– انني اعلم جيداً بانك ماضٍ اليها !
– حسناً . وماذا يضير في ذلك ؟
وركن كل منهما إلى صمت عميق فترة . ثم قالت أمي بين نوبتين من السعال :
– يا لك من وغد سافل تافه !

وسمعته يضربها ، فركضت إلى داخل الغرفة كي اشاهدهـا وقد جثت على ركبتيها ، وتستند إلى أحد المقاعد بظهرها وقد تدلى رأسها إلى الوراء . وشع من عينيها بريق لم أعهده من قبل بينها انتصب مكسيموف أمامها ، وقد ارتدى بذلة جديدة ، يركلها بساقه الطويلة على صدرها .. فتناولت سكيناً ماضيـاً ووجهتها نحو خاصرته بكل ما اتيت من قوّة .

ومن حسن حظه أن أمي قد دفعته عنهـا في الوقت المناسب ، فقطعت السكين المعطف ، ونالت الجلد بجرح طفيف . فاطلق صراخاً عالياً . ومضى من الغرفة وهو يعدو ماسكاً بخاصرته .

فشدتني والدتي وقد صدرت عنها صيحة عظيمة ، ثم القتني ارضاً . بيد أن زوج والدتي عندما رجع من الساحة اختطفني منها ..

وعندما خرج زوج والدتي ، رغم كل شيء ، في ساعة متأخرة من الليل ، أتتني والدتي خلف الموقد ، وعانقتني بحرارة قائلة :

— سامحني ، يا عزيزي . لقد قسوت عليك . لكن كيف يعقل أن تفعـل ذلك ؟ بسكين !

فاقسمت وانا مدرك معنى كلماتي ، أنني سأقتل زوج أمي ثم اقتـل نفسي بعـد ذلك .. ولقد حاولت ذلك . وانني ما زلت اذكر حتى اليوم تلك القدم البغيضة تتأرجح في الفضاء ، وتهوي على صدر امرأة ضعيفة ..

وعندما آتي ، في بعض الاحيان ، على وصف شناعات تلك الحيـاة الروسية الوحشية، اتساءل ان كانت تستحق أن يتكلم المرء عنها.. وقد اقتنعت بعد تفكير طويل أن من الواجب عرضها ، لانها تكوّن الحيـاة الشريرة التي لم تستأصل باكملها حتى اليوم .. انها تمثل واقعاً يجب معرفته حتى أعمق جذوره ، كي نزيلها بعد ذلك من حياتنا الكئيبة الملوثة بالعار . فننتزعها من صميم الانسان ومخيلته ..

بيد أن هنالك سبب آخر ، اكثر موضوعية ، يدفعني الى وصف هذه الافعال الهمجية . اذ بالرغم من شناعتهـــا وما تشوه من نفوس يمكن أن تكوّن نفوساً بديعة طيبة ، فان الروسي يملك من الشجاعة وسلامة التفكير ما يدفعه الى ابادة مثل هذه الاشياء وانه لفاعل ذلك بكل تأكيد . .

ان حياتنا بديعة ، ليس لانها تأصلت في تربة خصبة من الهمجية وحسب ، بل لما ينضح وراءهـــا من قوى فعّالة وخلاقة . وان الخير سوف يزداد ، وان شعبنا سوف ينفتح على حياة ملأى بالجمال ، تنضح بالانسانية .

* * *

١٣

واجدني مرة اخرى مع جدي ..

القى علي السلام وهو ينقر بحدة على الطاولة :

ــ حسناً ايها الخبيث ! انني لن أقيتُكَ بعد الآن دع جدتك تتكفل بهذه المشكلة .

فقالت جدتي :

ــ سأتدبر ذلك ، بيد أن هذا الامر صعب !

فصرخ :

ــ حسناً خذيه في عهدتك إذن .

ثم اوضح لي الامور بهدوء كبير :

ــ ان كل شيء يتركنا الآن وينفصل ، كل واحد يهتم بأمره لوحده ..

وقبعت جدتي الى النافذة تطرز ، فأخذت بكرات خيطانها تتدحرج بنشوة على الوسادة التي تملاها الدبابيس النحاسية التي تلتمع في اشعة شمس الربيع . كانت جدتي تبدو وكأنها إناء من البرونز لم يتغير فيها شيئاً ابداً . لكن جدي أمسى اكثر هزالاً وأشد تغضناً وقد تساقط شعره ، وتحول هدوءه الى عصبية محتدمة واصبحت عيناه تشككان في كل شيء . واخذت جدتي تخبرني عن اقتسامها الاملاك مع جدي ، فقد اعطاها جميع العلب ، والاواني ، والاحواض ، وقال :

– كل هذا لك ، واياك ان تطلبي شيئاً آخر !

وبعد ذلك جمع ثيابها العتيقة وما تملكه يداها ، وباعها لقاء سبعماية روبل . وضعها بالفائدة ليهودي قد اعتنق المسيحية وهو تاجر فواكه . وقد اصبح طماعاً حتى وقع في المرض من طمعه .. فقد كان يزور بعض اصدقائه القدماء ويسألهم إعطاءه بعض المال مدعياً أن ولديه قد قاداه الى الخراب ، فكانوا يقـدمون له منحاً سخية تقديراً لمركزه السابق ، فيرجع الى البيت ملوحـاً ببعض الاوراق تحت انف جدتي هازئاً منها كطفل صغير :

– أتشاهدين هذه ، ايتها العجوز البلهاء ؟ ليس هنالك من يدفع لك عشر هذا المبلغ .

ثم وضع جدي هذا المال بالفائدة عند رجل تعرف عليه حديثاً يعمل تاجر فراء ، طويل القامة ، اصلع الرأس ، يلقب بـ (السوط) ..

كان جدي وجدتي يقتسمان كل شيء بصورة مضبوطـة ، ففي اليوم الذي تهيء فيه جدتي طعام الغداء من مالها الخاص في اليوم التالي يشتري جـدي الخبز والطعام وعندما يأتي دور جدي يكون الطعام رديئاً . بينما كانت جدتي تشتري لحماً مقدداً كان جدي يشتري رئة خروف أو أمعاءه . حتى أن كل منهما كان يحتفظ بشايه الخاص وسكره، بيد انهما يغليانه في ابريق واحد ،ويقول جدي مضطرباً :

– مهلاً دعيني اشاهد .. كم وضعت فيه ؟

ويأخذ اوراق الشاي في يده ، ويشرع في عدها بدقة :

– ان الشاي الذي تشتريه له اوراق رقيقة بينما الشاي الذي ابتاعه انا اكثر كثافة لذلك اصبح من الواجب أن تضعي عدداً اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتي ، وهي تسكب الشاي ، حتى يشاهد اذا كانت حصتـه تساوي حصتها .. كانا يرشفان دائماً عدداً متساوياً من الاكواب .

وكانت جدتي قبل أن تسكب الكوب الاخير تسأله :
ـ هل تشرب الكوب الاخير ؟
وبعد أن يلقي بنظرة الى جوف الابريق يوافق :

ـ حسناً ، انه الكوب الاخير في الحقيقة !
حتى اصبحا يبتاعان كل بدوره الزيت اللازم للقنديل ، وذلك بعد مضي خمسين سنة من الحياة المشتركة .
كنت الاحظ أن أفعال جدي مسلية تدعو الى الاشمئزاز، أما افعال جدتي فقد كانت مسلية فقط . كانت تقول لي :

ـ تناسى ذلك ! ماذا ينتج عنه ؟ لقد هرم كثيراً حتى غدا شاذ الطباع . لقد تجاوز الثمانين ، تأمل هذا العدد الكبير من السنين ! ليصبح شاذ الطباع ، ماذا يضير في ذلك .. بينما انا وانت ، فكن على ثقة تامة بانني سأجد بعض الخير لكلينا دائماً ..

حتى انني اصبحت بدوري اكسب بعض المال ، فما أن يطل نهار الاحد حتى احمل كيساً على ظهري واجوب الطرقات بحثاً عن العظام والخرق البالية والمسامير والاوراق.. كان جامعو هذه الاشياء يدفعون لي عشرين كوبيكاًلقاء كل حزمة من الخرق والاوراق والقطع المعدنية ، وثمانية أو عشرة كوبيكات لقاء كل رزمة من العظام . حتى انني اخذت في جمع هذه الاشياء بعد خروجي من المدرسة خلال الاسبوع، فأجني كل نهار سبت من اربعين الى خمسين كوبيكاً أو حتى كان هذا الربح يزيد اذا كنت قد توفقت في جمعها ..
وعندما اعود بالمال كانت جدتي تأخذه مني سريعاً ، وتودعه في جيب فستانها ، وتغمز بعينها وهي تشكرني :
ـ شكراً ، ايها الكتكوت الصغير ! لن نجوع بعد الآن .. أليس كذلك ؟
بيد انني وجدت أن ربحي بمتاجرة الخروق اقل مما اكسبه من سرقة الالواح

الخشبية من فبركة تقع على ضفـــاف نهر الاوكا أو في جزيرة (الرمال) حيث يقام سوق سنوي للمتاجرة بالمعادن تحت كشكات مصنوعة من الاخشاب . وكانت تلك الكشكات تبقى مكانها عندما ينتهي السوق فتفك وتكدس فوق بعضها .. وكان ارباب البيوت يدفعون لنا عشرة كوبيكات ثمن كل لوح جيد من الخشب وكنا نستطيع سرقة لوحين أو ثلاثة في النهار ..بيد أن عملية سرقة الالواح كان ينبغي أن تجري في الايام الماطرة أو التي يسودها الضباب وعندمـا يكون الحراس داخل المخـافر ..

وكانت العصابة التي اعمل فيها شلة من الفتيان الطيبين. منهم سانكا فياخير الملقب بالحمامة ، فتى في العاشرة من عمره ، رزين ، مرح الطباع ، وكان هناك كذلك اليتيم كوستروما واسع العينين شديد النحول وقد شنق نفسه فيما بعــد عندمــا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، في اصلاحية للاحداث لانه سرق زوج حمام .. وكذلك غابي الملقب بشمشون فتي في الثانية عشرة من عمره وقد جمع الى جانب قواه الجسدية نفساً طيبة ساذجة .. و (ياز) صاحب الانف الافطس في الثامنه من عمره لا يأتي حركة ويبقى ساكناً وقد اصابه (الداء الاسود) ، وفي النهاية كبير عصابتنا ، وهو شخص عاقل ، يوجه للكلمات بخفـة ، يدعى ريشكا شوركا .. وكنا جميعنا نقطن في نفس الشارع ..

لم تكن السرقة جريمة في نظر سكان حينا ، بل كانت الطريقة الوحيـــدة تقريباً ، التي يستطيع معظم الاناس الذين يتضورون جوعاً أن يحصلوا بواسطتها على لقمة العيش ..

كان الاولاد يعمدون الى سرقة المطارق من النجـارين وحذوات الاحصنة والحمير من اصحاب العربات ، بيد ان عصابتنا لم تكن تأتي مثل هذه الاعمال مطلقاً ..

قال شوركا ذات يوم .

– انني لن اعمد الى السرقة بعد الآن ، فامي لن تسمح لي بذلك .
واضاف غابي .
– وانا لا تعجبني اتيان هذه الاعمال.
وفي بعض الاحيان كان يقع بيننا الخصام .. بيد انني لا اتذكر ابداً اننا تشاجرنا مرة واحدة ..

كان الحمامة يقوم بدور القاضي بيننا فهو قادر على ايجاد الكلمات التي تحد من اهوائنا . كلمات في غاية البساطة كانت تعجبنا وتجعلنا نخجل من انفسنا . حتى هو نفسه كان يندهش حين يتلفظ بها . ولم يكن يستاء مطلقاً من الآعيب ياز الدنيئة ، بل يتجاهل بهدوء تام كل ما يحدث منها على اعتبارها عديمة الجدوى . كان يسأل :

– لماذا فعلت هذا الشيء ؟
فندرك جميعنا ان ذلك العمل لم يكن له معنى في الحقيقة ..
كان يطلق على امه لقب (مُردافيتي) فكان يغرق في الضحك وعيناه المدورتان تشعان ضياءً .. بيد ان احداً منا لم يجد في ذلك ما يضحك ..
كان يحدثنا عنها ويقول :

– في الليلة الفائتة رجعت مرادفيتي الى المنزل وقد شربت الخمرة حتى ابتلت فتعثرت على عتبة الباب وتمددت هناك ، يا لها من دجاجة شمطاء ! حتى انها استغرقت هناك في النوم ، والرياح تعصف بحرية تامة في ارجاء الغرفة ، وانا ارتعد من البرد لانني غير قادر على جر جسدها الى الدار . وقد سألتها هذا الصباح : (ماذا تبغين من هذا السكر ؟) . فأجابت : (لا بأس عليك . ينبغي عليك ان تتحمل ذلك بعض الوقت ، فانني لا بد مائتة قريباً !) .
فأكد شوركا بخطورة :
– بكل تأكيد ! سوف لن تعمر طويلاً ؟ هلا شاهدت كيف انتفخت ؟

سألت بدوري

– هل ستأسف لذلك ؟

فأجاب الحمامة وقد بدت عليه الدهشة :

– طبعاً ! انها كانت أماً طيبة لي .

وبالرغم من اننا كنا نعلم المعاملة التي تعامل بها ولدها ، فقد كنا ندرك انها من أصل طيب .. وقد كان شوركا في بعض الايام التي يزداد فيها رجحنا يقترح :

– لينقد كل منا كوبياً واحداً للحمامة حتى يشتري الفودكا لأمـــه ، وإلا جلدته .

كنت انا وشوركا الوحيدين اللذين يلمان بالقراءة والكتابة ، وكان الحمامـة يحسدنا على هذا ، فيهدل دائماً شاداً اذنيه الشبيهتين باذني فأرة قائلا :

– عندما تموت موردافيتي سأركض إلى المدرسة . واجثو عند قدم الاستاذ مستغفراً كي يقبلني تلميذاً . وعندما انتهي من الدراسة سأصبح بستانياً عنـد الاسقف وربما عند القيصر نفسه .

وفي ربيـع ذلك العام ، ماتت الموردافية مع عجوز كانا يجمعان التبرعـات لبناء كنيسة جديدة ، عندما هوت فوقهما كومـة من الاخشاب . ونقلت إلى المستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

– تعال واقطن معنا . سوف تعلمك والدتي القراءة .

وبعد مدة من ذلك . توقف الحمامة امـــام مخزن ذات يوم ، ورفع رأسه بافتخار وشرع يقرأ :

– « بلافية » ...

فقال له شوركا مصححاً :

– بقالية ايها الفاطن !

– اعلم ذلك ، بيد ان مراجع الكلام تختلط عليّ

– مخارج !

– ان الاحرف تنتقل من تلقاء نفسها كأنها سعيدة لأن الناس تقرؤها .

وقد كان شغفه بالاشجار يسري عن انفسنا ... وعندما كان احدنا يفترش الاعشاب ، كان الحمامة يؤنبنا مغتاظاً :

– انكم تفسدون الاعشاب ؟ ألا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك سيان عندكم .

وفي حضوره كنا لا نستطيع ان نقتطع غصناً من البيلسان المزهر أو من الصفصاف المنتشر على صفاف الأوكا . كان يخاطبنا عند ذلك . هازاً بكتفيه مندهشاً :

– لماذا دائماً تفسدون الاشياء ، ايها العفاريت ؟

وكان ذلك الاستغراب يخجلنا ...

وطوال الاسبوع ، كنا نجمع الاحذية البالية من الساحات استعداداً لرياضة ايام السبت ، فكنا نختبىء وراء زاوية في الشارع ننتظر ان يغادر التتاريون الذين يعملون في العتالة الرصيف السيبيري كي نرشقهم بالاحذية . كانوا في بادىء الامر يغتاظون فيطاردوننا ثم سرعان ما تلذهم التسلية ، فكانوا يتسلحون بدورهم بالاحذية العتيقة استعداداً للمعركة ، حتى انهم كانوا يسرقون اشياءنا بعد ان عرفوا مكانها . بيد اننا اعترضنا على ذلك :

– هذا ليس لعباً .

كانت المعركة تستمر حتى هبوط الظلام . وكان بعض الاطفال البورجوازيين يراقبوننا وقد استتروا وراء احد المنعطفات . محتجين على إزعاج الناس ... حتى ان احدنا كان يتلقى صفعة قوية سرعان ما تزول ذكراها بلذة القتال .

وبعد ان ينتهي القتال كان التتاريون يرافقوننا حتى بيوتهم مقدمين لنا بعضاً من لحوم الخيل والخضار المطبوخة وبعد ذلك كانوا يقدمون لنا الشاي الكثيف .

فقد كانت معاملتهم لنا لطيفة ..
كانوا يضحكون ضحكاً مبرحا .. حتى تسيل الدموع على وجناتهم .

وكان احدهم « موجيك من كاسيموف ، افطس الانف ، خارق القوة ، فقد حمل ذات يوم جرس الكنيسه ، وهو يزن قنطارين ، من احد المراكب حتى ضفاف النهر ، يهدُّ وهو يضحك ولا ينفك يصرخ :

– او .. و .. و ! أو .. و .. و .. ! إن الكلمة عصفور . ان سمعت الكلمة امسكت العصفور ، عصفور ذهبي .

وذات يوم حمل الحمامة في يده ورفعه في الهواء قائلا

– إمضِ وعش هناك في السماء !

كنا نجتمع في الايام الماطرة في بيت صغير في المقبرة حيث يعيش ياز مع أبيه . وقد ابتعنا شيئا من الشاي وبعض السكر والخبز وقليلا من الفودكا لوالد ياز ... كان شوركا يعطي الاوامر قائلا :

– اشعل القناديل ، ايها الموجيك الخبيث !

وعند ذلك يتعالى ضحك الموجيك ويطيع الاوامر ، بينما نأخذ نحن بانتظار غليان الماء نتسامر في شؤوننا الخاصة وهو يمطرنا بالنصائح :

– احذروا جيداً وافتحوا أعينكم . ستقام في دار آل تروسوف وليمة احتفالية بعد غد احتفاء بذكرى احد المتوفين . وسيكون هناك عدد كبير من العظام .

فيزيد شوركا ، وعنده الخبر اليقين دائما :

– إن طباخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها دائما .

فيتطلع الحمامة عبر النافذة إلى المقبرة ويقول متأملا :

– سيصبح الطقس بديعا ، وعند ذلك نستطيع الذهاب إلى الغابات .

كان والد ياز يعد الطعام فيضع على المائدة اكوابا عديدة مختلفة ويسكب لنا الشاي بينما يحتسي هو شيئا من الفودكا ، ويعتلي الموقد حيث يشاهد من

علي بعينين كعيني البوم ، مدمدماً :

— لتحل عليكم اللعنة ! هل انتم كائنات بشرية ، ام ماذا ؟ تفو ! جماعة من اللصوص ، ليحفظنا الله من الليالي المظلمة التي لا تنتهي .

— بيد اننا لسنا بلصوص .

— اذن لصوص صغار !

وعندما يرهق والد ياز أعصابنا ، كان شوركا يصرخ بشدة في وجهه :

— إخرس ، ايها الموجيك اللئيم !

كنت وشوركا والحامة لا نطيقه ولا نحب الاستماع اليه وهو يحصي مرضى الحي ، ويسأل نفسه من سيموت قبل الآخرين ... وعندما يجد ان رواياته تضايقنا يأخذ في السخرية منا :

— انكم تخافون ايها الصعاليك الصغيرة ! هناك رجل كبير سيموت عما قريب . ولن يمتد الزمن به طويلا .

فنحاول ان نجبره على السكوت بيد انه يستمر قائلا:

— وسوف يأتي دوركم . فلا تنتظروا ان تعمروا طويلا فوق هذه الاكداس النتنة حيث تعيشون .

فيقول الحامة

— سوف نموت ونصبح ملائكة .

فيقول والد ياز بلهجة مندهشة :

— انتم ؟ ملائكة ؟

ثم ينفجر ضاحكاً ، ليعود الى رواياته البشعة عن الجثث.وفي بعض الاحيان يأتي على ذكر اشياء غريبة في صوت خافت :

— انتبهوا ، ايها الفتيان ، بالأمس قد دفنوا سيدة ذات قصة غريبة . ولقد علمت كل شيء عنها ، ما رأيكم في ذلك ؟

كنا نصغي اليه بانتباه فائق وهو يقص بصورة مضطربة فيتوقف عن كلامه

طارحا علينا اسئلة عديـدة . بيد ان ما يقوله كان يترك في ذاكرتنا بقـــايا مثيرة .

ـ لقد سألوها : « من اشعل النار ؟ » . فقالت : « انا اشعلتها » .

فقالوا : « كيف ذلك ايتها المجنونة ؟ فقد كنت تلك الليلة في المستشفى » .

فأجابت : « انا اشعلتها » . والآن ، ما الذي يدفعها إلى التصريح بهـــذه الاشياء ؟ ليحفظنا الله من الليالي السئيمة !

بيد ان شوركا كان ينهض واقفا قبل هبوط الظلام قائلا :

ـ انني ماض الى المنزل ، سوف تقلق والدتي ، من يصاحبني ؟

فنذهب بصحبته جميعا ... ويرافقنا ياز حتى سور المقبرة ، حيث يقفـل البوابة ضاغطا على قضبانها الحديدية وهو يودعنا .

فـــنرد عليه التحية قلقين مـــن تركنا إياه في المقبرة . وذات مساء التفت كوستروما إلى الوراء قائلا :

ـ سوف ننهض ذات صباح بديـع فنجده قد فارق الحياة .

وفي اغلب الاحيان كان شوركا يقول ان ياز يحيى حياة اسوأ منا جميعاً ، فيعترض الحمامة قائلا :

ـ نحن لا نحيا بشكل سيىء مطلقاً .

فكنت اثني على كلامه . كنت اجد اللذة في حياة الشوارع كما أجدها مـع رفاقي ، حتى انني أشعر برفقتهم برغبة عظيمّة في مساعدتهم جميعا ...

وعدت إلى المدرسة لأجد المتاعب ، فقد شرع التلامـذة ينادونني بالمتسول وجامع الاسمال ، ثم نقلوا إلى الاستاذ ، بعـد مشاجرة عنيفة وقعت بيننا ، ان رائحة غريبة تفوح مني ، حتى ليستحيل الجلوس بجانبي .ومــا برحت اذكر كم آلمني ذلك الادعاء .وكم وجدت من الصعب عليّ أن ارجع بعد ذلك إلى المدرسة كان الادعاء افتراء دنيئا لأنني كنت على الدوام اغتسل جيداً كل صبـاح ، ولا أعود إلى المدرسة بذات الثياب التي ارتديها عندما اجمع الاسمال .

وفي النهاية اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح عظيم ، كوفئت عليه بشهادة شرفية وهدية مؤلفة من كتاب التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتاب آخر يحمل عنوانا مبهماً « فاتا مورجانا » . وعندما عدت إلى الدار حاملا معي هذه الهدايا ، اغتبط بها جدي كثيراً ، وانتابه سرور عظيم معلنا انه من الواجب الاحتفاظ بالكتب بمكان امين ، ولذلك سيحتفظ بها في دولابه . وقد ألم مرض بجدتي جعلها تلازم الفراش منذ عدة ايام ...

وحملت الكتب إلى أحد الباعة ،فاشتراها مني بخمسة وعشرين كوبيكا رجعت بها الى جدتي . وأفسدت الشهادة الشرفية بان « خرظشت » عليها ثم اعطيتها الى جدي الذي وضعها في دولابه بعناية فائقة من غير ان ينتبه إلى ما فعلته بها .

وما ان انتهيت من المدرسة ، حتى رجعت إلى حياة الشوارع التي أصبحت مع قدوم الربيع أكثر روعة وسحراً ... وأمسينا نكسب الآن كمية أوفر من المال ، حتى اننا اصبحنا في ايام الآحاد نجوب الحقول والغابات ثم نعود في المساء إلى المنزل منهكي القوى ورغما من كل ذلك فالغبطة تملأ اساريرنا ،فتأصلت روابط الصداقة فيما بيننا .

بيد ان هذه الحياة لم تدم طويلا ، فما لبث زوج أمي ان فقد عمله فتركنا إلى مكان ما ، فأتت امي واخي الصغير نيقولاي ليسكنا مع جدي . وبما ان جدتي قد مضت للاقامة في منزل تاجر غني لكي تطرز له غطاء السيد المسيح ، كان من واجبي أن أسهر على تمريض اخي الصغير .

كانت امي الناحلة الصامتة ، تكاد لا تقوى على رفع قدمها عن الارض ، وكان اخي الصغير مصابا بقروح في يديه ، يذوي من الضعف ، حتى يكاد ان يعجز عن البكاء . فاذا جاع اخذ يئن بصوت يقطع نياط القلب واذا غفا أخذ يصعد زفرات قوية كالهر .

وذات يوم بعد ان تفحص جدي الرضيع قال :

— ان ما يحتاجه هو الغذاء الجيد ، لكن من اين لي ان اطعمكم جميعا ؟

فتنهدت امي واجابته بصوت خافت :

– انه ليس بحاجة إلى شيء كثير .

– هذا صغير .. وذاك صغير ... والجميع كثرة ...

وطوح بيده بشبه قرف ووجه إليّ الكلام قائلا :

– ان نيقولاي بحاجة إلى اشعة الشمس . فامض به إلى الرمال ...

اخذت كيساً من الرمل النظيف الجاف ، وجمعته في بقعة تطالهـا اشعة الشمس تحت النافذة ، وقد واريت فيها اخي حتى العنق كما أمرني جدي ، فأسر لذلك ... كنت احبه حباً جما .. فأظن انه يدرك كل أفكاري فأتمـدد إلى جانبه ساعات طوال تحت النافذة .. كان نيقولاي يخلص ذراعيه ويمدهما نحوي هازاً برأسه الشاحب اللون ... وعندما يأتي الهجير كان جدي يمد راسه مـن خلال النافذة ويقول : « الغداء » .

وفي بعض الاحيان كان يأخذ اخي ويضعه على ركبتيه ويطعمه الغـداء ، فكان يمضغ له الأكل المؤلف من الخبز والبطاطا قبل ان يدسه بين شفتيه .. وبعد ان يتناول الرضيع كمية من الطعام يأخذ جدي في رفـع قميصه ويتحسس معدته قائلا :

– لست ادري ان كان هذا يكفي ، اعتقد انه يلزمه كمية اخرى صغرى !

فتجيب امي القابعة في الزاوية حيث تضطجع :

– الا تراه يمد يديه نحو الخبز ؟

– ان الطفل لا يدري ان كان قد اكتفى أم لا .

فكان يلقمه كمية ثانية قائلا في النهاية

– إمض به إلى والدته .

فكنت عندما آخذه بين ذراعي ، كان اتيته يتعالى ماداً ذراعيه نحو المائدة وكانت أمي الهزيلة كشجرة عارية ، تقوّم نفسها مادة ذراعيها الهزيلتين اللتين قد ذوى منها اللحم . كنت اشعر انها مشرفة على الموت .. وكـان جدي

يؤكد ذلك في حديثه عن الموت.. كان سرير جدي قائماً في الزاوية . فكان عندما ينام يسرح ناظريه عبر النافذة . وقبل ان يغرق في نومه يدمـدم بينه وبين نفسه :

— لقد آن أوان الموت . وسوف نقابل الله .. ماذا عسانا أن نقول؟ لقـد عملت طوال حياتي وهذا ما حصدنا !

كنت اضطجع بين النافذة والموقد في مسافة تقصرني جداً . فأدفع بقدمي تحت الموقد حيث لا تنفك الصراصير تدغدغ قدمي .. كان جدي عندما يعـد الطعام على الدوام، يكسر زجاج النافذة بطرف الملقط ووجدت انه من المضحك أن رجلا مثله لا يحاول قطع الطرف الذي يلامس الزجاج لينتهي من ضره .

وذات يوم ، بينا كان شيئاً ما يغلي على الفرن ، اخذ الملقط ودفعه بشدة حتى تحطم الزجاج ومصراع النافـذة وتهاوى الوعاء . فكانت تلك مصيبة كبرى اقعدت العجوز على الارض حيث شرع في البكاء . كان يولول :

« آه يا إلهي ، آه يا إلهي ! » .

وعندما مضى خارج البيت ، اخذت سكين الخبز وقطعت به طرف الملقط. وعندما عاد جدي إلى البيت وشاهد ما فعلت ، صرخ :

— ايها الشيطان ، كان ينبغي ان تنشره ، هل انت سامع ؟ تنشره بالمنشار! كان باستطاعتنا ان نصنع منه قطعاً من الدبابيس ونبيعهـا ، أف لهذه العشيرة البلهاء .

وعندما خرج مسرعاً ، قالت لي والدتي :

— من المستحسن أن لا تمد يدك إلى مطلق شيء .

وفي ظهيرة يوم الاحد من شهر آب توفيت . كان زوجها قد رجع مجدداً من سفره حيث وجد عملا ، حيث استأجر جناحاً نظيفاً صغيراً واخذ معه جدتي ونيقولاي ، وكانوا سينقلون والدتي اليه بعد ايام قلائل ...

وفي صباح اليوم الذي توفيت فيه ، قالت لي بصوت خافت واضح :

ـ إمضِ واخبر يفجيني فاسيليفيتش بانني أود مشاهدته .
ونهضت مستندة إلى الحائط ...
اردفت ، وهي ترتمي ثانية على الوسائد .

ـ أعدو سريعاً !

لاحظت ان نوراً يسطع من عينيها وابتسامة تراود شفتيها ... كان زوج والدتي في الكنيسة ، فأرسلت بي جدتي إلى اليهودية كي ابتاع لها بعض « العطوس » . ولم يكن لدى هذه الاخيرة شيء جاهز منه ، مما ينبغي أن أنتظرها حتى تجهزه .

وفي النهاية عندما رجعت الى المنزل ، رأيت امي جالسة وقد ارتدت ثوباً جميلا ليموني اللون ، وقد سرحت شعرها ، متكبرة مزهوة كما كانت في الماضي .

سألتها بلهجة خجلة ، من غير ان اعلم سبب ذلك :

ـ هل انت احسن حالاً ؟

فحدجتني بنظرة مرعبة وقالت :

ـ اقترب مني ، اين كنت تلهو ؟

وقبل ان اجيبها ، اخذتني من شعري وتناولت من على المائدة موساً طويلا ولطمتني بسطحه حتى سقط من يدها . قالت :

ـ تناوله ، هاته !

فأخذت الموسى واضعاً إياه على المائدة ، ومضيت لأجلس إلى الموقد وأنا اتأمل والدتي بعينين فزعتين .

نهضت وسارت ببطء نحو الزاوية حيث تهاوت على الفراش واخذت تمسح العرق الذي يبلل وجهها . كانت يدها تتحرك مذعورة وقد تهاوت على الوسادة مرتين اثنين والمنديل يرتجف بين اناملها .

ـ قليلا من الماء ...

ملات قدحاً من الماء وناولتها إياه فرفعت رأسها بصعوبة وارتشفت جرعة منه . ودفعتني بيد باردة وهي تصعد زفرة عميقة. تأملت في الزاوية ، ثم حركت شفتيها كأنها تبتسم ، ثم ارخت جفنيها الطويلين بتثاقل على عينيها .. بينما فغر فمها في ذعر ولم يصدر عنه أي صوت وتوقف التنفس .

بقيت هناك مدة خلتها اجيالاً طويلة والقدح في يدي اتأمل وجه امي وهو يتغضن مكتسباً اللون الرمادي .

دخل جدي ، فقلت له :

ــ لقد توفيت امي .

فألقى نظرة عجلى على السرير وقال :

ــ لماذا تكذب ؟

ثم توجه إلى الفرن حيث شرع يحرك الفطير مثيراً ضجيجاً عاليا . تأملته وانا ادرك ان امي قد توفيت وانتظرت ان يتحقق من ذلك .

وولج زوج والدتي ، تناول بهدوء تام كرسيا وحملهـا إلى جانب السرير ، وفجأة وقعت الكرسي من يده وصرخ بصوت مرعب :

ــ لقد ماتت ! هل ترى !

فاندفع جدي نحو السرير ، والملقط في يده ، وكادت عيناه ان تبرزا من محجريهما ..

عندما اخذوا يهيلون الرمل على نعش امي ، شرعت جدتي تنتقل بين القبور على غير هدى .. فارتطمت بأحد الصلبان ، وارتمت على الارض وقــد تضرر وجهها . فحملها والد ياز إلى منزله . وبينما كانت تغسل جرحهـا همس في أذني بصوت خافت بكلمات معزية :

ــ ليحفظنا الله من الليالي السئيمة ، مــاذا جرى لك ؟ ينبغي ان لا تشغل نفسك بهذا الامر ، ألست على صواب ، ايتها الجدة ؟

ورنا عبر النافذة ، وفجأة عدا خارج المنزل .. ليرجع بعد قليل جارا معـه

الحمامة .. قال الرجل الهرم ملوحا بمهاز محطم في يده .

– تأملوا هذا تأملوا ما وجدنا . اننا انا والحمامة نقدمه هدية لكما . هـــل تشاهدون هذا الدولاب الصغير ؟ لقد سقط من حذاء أحـــد القوازف . كنت أنوي أن أشتريه من الحمامة فقد عرضت عليه كوبيكين ...

فدمدم الحمامة مغتاظا :

– ما الذي يحرك على الكذب ؟

واخذ والد ياز يقفز امامي غامزاً بعينه :

– ما قولكم به .. ان الحمامة يقدمه هدية لكما ، إنه ...

عندما انتهت جدتي من غسل وجهها لفته بمنديل ونادتني لمرافقتها إلى المنزل بيد انني رفضت .. فقد كنت ادرك انهم سيتشاجرون حتما في الوليمة التي تتلوا المأتم . فقد تناهى إلى سمعي ، عندما كنا في الكنيسة صوت الخـــال ميخائيل يقول للخال يا كوف :

– سوف نأخذ قدحا لذيذاً هذا النهار ، ما رأيك ؟

فحاول الحمامة ان يخفف عني ... فقد علق المهاز بذقنه وجرب ان يتوصل اليه بلسانه ، وشرع والد ياز يغرق في ضحك واضح المعالم انه يبالغ فيه ، وهو يصرخ :

– ارأيتم ما يفعله ، انظروا .

بيد انه عندما وجد ان ذلك قد فشل في محاولة تسليتي ،قطب جادا فقال :

– يكفي ، يكفي ! ان كل انسان مائت حتى العصافير ، اسمع سوف أضع بعض الاعشاب حول قبر والدتك ، هـــل تحب ذلك ؟ سوف نطوف البراري ونجمع ذلك العشب جميعنا ، انا والحمامة وانت وولدي ياز كذلك . سوف نحضر العشب ونضعه حول القبر بشكل جميل حتى لا يكون هنالك من قبر يضاهيه روعة وجمالاً .

لقد راقتني هذه الفكرة ، فمضينا جميعا إلى البراري ...

★★

وبعد فترة وجيزة من وفاة والدتي قال لي جدي :

– حسنا يا الكسي ! انني في الواقع لا استطيع أن أجعل منك مدالية فضية تتدلى حول عنقي ! فلم يعد يوجد لك مكان هنا بعد اليوم . فقد حان الوقت حتى تخرج إلى الحياة وترى الناس ..

وهكذا خرجت منطلقا في الحياة إلى ما بين الناس .....

●

١٤

... لقد اصبحت الآن بين الناس انني « شغيل » في مخزن لصنع الاحـذية كائن في الشارع الرئيسي من المدينة .

أما صاحب العمل فقصير القامة مربوعها .. تضرب اسنانه الى الخضرة ، أما عيناه فتميل إلى لون الماء العكر . ظننته كفيف البصر ، فأخـذت أقطب في وجهه لكي اؤكد ظني .

قال لي بلهجة حازمة خافتة :

ــ لا تكشر هكذا !

فلم اصدق ان تكون عيناه تستطيعان الرؤية فقـد كرهت ذلك كثيراً . وظننت أن رب عملي قد خمن ما أتيته ليس إلاّ .

لكنه أصر بعناد اكبر ، يكاد ان لا يحرك شفتيه :

ــ لقد قلت لك أن لا تكشر هكذا !

فأتاني صوته الخفيض كانه يلاحقني :

ــ ولا تحك يديك . يجب أن تعلم انك تعمل في مخزن من الدرجة الاولى يقع في وسط المدينة . يجب ان يقف الشغيل عند الباب جامـدا كالتمثال لا يأتي حركة .

لم اكن على علم بماهية التمثال . كما انني لم اجد سبيلا إلى عـــدم حك ذراعي الملطخة ببقع حمراء لا ترحم .

سألني وهو يختلس نظرة إلى يدي :

— ماذا كنت تعمل في البيت ؟

وعندما اخبرته بعملي هز رأسه المستدير . الذي يلتصق فيه الشعر الأشيب في طبقات ، قال غاضباً :

— جمع الاسمال البالية ... هذا اسوأ من الشحادة ، حتى من السرقة .

فصرخت بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :

— ولقد سرقت كذلك .

عند ذلك استند إلى مرفقيه ، وحدجني بنظرة منـــدهشة ، وصفر وهو جالس إلى مكتبه :

— ما .. ذا ؟ هل قلت انك سرقت؟

فأوضحت له الامر ولماذا فعلت ذلك ...

— حسناً لننسَ ما حدث.. لكن إياك ان تسرق دراهمي أو احذيتي فسوف أدك بك في السجن حتى تبلغ سن الرشد .

قال ذلك بلهجة هادئة . الامر الذي ذعرت له وضاعف من كراهيتي له .

كان في المخزن مساعدان لرب العمل : ابن خالي ساشا (ابن الخال ياكوف) ومساعد كبير ، وهو شاب ماهر . نحيف القوام ، مرح النفس . وكان ابن الخال ياكوف عظيم الاعتزاز بنفسه حتى انــه كان يتجاهل وجودي ويتنكر لي .

فعندما أتى بي جدي إلى صاحب المخزن وطلب من ساشا ان يساعدني في تعلم اسرار المهنة ، قطب ساشا ما بين حاجبيه بخطورة وقال :

— يجب عليه اولاً ان يعرف كيف يطيعني .

فدغدغ جدي رأسي بيده وقال:

ـ أطعه ، فهو أكبر منك سناً ومركزاً .

وعند ذلك حدّج ساشا بنظرة ذات معنى وقال :

ـ يجب أن تذكر كلمات جدك !

وطفق يستغل تقدمه في السن عليّ منذ أول يوم .

نبهه صاحب العمل قائلاً :

ـ كفاك حملقة يا كاشرين !

فحنى ساشا رأسه واجابه :

ـ انا ، اني لم احملق أبداً .

ويكون صاحب العمل لم ينته بعد من توجيه الارشادات اليه ..

ـ لا تشد بذقنك هكذا ... قد يحسبك الزبائن تيساً .

فضحك المساعد الأكبر بلهجة متحببة .. أما ساشا فتوارى تحت المكتب وقد علا الاحمرار وجنتيه من الخجل .

لقد سئمت هذه الكلمات : فهؤلاء الناس يستعملون كلمات غريبة حتى اظنهم في بعض الاحيان انهم يتكلمون لغة اجنبية .

وغالباً ما كان المعلم يذهب إلى غرفة صغيرة كائنـة في آخر المخزن وينادي ساشا ، ويترك مساعده الاكبر مع بعض الزبائن . وما زلت أذكر انه في ذات مرة قد مس ظهر قدم سيدة شقراء سمينة ، ثم جمع رؤوس انامله إلى بعضهـا وطبع عليها قبلة .

قالت المرأة بغنج :

ـ آه ! ... يا لك من خبيث

فانفجرت عند ذلك ضاحكاً بصورة مجنونة ، وقد تمسكت بقبضة البـاب حتى لا اقع فانفرج الباب واصطدم رأسي بزجاج فهشمه وسقطت ارضـاً ... فرفسني المساعد الأكبر ، في حين أن صاحب العمل قد دك رأسي بخاتمه المعظم . وحاول ساشا أن يشد اذني . ونبهني بلهجة حازمة ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل قائلاً :

ـ في المرة القادمة سيكون مصيرك الطرد.. ما الذي اضحكك بهذه الصورة؟

كنت اجد حياتي الآتية باعثة على الضجر والملل . بعد ان اعتدت حياة اللهو والحقول والحرية والطواف على طول ضفتي نهر الاوكا ، أو في شوارع كونافينو الرملية . وكنت أشتاق إلى اصدقائي وجدتي .. فلا أجد انساناً اتكلم اليه ، ما عدا الجانب الخدّاع من الحياة الذي كان يثير غضبي وحنقي .

فغالباً ما كانت السيدات يغادرن المخزن من غير ان يبتعن شيئاً ، وعند ذلك يثور غضب صاحب المخزن وقد ألم به الفشل ، فيأمرني وقد توارت عن شفتيه تلك الابتسامة المريبة :

ـ كاشرين . ارجع الاحذية إلى أماكنها :

ثم يشرع في كيل السباب والشتائم من غير حساب :

ـ اتت تلك الخنزيرة تلوك بخرطومها هنا ، لقد كلت من الجلوس في البيت، فأتت تنفس عن نفسها بالتجوال في المخازن . آه لو كانت زوجتي لأريتها نجوم الظهيرة ...

وبعد الغداء تمدد صاحب المخزن في الغرفة الصغيرة .. فنزعت غطاء ساعته الذهبية وسكبت بعض الخل في آلاتها . وكم كان سروري عظيماً عندما شاهدته يدخل المخزن بعد أن أفاق من نومه وقد امسك بالساعة في يده ، وهو يدمدم :

ـ ما قولكما في هذا الامر ؟ لقد عرقت ساعتي من غير انتظار . لأنه لم يحدث من قبل أن عرقت . تأملا ذلك ! هذا بشير شؤم !

وذات يوم ، بينما كنت افرغ صندوقاً جديداً في الساحة من البضاعة ، دنا مني حارس الكنيسة ، رجل هرم مشوه الكتفين ، نحيل الجسم بالي كالأسمال .

سألني :

ـ هلاّ سرقت لي حذاء يا صغيري ؟

لم اجبه ، بيد انه جلس على صندوق فارغ ، وهو يتثاءب ثم رسم إشارة

على شفتيه ، مكرراً سؤاله :

ـ هلاّ فعلت ذلك ؟

فأجبته :

ـ ان السرقة أمر باطل .

فقال :

ـ لكنها تقع ، هيا يا عزيزي ، وقم بذلك احتراماً لشيخوختي .

كان يبدو لي مختلفاً عن الآخرين . بشكل يبعث الطمأنينة ، وبقي يلح عليّ حتى قبلت اخيراً أن القي اليه بالحذاء عبر النافذة .

قال بلهجة هادئة ، ولكن بصورة غير مرضية :

ـ حسناً ! انت لن تغشني ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، فأنا أعلم أنك لست من الذين يسخرون من الناس .

وبقي جالساً مدة وجيزة من غير أن يتكلم ثم قال فجأة :

ـ لكن ماذا لو كنت أنا أغشك ؟ ماذا لو اخذت هذا الحـذاء إلى صاحب المخزن وقلت له بأنك قد بعتني إياه بنصف روبل وثمنه يساوي روبلين ، مـا رأيك؟

تأملته بدهشة ،كأنه أبلغ ما وعد ، بينما أردف بصوت خفيض :

ـ ما رأيك لو أن صاحب المخزن هو الذي دفعني إلى ذلك « إمض وجرب هذا الفتى الذي يعمل عندي ، وتحقق من مقدار أمانته » . ماذا عند ذلك ؟

فقلت مغتاظاً :

ـ لن أعطيك إياه !

فرد عليّ قائلا :

ـ انك لا تقدر على التهرب بعد أن وعدت بذلك .

وأمسكني من يدي وشدني نحوه ، ونقر على جبهتي وهو يقول :

ـ كيف رضيت ، بهذه البساطة . (خذ حذاءك) !
ـ لقد طلبته ، أليس كذلك ؟

ـ انني قادر على طلب أشياء عدة . فلو سألتك أن تسرق الكنيسة فهل تسرقها ؟ كيف تستطيع أن تثق بهذه البساطة في الناس ، أيها الأبله الصغير ؟
ونهض وهو يدفعني عنه :
ـ انني لست بحاجة إلى حذاء مسروق .. فقد كنت أمزح . وبما أنك قد وثقت بي فسوف أسمح لك بالصعود إلى برج الجرس . آتني في أسبوع الآلام ، حيث تقدر أن تشاهد المدينة وانت تقرع الجرس .

ـ انني أعرف المدينة .
ـ انها أجمل من البرج بصورة أكثر .
ومشى ببطء ، وهو يذري الثلج بعقبي حذائه ، حتى توارى وراء زاوية من الكنيسة . وبينما كنت أتأمله وهو يرحل ، أخذت أسأل نفسي باضطراب : هل كان هذا الرجل يمزح فعلا ، أم أن صاحب المخزن قد بعثه ليجربني . واختلجت نفسي بالخوف وأنا أدخل المخزن .

صرخ ساشا بي وهو يلج الساحة عدوا :
ـ ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت هنا ، بحق الشيطان ؟
فمررت « النتاشة » أمام عينيه وقد اجتاحتني موجة عارمة من الحقد .

كنت أعلم أنه والمساعد يشتركان في سرقة صاحب المخزن . وقد يخفيان عدد من الاحذية في مكان حتى يحين وقت الانصراف . فينصرفان وقد أخفيا المسروقات في أكمام معطفيهما ، وهذا ما أغاظني وأرعبني في وقت واحد لأنني لم أنسَ بعد وعيد المعلم وتهديده .
سألت ساشا :
ـ هل تسرق ؟

فأجاب محتداً :

ـ أنا لا أحاول السرقة مطلقاً ، بل إنني أساعد المساعد الكبير ، فهو يقول لي : « افعل ما أقوله لك ! » وأعتقد أنه سينتقم مني ان لم أفعل ما يأمرني به، أما صاحب المخزن فإنه كان يوما ما مساعداً في مخزن ما ، وهو يدرك جميع هذه الحيل . لكن يجب أن تلم لسانك !

كان يتأمل من غير انقطاع صورته في المرآة من غير أن يكف عن الكلام، ويسوّي من ربطة عنقه.. وكان يصدر دائماً أوامره لتقدمه في السن عليّ .فقد كان يزعق في وجهي بصوت جهوري ، ويومىء لي بتعجرف كبير .. كان يحقد على الطاهية وقد كانت غريبة لا يستطيع المرء أن يتحقق من أنهـا شريرة أم طيبة .

كانت تصر على أسنانها وتحملق بعينيها وهي تقول :

ـ أحب المشاجرة أكثر من أي شيء آخر ..

وكان اذا نشب قتال بين الحمام أو الديكة خارج البيت، كانت تترك عملها وتسرع الى جانب الحائط حيث تقبع واقفة الى أن ينتهي القتال .. وكانت في المساء تلتفت الى ساشا قائلة :

ـ لماذا تقبعان هنا ، أيهـا الصبيان ؟ لماذا لا تتشاجران في معركة وديـة .

فيشتعل ساشا حقداً :

ـ لست صبيا ، أيتها العجوز البلهاء ، انني المساعد الاصغر !

ـ ما أصعب تصديق ذلك ! سوف تبقى صبيا في نظري حتى يوم زفافك.

ـ أف لك من عجوز حمقاء ، خاوية الرأس !

ـ الشياطين ذكية ، والله لا يحبها !

كانت طريقة حديثها تغيظ ساشا .. فكأن يحاول مضايقتها وان فعل كانت

ترمقه بنظرة سريعة وتقول :

ــ تفو ! أيها الصرصور الحقير ، يا مصيبة الله الكبرى .

كانت ، عندما تشعر بالسأم والضجر ، تطلب مني أن أقص عليها بعض الروايات ، فأروي لها وانا نصف يقظان وهي ما زالت مطبقة الشفتين تهتز الى الوراء والامام . ويخيل لي أن رائحة من الشمع والبخور تفوح من جسدها ، وانها سرعان ما ستموت . . فأشعر بخوف يجتاحني ،فأرفع من صوتي .فتقاطعني قائلة :

ــ صه ! ستوقظ أولاد الزني هؤلاء فيعتقدون أنك عشيقي .

كانت دائماً تجلس في وضع معين حانية الظهر ، وقد التفت يداها حول ركبتيها وضغطت ساقيها بشدة على بعضها ، حتى أن أضلاع صدرها كانت تبدو من تحت قميصها الخشن . . كانت تقبع هكذا مدة طويلة وفجأة تقول بلهجة هامسة :

ــ ليتني أموت ، لكي أتخلص من هذا الشقاء !

أو تلتفت إلى أحدهم قائلة :

ــ لقد أمضيت أيامي ، فما هو نفعها ؟

حتى انها كانت لا تتوانى عن مقاطعتي في منتصف القصة لتقول لي بنبرة حادة :

ــ هيّا إلى النوم !

كان ساشا يناديها من وراء ظهرها : « الساحرة العجوز » وذات مرة قلت له أن يناديها وجهاً لوجه بهذا الاسم ، فصرخ :

ــ أتعتقد أنني أخاف ؟

لكن سرعان ما قطب وجهه وأردف :

ــ كلا ، لن أناديها بذلك في وجهها . فربما تكون ساحرة فعلا .

لم تكن ترحم أي شخص أبداً فهي الغضوب المتعجرفة ، كانت تشدني من

قدمي في السادسة صباحاً ، وتصرخ :

ـ يكفي شخيراً ، انهض واحضر الحطب ، وقشر البطاطا !

كان ساشا يهب من نومه على صوتِ صراخها ، فيصرخ في وجهها :

ـ لماذا تنبحين ؟ سأخبر صاحب المخزن بانك لا تتركين لنـا فرصة للنوم .

فتنهض وهي تسمر عينيها المشتعلتين في وجهه متجهة نحو المطبخ وتقول :

ـ تفو ، يا مصيبة الله الكبرى ! لو كنت أجيري لما أبقيتك لحظة.

فيسبها ساشا :

ـ لعنة الله عليك !

ثم يصرّح لي ونحن في طريقنا إلى المخزن :

ـ سأجعلهم يتركونها . سأضيف إلى الطعام كمية كبيرة من الملح في غفلة عنها وبما أن الطعام سيكون دائماً مالحاً فإنهم سيضطرون إلى طردها . بـــل سأضع بترولاً ، لماذا لا تفعل ذلك ؟

ـ لماذا لا تفعله أنت ؟

فصرخ في وجهي :

ـ جبان !

وتوفيت الطاهية أمام ناظرينا . فقد كانت منحنية لترفع شيئاً عن الارض ، فتدحرجت على جنبها وأرخت يديها ، وأخذ الدم ينزف من فمها .

وبقينا فترة عاجزين عن الكلام ، واخيراً انطلق ساشا خارج المطبخ ... وأقبل صاحب المخزن ، وجلس القرفصاء إلى جانبها مضطرباً ثم جس جسدها ، وقال :

ـ لقد توفيت فعلا . ما قولك في ذلك ؟

ثم أخذ يرسم اشارة الصليب ، حتى اذا انتهى من صلاته صرخ عـــبر المشى :

كاشرين ، انطلق واعلم الشرطة !

وأتى أحد رجال الأمن ، وأخذ يتنقل بتثاقل .. حتى قبض رشوة ومضى. وسرعان ما عاد بصحبة سائق عربة ، وحملا الطاهية ونقلاهـــا إلى الخارج . وكانت إمرأة صاحب المخزن تسترق النظر من فتحة الباب .

قالت تأمرني :

ـ أفرك الارض جيداً

وتنهد صاحب المخزن قائلا :

ـ حمداً لله أنها توفيت في المساء .

ولم أدرك لماذا يحمد الله على ذلك ..

وعندما اضطجعت في الفراش قال ساشا بلهجة غير معهودة من الرقة :

ـ لا تطفىء النور !

ـ هل أنت خائف ؟

فغطى رأسه باللحاف ، وركن إلى السكون مدة طويلة . وكان الليل بدوره هادئاً صامتاً كأنه يسترق السمع إلى شيء ما .وتخيلت أن رنين الأجراس سيتعالى بعد لحظة ، وان سكان البلدة سينهضون هلعين وهم يتدافعون في شيء من الخوف والجزع .

ثم أخرج ساشا أنفه من تحت اللحاف . واقترح عليّ بلهجة رقيقة :

ـ لننم جنباً الى جنب على الموقد .

ـ الحرارة شديدة هناك .

ثم غرق في الصمت من جديد...

وأخيراً قال :

ـ ألم تتركنا فجأة ؟ لقد ظننتها ساحرة . ان النوم لا يراود أجفاني .

ـ ولا أنا .

وشرع يتحدث عن الأموات ، وكيف ينطلقون من قبورهم الى البلدة في منتصف الليل . مفتشين عن منازلهم وأهلهم .

ثم همس في أذني قائلاً :

– الموتى يتذكرون البلدة فقط ، بيد انهم لا يتذكرون الشوارع والمنازل .

واشتدت السكينة وخيل إليّ أن الظلام يشتد حلكة ...

... كانت الرياح تعصف والمطر ينهمر ضارباً النافذة بحبيباته .. فاستدار ساشا تجاه الحائط ولاذ بالصمت.

وفجأة من غير أن يلتفت إليّ قال :

– مهلا حتى تجف أرض الحديقة .. سأريك شيئاً يبهر أنفاسك .

واتجهت إلى الفراش من غير أن أجيبه .

وبعد لحظات من ذلك هب من فراشه فجأة ، وأخذ يضرب الحائط ثم قال بصوت أدركت منه مبلغ خوفه وهلعه:

– إنني خائف .. آه يا رب ، هل أزلت خوفي ! يا ربّ ، ارحمني !

وفجأة سرت عدوى الخوف إليّ فشعرت برعشة خوف باردة تجتاح أوصالي وتخيلت الطاهية تقف إلىالنافذة وهيتشد نفسها إلى الزجاج وقد أولتنيظهرها، كما هي عادتها حين تراقب مشاحنة الديكة .

بعد بضعة أيام أقبل علينا عيد لم نشتغل فيه إلا قبيل الظهر ،فرجعنا أدراجنا الى البيت لتناول طعام الغداء ، وبعد أن آوى صاحب المخزن وزوجته لأخذ قسط منالنوم في الظهيرة أقبل عليّ ساشا خفية وقال:

– تعال معي !

وأدركت أنه في سبيل مرافقتي الى رؤية ذلك الشيء الذي سيبهر أنفاسي .

نزلنا الى الحديقة فاستدار ساشا حول البيت متجهاً نحو سور الشارع ثمتوقف تحت احدى الشجيرات ، وبقي واقفاً فترة طويلة يراقب المنزل المجاور وجلس

القرفصاء ، فجأة وأخذ يزيل كومة من الأوراق بيديه ، حتى كشف عن جذع معوج وقرميدتين قد غرقتا في الارض الى جانبيه. فأزاح القرميدتين فاذا بصفيحة من القصدير قد فرشت تحتهما ، وما ان أزاحها حتى شاهدت حفرة عريضة في باطن الارض .

أخذ ساشا عوداً من الثقاب وأشعل بقايا شمعة قد خبأها في تلك الحفرة . ثم قال :

ـ أنظر ، لكن لا تخف .

كان الخوف يرتسم على وجهه بوضوح تام ، فالشمعة ترتعد في يده ، واصفرّ لونه ووارى يده الثانية خلف ظهره ، وانتقلت عدوى الخوف إليّ ، فتأملت باحتراس بالغ إلى ما تحت الجذع الذي يشكل قوساً لكهف صغير. في حين أشعل ساشا ثلاث شمعات بهرت المكان بنور أزرق ، كان الكهف بالغ العمق وقد غطيت جدرانه بقطع من الزجاج الملون والفخار . وفي وسطه مرتفع صغير وضع عليه نعش قد صنع من القصدير الرقيق . شبه مغطى بقطعة من القماش تشبه النسيج الحريري . ومن تحت هذا الغطاء كانت مخالب رمادية لعصفور دوري تبرز مع منقاره الصغير .

كان نور الشمعات الثلاث يتجه نحو فوهة الكهف فيشكل ألواناً براقة متعددة . كان الكهف يعبق برائحة التربة والعفونة في فترات متراوحة ، بينما ارتسمت ألوان قوس قزح أمام ناظري . كل ذلك أثار في نفسي الدهشة وبدد خوفي وأزاله .

سألني ساشا :

ـ أليس هذا بديعاً ؟

ـ لكن ما فائدته ؟

فأوضح لي :

ـ إنه مكان حرم ، أفلا يبدو لك كذلك ؟

- لست أدري .

- العصفور الدوري يمثل الجسد . وربما أصبح جثمانه معجزة مقدسة لأنه قضى ضحية بريئة !

- هل عثرت عليه ميتاً ؟

- كلا . لقد دخل الكهف ، فاصطدته بقبعتي وخنقته .

- لماذا فعلت ذلك؟

- هذا ما حدث .

وحدجني بنظرة غريبة من جديد ، واستوضح :

- أليس هذا بديعاً ؟

- كلا !

فانثني وسد الكهف بسرعة بواسطة القطعة الخشبية ، وقطعة القصدير ثم أرجع القرميدتين إلى مكانهما ، ثم نهض واقفاً وهو يزيل التراب العالق على ركبتيه وقال بلهجة جافة :

- لماذا لم يعجبك ذلك ؟

- لأنني حزنت على ذلك العصفور الدوري .

ثم سرح نظره في نقطة بعيدة كأنه يسترجع شيئاً ما ثم لطمني على صدري فجأة ، وزعق قائلا :

- أحمق ! لقد زعمت أنه لم يعجبك لأنك تغار . بل ربما تعتقد أنك رتبت زاويتك في الحديقة بصورة أجمل ، هناك في شارع الكاناتنايا ؟

فأجبته من غير تردد ، وقد عادت صورة الزاوية إلى مخيلتي :

- انه فعلاً كذلك بكل تأكيد .

فنزع ساشا معطفه ورماه أرضاً ونفث في يديه وصرخ :

- حسناً إذن لنتقاتل .

لم اكن اجد رغبة في القتال في ذلك الحين فقد كنت متضجراً من كل ذلك .
فلم اعد اطيق رؤية وجه ابن خالي الغاضب .
هجم عليّ والقاني رضاً ثم جثم فوق اضلاعي صائحاً :
ـ الحياة ام الموت ؟

كنت اشد منه وقد ثار غضبي الآن . ولم يمض زمن حتى كان متهالكاً على الارض وقد خارت قواه ، واضعاً يديه فوق رأسه ، وجربت ان انهضه ، وقد شعرت بقلق عظيم بيد انه دفعني عنه،مما ضاعف قلقي . وابتعدت عنه لا ادري ماذا افعل .

ـ لقــــد تغلبت عليك الآن . سأظل متمدداً على الارض حتى يعثر عليّ صاحب المخزن وسأعلمه بكل شيء فيطردك .

واخذ يكيل لي الشتائم مما اثار غضبي ، فقصــــدت الكهف ، وانتزعت القرميدتين ، والقيت بعش العصفور من فوق السور ، ووطئت الحفرة بقدمي .
ـ اليك اليك هل شاهدت هذا ؟

كان رد فعل ساشا شديداً . فقد اقتعد الارض وفمــه نصف مشدوق ، وقد تقوس حاجباه ، يتأملني من غير ان يقول كلمة وعندما انتهيت مما فعلته ، نهض على مهله نافضاً عنه الغبار ، ثم القى بمعطفه على كتفيه ، وقال بلهجة هادئة فيها شيء من الوعيد :

ـ سوف تشاهد ما يحصل . مهلاً لقد فعلت هذا من اجلك فقط ، انــــه سحر ! وقد تم الآن .

فشعرت ببرودة تسري في اوصالي كالجليد فتهاويت في مكاني وابتعد عني ساشا من غير ان يتطلع وراءه .. حطمني ببروده ذلك .
وتم رأيي ان اهرب في صباح اليوم التالي من المدينة وصاحب المخزن ومن ساشا وسحره حتى من الحياة الرتيبة الموحشة .

صرخت الطاهية الجديدة وهي تنبهني من النوم في الصباح :
– يا الهي ! ماذا جرى لوجهك ؟
فقلت بيني وبين نفسي ،وقد انتابني شعور من الرعب :

– لقد بدأ السحر فعله !
بيد ان الطاهيه انفجرت ضـــاحكة حتى انني لم اتمالك نفسي من الابتسام عندما رأيت وجهي في مرآتها . كان وجهي قد غطي بطبقة كثيفة من الهباب .
سألت :
– هل ساشا فعل ذلك ؟
فقهقهت الطاهية قائلة :
– قد اكون انا التي فعلت ذلك .

وشرعت في تنظيف الاحذية بيد انني ما ان وضعت يدي داخل احداهـــا حتى لذعني وخز دبوس ، فقلت في نفسي :
– لعل هذا ايضاً من فعل السحر !
كانت الابر والدبابيس قد وضعت بأحكام في جميع الاحذية بصورة لا بد لها من وخز اللحم . فأخذت وعاءً من الماء البارد وصببته بغبطة كبيرة فوق رأس الساحر الذي كان لا يزال يغط في نومه أو أنه كان يتظاهر بالنوم .

بيد أن الشقاء من ذلك لم يغادرني . حتى انني لم استطع التخلص من رؤيا النعش الذي يلذب العصفور الدوري ومخالبه العارية بينما نور ساطع يشع مـــن حوله يحاول عبثاً ان يلم نفسه في قوس قزح . واتسع النعش وكبرت مخالب العصفور ، واخذت تكبر وتكبر، حتى دبت فيها الحياة .
قررت في تلك العيشة على الهرب . بيدا نني بينما كنت أسخن الحساء على النار قبيل الغداء، فسبحت في بحر من التصورات والاحلام وبقي الحساء يغلي كثيراً. وعندما حاولت اطفاء النار انقلب القدر على يدي فارسلت الى المستشفى .

كان الناس جميعاً وخاصة جدي وجدتي يرددون دائماً ان الناس يتضورون جوعاً حتى الموت في المستشفى . فادركت ان ايامي قد امست معدودة . واقتربت مني امرأة ذات نظارتين وكتبت شيئاً لم ادركه بالطبشور على لوحة مثبتة عند رأس سريري . فتكسرت الطبشورة وتناثرت على شعري .

سألتني :

-- ما اسمك ؟

— ليس لي اسم .

— ليس لك اسم ؟

— كلا .

— يكفي هزاراً ، وإلا ضُربتَ .

وانني كنت على يقين تام بانهم سيجلدونني ، أبيت ان اجيبها إلى طلبها .. فبصقت ثم توارت .

واشعل قنديلان واخذا يلتهبان كأنها يودان ان يتحدا بنور واحد .

تعالى صوت احدهم في زاوية ما :

— هيا نلعب بالورق.

— وكيف العب بيد واحدة ؟

— آه لقد بتروا ذراعك اذن ، اليس كذلك ؟

وخيل اليّ انهم بتروا ذراعه لانه لعب الورق فاخذت اتساءل ماذا يحل بي قبل أن يقتلوني .

وتطاول الليل حتى بدا كأنه اعوام . فانزلت قدمي على الارض ونهضت باتجاه الباب المزدوج . كان شبه مفتوح فما ان وصلت اليه حتى بـــدا لي شبح في الظلمة قابع على صخرة اشيب الشعر وشاهدت عيناه تحملقان بي ، فحاولت الاختفاء .

– من الذي يتجول هناك ؟ تعال هنا !

كانت رنة الصوت ناعمة لا توحي بالرعب أبداً . فتابعت طريقي ، وتأملت وجهه المدور الملتحي .كان شعره يتناثر في جميع الارجاء كهالة فضية . وسلسلة من المفاتيح تتدلى من حزامه .. وخيل لي انه لو كان شعره ولحيته اطول بقليل لكان اشبه خلق الله بالقديس بطرس .

– هل انت ذو اليدين المحروقتين ؟ لماذا تتجول في حلكة الليل ؟ هذا شيء يخالف القوانين والانظمة المرعية .

ثم نفث الدخان في وجهي وطوقني بذراعه الدافئة وشدني اليه :

– هل انت خائف ؟

– اجل .

–الجميع هنا يخافون لاول مرة . بيد انه ليس من داعٍ للخوف .وخاصة معي ، لانني لا اترك احداً يصاب باذية .. اين والدك ووالدتك ؟ ليس لك من اب ولا ام ؟ لا بأس ، لا حاجة بك اليهما فينبغي ان تتدبر امورك من دونهما . لان اظافرك لم تعد ناعمة .

لقد مضى وقت بعيد لم اصادف فيه انساناً يحدثني بهذه الاحاديث البسيطة الناعمة ، وكنت اجد لذة في الاستماع الى اقواله .

ثم ارجعني الى سريري .

رجوته :

– إبق لحظة أخرى معي .

فاجــاب :

– حسناً ، سأبقى .

– من انت ؟

– جندي ، لقد حاربت في القفقاس ، وحاربت في معارك عديدة وهـــذا

شيء طبيعي اذ أن الجنـــدي يعيش لخوض المعارك . وقد اشتركت في صفوف الهنغاريين والشراكسة والبولونيين ، ان الحرب يا بني شر كبير .

وغفيت برهـــة ، وعندما افقت من غفوتي وجدت جدتي جالسة مكان ذلك الجندي ، بينما قد انتصب هو في جوارها ، يقول :

ـ وهكذا توفي الجميع . لا تقولي ذلك !

واشرقت الشمس بطلعة بهية كطفل يمرح ،ثم اختفت بسرعة صابغة كل شيء في الافق بلون اشعتها الذهبية ، لتعود أدراجها من جديد باشراق جــديدة فتملأ الكون باشعتها الدافئة .

انثنت جدتي وسألتني :

ـ ماذا جرى لك ، يا صغيري ، هل تأذيت ؟ لقد اعــلمت ذلك الوحش الاحمر الرأس بالقضية ..

فقال الجنــدي ، وهو يذهب :

ـ سأدبر كل شيء ، في لحظات ، وفقاً للانظمة والقوانين .

قالت جدتي وهي تمسح الدموع عن وجنتيهــا :

ـ يظهر ان هذا الجندي من بالاخنا .

وركنت الى صمت عميق وانا اعتقــد انني ما زلت غارقاً في بحر مـــن الاحلام .

ثم اتى احد الاطباء وضمد لي يدي ، ثم غادرت المستشفى بصحبة جدتي فاجتزنا شوارع المدينة ونحن في عربة .

قالت جدتي :

لقد فقد جدك عقله . واصبح عظيم البخل، حتى انه يثير الاشمئزاز ..

كانت السحب تتطاير في السماء كالعصافير والشمس تتلألأ بانوارها.. واخذ قلبي يغرد كالحسون :

ـ كم احبك ، يا جدتي !

فلم تندهش لذلك .

قالت ببساطة :

ـ هـذا طبيعي .. بيـد انني لا استطيع ان اقول أن الغرباء كذلك يحبونني .. لتكن العذراء الطاهرة مباركة !

واردفت وهي تبتسم .

ـ لسوف تفرح سريعاً ، فابنها سيقوم من بين الاموات ، اما ابنتي انا ، فاريوشا ..

وركنت الى صمت عميق !

* *

١٥

وجدت جدي في ساحة المنزل حيث كان راكعاً يسوي عموداً بفأسه . القى الفأس كأنه يهم أن يضربني ، ثم نزع قبعته وقال بلهجة استهزاء ومهاترة :

– أهلاً بكم بيننا ، يا صاحب السعادة المعظم . ها قد انتهت خدمتك ؟ حسناً تستطيع ان تعيش كما يحلو لك . تفو !

فقاطعته جدتي وهي تلوح بيدها :

– نعلم هذا كله .

وعندما ولجنا الغرفة التفتت اليّ جدتي قائلة :

– لقد افلس جدكَ هذه المرة تماماً ! فقد اعطى جميع ما عنده من مال لنقولاي ، ابنه في المعمودية ، ليعمل به لحسابه من غير ان يأخذ ايصالاً بذلك . لست اعلم ما جرى بالتأكيد ، لكنني اعلم انه فقد جميع ما يملك ، هذا جزاء من لم يساعد الفقراء والمساكين لم نرحم البؤساء وهكذا فعل الله فلم يرحم آل كاشرين . فأخذ منا كل شيء .

وتلفتت حولها ، واردفت :

– وقد عملت جهدي كي احنن قلب الله حتى لا يقسو كثيراً على العجوز الهرم. فانني اخرج في الامسيات ، أوزع بعض الحسنات على الفقراء مما اكسبه . في استطاعتنا الليلة الذهاب معاً اذا اردت فعندي شيئاً من المال .

وبدا جدي في الباب ، كالح الوجه كئيب الطلعة .

قال :

ـ هل حصلتما على ما تقوتان به أنفسكم ؟

فأجابته جدتي :

ـ لسنا نقتات من أموالك . باستطاعتك أن تبقى معنا إذا شئت فهناك ما يكفينا .

فجلس إلى الطاولة ودمدم بلطافة :

ـ اسكبي لي قدحاً .

لم يتغير شيء في الغرفة ، سوى زاوية أمي المهجورة التي تبدو كئيبة المظهر، وعلى الحائط فوق سرير جدي علقت ورقة كتب عليها باحرف كبيرة: «خلّص ايها المسيح نفسي ... لترافقني رحمتك طوال حياتي حتى ساعة وفاتي » .

ـ من كتب هذا ؟

فلم يحر الجـــد جواباً ، بينما قالت جدتي بعـــد لحظة من الصمت وهي تبتسم :

ـ هذه الورقة تساوي ماية روبل .

فصرخ جدي :

ـ هذا شيء لا يخصك . سأهب جميع ما أملك للغرباء !

فأجابته جدتي بلهجة صارمة هادئة :

ـ لم يبقَ عندك شيء تهبه ، وإذا بقي فأنت تبخل به على نفسك .

فزعق الجد :

ـ صمتاً !

وأتتني أخبار فاجعة موت فياخير وأنا في الشارع في أسبوع الآلام،لقد مات بالجدري ، وانتقل غابي إلى المدينة ، في حين أن ياز فقد القدرة على المشي فهوغير

قادر على مبارحة منزله . وقال لي كوستروما القاتم العينين ، وهو يقص علـيّ هذه الاخبار :

ـ ان الأولاد يموتون سريعاً !

ـ لم يمت غير فياخير .

ـ الأمر سيان . عندما يمضي الفتى في الشارع تستطيع أن تعتبره ميتاً . انك لا تكاد تصادق أصدقاء وتجمعك الألفة باحدهم ، حتى يبعثوا به الى العمل أو يطوي الموت حياته. وقد استأجر سكان جدد في ساحتك عند شيسنوكوف ولهم صبي اسمه لوشكا ، صبي طيب ، شديد الهزال ، وابنتان ، الواحدة صغيرة والأخرى عرجاء ، تمشي على عكازين . وهي جميلة .

واردف بعد فترة :

ـ لقد وقعنا أنا وشوركا في هواها . ولا نزال طوال الوقت نتخاصم .

ـ معها ؟

ـ بالطبع لا . فيما بيننا ، فنحن قليلا ما نتخاصم معها .

وشاهدت الفتاة العرجاء في عشية ذلك المساء . كانت تنزل سلم الساحـة ، فأفلتت منها عكازتها ، فبقيت مكانها غير قادرة على الحركة ، وقـد تشبثت بالدرابزين . فحاولت بنفسي أن التقط العكاز ، بيد أن ضمادات يدي خانتني، فبقيت مدة أحاول مغتاظاً بينما وقفت هي تتأملني وتضحك برقة بالغة .

سألتني :

ـ ماذا جرى ليديك ؟

ـ لقد حرقتها .

ـ وأنا عرجاء . هل تسكن في هذه الناحية ؟ هل أمضيت زمناً طويلا في المستشفى ؟ لقد أمضيت فيه مدة طويلة .

وأردفت بعد أن أصعدت تنهدة حرى :

ـ مدة طويلة هائلة.

كانت ترتدي ثوباً ابيض عتيقاً ، ومع ذلك فهو مرتب المنظر .. كان شعرها المسرح ناعماً ينساب على صدرها في ضفائر قصيرة ، تضيء الوداعة في عينيها .. تعلو مبسمها ابتسامة عذبة ، مع كل ذلك لم ترق لي حتى ان كل كيانها المريض يكاد ان يقول :

ـ لا تلمسني ارجوك !

شعرت بالاضطراب ، فرجعت ادراجي الى المنزل .

* * *

وتتالت الحياة ، سريعة .. فكان كل مجرى فيهـــا يفعم نفسي بانطباعات تغبطني ، او تكدرني ، او تشلني ، او تحملني على التأمل والتفكير .

وسرعان ما شعرت برغبة عارمة تتأجج في نفسي لرؤية تلك الفتاة العرجاء ، والتحدث معها ، او الجلوس الى جانبها بهدوء وسكون قرب البوابة . حتى ان الجلوس بجانبها بصمت عميق كان يبعث في نفسي الغبطة ، كانت نظيفة مرتبة تجيد وصف الحياة في القوزاق حيث عاشت فترة من الزمن مع عمهـــا وهو ميكانيكي في مصنع للزبدة والألبان ، ثم رحل والدها وهو صانع اقفال ، الى نيجني نوفجورود .

ـ ولي عم آخر يعمل في خدمة القيصر نفسه .

في امسيات الأعياد كان الناس القاطنون في ذلك الشارع ينطلقون من منازلهم فيمضي الفتيان والفتيات الى المقبرة يتنزهون وينشدون اعذب الأغاني ، بينما ينطلق الرجال الى الحانات ، ولا يبقى في الشارع غير النساء والأولاد ... كنا نلعب بحيوية فائقة ومنافسة وحشية ، ومهما غرقنا في لعبنا ، شوركا وكوستروما وانا ، فمن المؤكد اننا نخصص بعض الوقت لنعدو نحو الفتاة العرجاء ونعـــتز بمهارتنا وقوانا .

ـ هل شاهدت كيف رميت الاوتاد الخمسة بضربة واحدة ، يا لودميـــلا ؟
فتبتسم برقة ، وهي تهز رأسها .

كانت شلتنا تلعب ، فيما سبق ، في صف واحد من اللعبة ، أمـا الآن فانني ألاحظ أن شوركا وكوستروما يفترقان في معسكرين مختلفين ، ويعملان بشتى الطرق للتنافس في المهارة والقوة الى درجة المشاجرة في بعض الاحيان . وقـــد تشاجرا ذات مرة بعنف شديد اضطر معه الكبار الى التدخل ، وقد سكبوا عليهما الماء فكأنهما كلبان يتعاركان .
كل ذلك ضايقني وكدرني . فقد أدركت انني أفتقد صديقيّ ، والسبب في ذلك كله لودميلا وحدها .

وبينما كنت ، ذات مساء ، أفرز العظام والخرق والاسمال الـــتي جمعتها ، أتت لودميلا ووقفت أمامي وهي تلوح بيدها اليمنى.
هزت رأسها مرات ثلاث ، ثم قالت :
ـ مرحباً ، هل ذهب معك كوستروما ؟
ـ أجل .

ـ وشوركا ؟
ـ لم يعد يلعب شوركا معنا مطلقاً . وانت السبب في ذلك .لقد وقعا أسير هواك . وهذا ما يدفعهما الى القتال .
فاحمرّ وجهها ، بيد انها أجابت مازحة :
ـ لا تقل ذلك ! لماذا انا المسؤولة ؟
ـ لماذا اوقعتهما في غرامك ؟
فأجابت محتدة .
ـ لم اطلب اليهما ان يقعا في غرامي ؟

واضافت وهي تمضي :

ـ هذه سخرية ! فأنا اكبر منها سناً . إني فتاة في الرابعة عشرة من عمري . والفتيان لا يقعون في غرام فتيات يكبرنهم سناً .

فصرخت ، وأنا أتعمد إغاظتها :

ـ حقاً ! هلاّ تأملت صاحبة المتجر ، أخت كليست ، فهي كبيرة في السن، ومع ذلك فالفتيان يلاحقونها !

فغرق عكازها عميقاً في الرمال وهي تلتفت إليّ بغضب .

قالت بسرعة ، والدموع تترقرق في مقلتيها ، وقد غصت الكلمات في فمها :

ـ أنت لا تدرك الأشياء ، فصاحبة الخزن امرأة ساقطة ، هل تظنني كذلك ؟ إنني ما زلت صغيرة . ولا ينبغي أن يمسني احد او يقرصني ... لو انك طالعت الجزء الثاني من «الكامشادلكا» لما تلفظت بهذه الأشياء !

وانطلقت باكية ، فشعرت بالأسف من اجلها . إن عباراتها تحوي في الواقع اشياء من حقيقة لم اكن ادركها بعد . لماذا يقرصها رفيقاي ؟ وهما يدّعيان حبها !

وفي اليوم التالي اردت ان اكفر عن ذنبي ، فاشتريت بسبعة كوبيكات « سكر النبات » وكنت اعلم انه الصنف المفضل من الحلويات عند لودميلا ، فسألتها :

ـ اتودين شيئاً من هذا ؟

فقالت ، وهي تتصنع الغضب :

ـ اليك عني ! لا اريد مصادقتك !

بيد انها ما عتمت ان تناولتها قائلة :

– كان يجب أن تضعها بورقة على الأقل ، تأمل قذارة يديك .
– لقد غسلتها ، بيد أن لونها لم يتغير .

فأخذت يدي في يدها الحارة الجافة ، وتأملتها :
– لقد شوّهت يديك .
– وكذلك أصابعك مخرّمة .
– هذا من فعل الإبرة . فأنا أخيط كثيراً .

وبعد لحظات ، تلفتت حولها قائلة :
– لنختبيء في مكان ما لنقرأ « الكامشادلكا» ما رأيك ؟
امضينا وقتاً طويلاً حتى وجدنا المكان الملائم . وقررنا في النهاية ان نأتي إلى ممر غرفة الغسيل . وبالرغم من انه معتم فإنه باستطاعتنا ان نقبع إلى النافذة المطلة على فسحة قد فرشت بالقش ، وميزة هذا المكان ان الناس لا يأتونه إلا نادراً .

وهكذا قبعت لودميلا إلى النافذة ، ومدت ساقها المريضة بينا اسندت الساق السليمة إلى الارض ،وقد امسكت بيديها كتاباً بالٍ,واخذت تسكبه منه على مسامعي جداولاً من العبارات الكئيبة المبهمة . كنت اشعر برغبة ملحاحة بأن اصيغ هذه الكلمات بعبارات شعرية واحاول ان اضعها في عدة قوالب الشيء الذي حال بيني وبين متابعة وقائع الكتاب .

استوضحت الفتاة :
– هل انت صاغٍ ؟
فهززت برأسي ، وازداد اضطرابي لتلك الكلمات ... وما ان انتشر الظلام حتى ارخت لودميلا يديها الشاحبتين المسكتين بالكتاب .
سألتني :
– أليس بديعاً ؟ لقد قلت لك أنه سيكون بديعاً .

وأصبحنا نتردد بكثرة إلى ذلك المكان حيث تجلس لودميلا وتشرع بقراءة كتاب « الكامشادلكا » ... كنا نشعر بغبطة عظيمة في الايام الماطرة . فليس من شخص يغادر داره والمطر ينهمر بغزارة .. وهكذا لا تصدف أن يمر انسان بنافذتنا القاتمة . وكانت لودميلا تضطرب خوفاً من أن يكتشف امرىء مكاننا ويجدنا منفردين .

سألتني بصوت هامس :

ـ هل تدرك ما يعتقدون آنذاك ؟

كنت أدرك ذلك ، لذلك كنت أحرص ان لا يكتشف امرنا ...

لكن سرعان ما تركنا هذا المكان ، اذ أن والدة لودميلا قد وجدت عملا عند تاجر فراء ،ومضت اختها الى المدرسة في حين أن أخاها أخذ يعمل في مصنع للقرميد ، فأصبحنا بغير حاجة الى ذلك المكان .. فعندما يسوء الطقس كنت امضي الى منزل الفتاة حيث اساعدها في تنظيف الغرفة والمطبخ .

ضحكت وهي تقول :

ـ اننا نعيش كزوج وزوجة . بيد اننا لا ننام معاً . بل نحيا حياة افضل ، فالأزواج لا يعاونون زوجاتهم .

وفي بعض الأحيان كانت جدتي تأتي وتجلس معنا ، تطرزاو تروي لنا حكاية مدهشة . وعندما يمضي جدي الى المدينة كانت لودميلا تأتي لزيارتنا ، فكنا بهذه المناسبة نحتفل غير مبالين بشيء .

كانت جدتي تشجعنا في الصداقة .

ـ ما اجمل الصداقة عندما تتوطد بين فتى وفتاة ! لكن يجب الا يرتكبا حماقة !

ثم اوضحت لنا معنى ارتكاب « الحماقة » باسلوب بسيط فكانت كلماتها كلها فتنة ... فرأيت انه من الواجب ان لا تمس الورود حتى تزهر كلياً ، والا

فانها لن تعبق بأريجها الشذي ، ولن تعقد اثمارها أبداً ...

كنا نجلس قرب بوابتنا ، انا و كوستروما ولودميلا ، اما شوركا فقد دعـا شقيق لودميلا الى المشاجرة . وها هما يثـيران حولهما الغبار ووقعا في مشادة عنيفة .

صرخت لودميلا في ذعر :

— يكفي !

كان كاستروما يروي لنا قصة الصياد كالينين ، بينما ثبت في لودميـلا نظرة جانبية ، وقد مات الصياد حديثاً . وادعى كوستروماانهم لم يواروا نعشه الثرى بل تركوه على وجه الارض .. كان النعش يستند الى اطار من الحديد ، وقد زين بغطاء رسم عليه صليب ابيض ، ورمح ، ، وهراوة ، وعظمتين .

ويدّعي ان الصياد الهرم ينهض كل ليلة من نعشه ، ويشرع في التجوال في المقبرة مفتشاً عن شيء ما حتى اطلالة الفجر الاولى .

فقالت لودميلا راجية :

— لا تتكلم عن هذه الاشياء المرعبة .

وصرخ شوركا وهويخلص نفسه منقبضة اخيها:

— اتركني !

واستدار نحو كوستروما ، وقال بلهجة مازحة :

— لِمَ الكذب ! لقد شاهدتهم يحفرون للنعش ، ويتركون كوة في القبر حتى يثبتوا فيها الشاهد ! اما الادعاء الذي يقول بان شبحه يتجول فهي من تأليف الحداد السكران !

فاقترح كوستروما من غير ان يتطلع اليه :

— اذا كنت متأكداً من ذلك فاذهب وامضِ الليل في المقبرة!

وشرعا يتجادلان حول هذه القضية ، فالتفتت لودميلا إلى أمها وسألتها وهي تهز رأسها بكآبة :

ـ هل يتجول الاشباح في الليل ، يا أماه ؟

فوافقت الأم على ذلك ، كأنها استدعيت من مكان بعيد :

ـ أجل انهم يقومون بذلك .

واندفع نحو الجميع فاليوك السمين ، ابن صاحبة المخزن ، الذي يبلغ من العمر عشرين عاماً ، وأرهف السمع الى المجادلة ، ثم قال :

ـ سأهب عشرين كوبيكا وعشر سجائر للشخص الذي ينام قرب النعش حتى الصباح ، أما اذا فزع فسأشد له أذنيه كما يحلو لي . حسناً ما رأيكم ؟

فخيم صمت عميق ،أزاله صوت والدة لودميلا:

ـ يا للهزار ! لا يمكن أن تطلب ذلك من الصغار

فدمدم شوركا :

ـ اعطني روبلاً فأقوم بذلك !

فاستفسر كوستروما بلهجة حاقدة :

ـ هل تخاف أن تقوم بذلك مقابل عشرين كوبيكا ؟ أعرض عليه روبلا يا فاليوك . انني متأكد من انه لن يذهب ، انه يتفاخر فقط .

ـ حسناً ، سأدفع روبلاً .

ووقف شوركا ، واتجه نحو السور . فأطلق كوستروما صفيراً حاداً ، بينما زعقت لودميلا مغتاظة :

ـ يا إلهي ؛ لماذا يتفاخر كذلك ؟

قلت لفاليوك :

ـ اعطني روبلا فامضي انا .
فنقد ام لودميلا روبلا ، وهو يطلق ضحكة بصوت عالٍ قاصداً اخافتي .
قالت والدة لودميلا وهي تمضي غاضبة :
ـ كلا لا اريده ، ولن آخذه .

وكذلك رفضت لودميلا تناول الروبل ، مما ضاعف من سخرية فاليوك .
وكدت انطلق من غير أن اطلب المال ، في اللحظة التي وصلت فيها جدتي.
وبعد أن سمعت القصة اخذت الروبل وهي تقول بهدوء :
ـ ارتد معطفك وخذ غطاءك ، فالبرد قارس قبيل الصباح .
كان لكلامتها هذه وقع في نفسي فقد ملأني شجاعة وارسخ في نفسي انه لن يقع شيء مريب .

كان شرط فاليوك أن اقبع بجانب النعش حتى الصباح ولا افارقه مهما حدث والا فانني اخسر الرهان .
حذرني فاليوك :
ـ احذر ، سأراقبك طوال الليل !

وعندما مضيت الى المقبرة،رسمت جدتي اشارة الصليب فوق رأسي وهي تنصحني :
ـ إذا ظهر لك شيء ، فلا تتحرك أو تخف بل صل للعذراء .
وانطلقت جاداً وانا اتحرى شوقاً لانهاء هذه المهمة . ورافقني فاليوك وكوستروما ، وصبية آخرون . وعندما شرعت في تسلق الحائط القرميدي تعثرت يدي بالغطاء فوقعت ، ثم قفزت تواً كأن الرمل قذفني . فتناهت الي موجات الضحك من الجانب الثاني للحائط . واخذ شيء في صدري يخفق ، وسرت قشعريرة باردة في اوصالي وانتقلت الى ظهري .
كان النعش غارقاً من احد جانبيه في الرمل ، فتعثرت به ، بينما كان ا

الجانب الآخر مرتفعاً كأن احدهم اراد ان ينهضه من مكانه ولم يستطع. فجلست على طرف النعش وتأملت في المقبرة حولي: ان المقبرة قد ملأت بالصلبان الرمادية التي تشبه أذرعة عظيمة ترفع نحو السماء ..

وقرع والد ياز جرس الحراسة بفتور وخمول . فكان الحبل عندما يشد عليه ، يعلق بقطعة من الحديد تبعث انيناً مؤلماً يتبعه رنين قصير جاف لجرس صغير .

كان الجو داكناً يبعث فيّ شعوراً لست ادري كنهه فكنت احس بضيق شديد ، واخذ العرق يتصبب مني بالرغم من برودة الطقس ورطوبة الليل . وفكرت هل انني استطيع أن أصل إلى كوخ الحارس إذا حاول كاليذين الهرم الخروج من نعشه ؟

كنت اعرف المقبرة جيداً ، فطالما لعبت انا وياز وبقية الاصدقاء بين اضرحتها . وهناك بالقرب من الكنيسة حيث ترقد امي في مثواها .

وتناهت إلى مسامعي نتف من الضحك في الحي وبعضاً من الغناء في اماكن نائية فالناس لم تنم بعد .

ان الاصغاء إلى هذه التنهدات الاخيرة للحياة كان يشدد من عزمي . بيد أن الهدوء كان يشتد كلما قرع الجرس ، فيخيم جو من الصمت رهيب ، يطمس كل شيء ويزيله . كانت نفسي تهيم في فضاء غير محدود في عدم سحيق حيث تذوب في محيط خاو حيث لا شيء غير النجوم .

دثرت نفسي بغطائي جيداً ، وجلست وقد ثنيت ساقي تحت جسدي تجاه الكنيسة . كان النعش يصر والرمل يهوي اثر كل حركة تصدر عني . وتناهى الى اسماعي صوت شيء يصدم الارض مرة ومرتين من خلفي وبعد ذلك سقطت قرميدة جانب النعش . فتملكني الرعب لكن سرعان ما فهمت أن فاليوك ورفاقه يلقون بهذه الاشياء من خلف السور في محاولة لاخافتي ، مما طمأن نفسي

اذ انني أدرك أن مخلوقات بشرية ما زالت بالقرب مني ، فهـــدأت مخاوفي . فتكورت على نفسي . وجررت الغطاء فوق رأسي وأسلمت للنوم .

أيقظتني جدتي من النوم. فكانت تقف إلى جانبي وهي تنهرني مع الغطـــاء قائـــلة :

— انهض ، هل تشعر بالبرد ؟ حسناً هل كان ذلك مرعباً ؟

— نعم ، لقد كان رهيباً ، لكن اياك أن تعلمي احداً .

وفي المساء امسيت (بطل) شارعنا . كان الجميـع يسألونني :

— هل كان ذلك مخيفاً ؟

واذا اجبتهم : (اجل ! كان مخيفاً) كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون : (ارأيت ؟) .

وصرحت صاحبة المخزن بلهجة واثقة :

— إذن الادعاء بان كالنين ينهض من قـــبره كاذب . فهو لو خرج لكان القى بالفق من خلف السور والله وحده يعلم أين كان سيقذف به .

وتأملتني لودميلا باعجاب لطيف . حتى ان جدي نفسه قد سر أيما سرور . اما شوركا فكان مغتماً قال :

— ان ذلك هين بالنسبة اليه فجدته ساحرة .

١٦

اخذ اخي الصغير يذوي بشكل مريع كنجمة في مطلع الفجر . وكنا ننام انا وجدتي وهو ، في (خيمة) على اكوام من الخشت فرشت باسمال باليـــة . وبالقرب منا كان صاحب الدار يشيد (قنـــاً) تأوي اليه الدجاجـــات . ففي كل عشية كانت اصوات الدجاجات الثملة من الاكل تتناهى إلى اسماعنا وهي تنفض اجنحتها،بينما كان صوت الديك يوقظنا في الصباح على نغم تغريده الصباحي .

وذات صباح دمدمت جدتي وهي تفرك عينيها :

– كان ينبغي أن يقطع رأسه .

فنهضت بدوري وجلست اتأمـــل طلوع الشمس وهي تسترق النظر من خلال شقوق الجدار تتراقص في خيوطها حبات الغبار .

كان الصباح بديعاً صافياً الا انني كنت اشعر بالغم ، واجتاحتني رغبـــة ملحـــاحة للذهاب الى الحقول حيث انفرد بنفسي . كنت ادرك أن الناس سيشوهون منظر ذلك النهار البديع باصواتهم وحركاتهم .

وذات مرة نادتني جدتي ، وكنت قد استلقيت على السطح ، واخبرتني بلهجة هامسة مشيرة الى السرير.

– لقد مات كوليا .

لقد انزلق الصغير من سريره الى الارض . كان عارياً ازرق اللون . وقد التف قميصه حول عنقه كاشفاً عن بطنه المنتفخة وساقيه المتجمدتين بينما يداه قد التوت خلف ظهره فكأنه كان يحاول انهاض نفسه ، وقد إنحنى رأسه قليلا على كتفه .

بينما كانت جدتي تسرح شعرها قالت :

ـ شكراً لله على موته . كيف يستطيع ان يعيش هذا المريض الصغير ؟

واقبل جدي واخذ يجوب الغرفة امام الجثة. ثم لمس عيني الصغير باحتراس وحـذر .

زعقت جدتي محتدة :

ـ لا تلمسه بيدك القذرتين !

فدمدم .

ـ لقد اقبل على الحياة ولم ننتفع منه بشيء ..

فقاطعته جدتي :

ـ فكر فيم تقول !

فحدجها بنظرة هازئة ، وانطلق الى الساحة .

قال :

ـ افعلي ما تشائين ، فليس عندي مالاً لدفنه .

ـ آه ايها الانسان الشرير !

فتركت المنزل ولم أعد إلا في المساء .

وفي صباح اليوم التالي دفن كوليا الصغير .. لم ادخل الى الكنيسة ، بل قبعت في الخارج حتى انتهت مراسيم الجناز ، وقد حفر له بجانب قبر والدتي الذي فتح من جديد ليضم جثمان اخي الصغير ..

عندما تأملت تلك الحفرة السوداء ، التي تتصاعد من جوفها رائحة كريهة ،

وقع بصري على بعض الالواح الخشبية السوداء فحاولت أن انهل عليها بعض الرمال ليغطي تلك الالواح .

قال والد ياز ، وهو يدخن غليونه :

– دعك من هذه الالآعيب ، يا فتى .

أتت جدتي حاملة النعش الصغير الابيض . فقفز والد ياز الى الحفرة واخذ النعش من يديها ، وواراه الى جانب الالواح الخشبية ثم خرج خارج الحفرة واخذ يهيل الرمال برفشه وقدمه .. ليس هناك من كان ولا احد سوى ثلاثتنا في ذلك الحشد من الصلبان .

وتعالى صوت جدتي مؤنبة وهي تنقد الحارس النقود :

– لقد ازعجت مأوى فافارتي ، اليس كذلك ؟

– ليس هناك وسيلة اخرى ، فقد اخذت قليلا من أرض الجيران ،لا ضروة في ذلك اننا لم نؤذِ احدا .

وانثنت جدتي حتى لامست ارض الضريح . وشهقت وبكت ثم ابتعدت . وخب جدي في اثرها ، يلملم معطفه البالي . وقد وارى عينيه تحت قبعته .

زعق على حين غرة مسرعاً امامنا كأنه طير يثب على الارض :

– لقد بذرنا حبوبنا في ارض قاحلة .

فاستوضحت جدتي :

– ماذا قال ؟

فأجابت :

– ان الله وحده يعلم . فله طريقته الخاصة في التفكير .

كان الطقس حاراً ، وجدتي تمشي ببطء في المقدمة ، وقدماها تغوران في الرمال ، ومن حين لآخر كانت تتوقف لتمسح وجهها بمنديلها .

سألتها وانا اجتهد في الكلام :



جوركي ولينـــين

– ذلك السواد في الضريح ، هل كان نعش والدتي ؟
فقالت بلهجة كئيبة :

– اجل ، يا له من حفار احمق ! لم ينقض سنة بعد ، وها هي فاريت قد تشققت ! وذلك بسبب الرمل فهو يسمح بتسرت المياه . ان الطين افضل .
– هل يتشقق الجميع؟

– أجل
– انت لن تتشققي مطلقاً !
فتوقفت وواست القبعة على رأسي ، وقالت بصرامة :
– لا تفكر بهذا مطلقاً . لا يجب أن تفكر بذلك الآن ، هل تسمع ؟
بيد انني قلت في نفسي :
– ما أبشع الموت .. انني اكرهه !
كنت اشعر بضيق شديد .
وعندما وصلنا المنزل جهز جدي المائدة وأعد الشاي .
قال :
– سنسكب قليلا من الشاي ، فالطقس حار جداً . سأعد الليلة الشاي لنا جميعاً من عندي .
وتوجه نحو جدتي وربت على كتفها .
– حسناً ! ماذا تقولين يا أماه ؟
فأومأت جدتي بيدها قائلة :
– ماذا استطيع ان اقول ؟
– هل ترين يا اماه ، ان الله يصب علينا جام غضبه ، فهو يأخذ قطعة قطعة .
آه لو ان العائلات يعيشون متحدين سوية ، كأصابع يدك ..
لقد مضى زمن طويل من غير ان اسمعه يتكلم بهذه الرقة . فأصغيت لهمتأملا أن يخفف من آلامي ويساعدني على نسيان تلك الحفرة ذات الالواح السوداء .

لكن جدتي قاطعته برزانة محتدة :

– كف عن هذا ، يا أبتاه ! لقد عشت طوال حياتك تردد هذه الكلمات . بيد انك هل حاولت ان تساعد احداً في يوم من الايام ؟ لقد امضيت حياتك وانت تستثمر الناس ، كما يفعل الصدأ في الحديد .

فرمقها بنظرة حادة وهو يدمدم ، ثم لاذ بالصمت .

وفي المساء اخبرت لودميلا بما حدث ، فوجدت ان ما حدثتها به لم يجد له صدى عندها .

– ان المرء يفضل ان يحيا يتيماً .. اذا توفي ابي وامي ، فسوف اترك اختي في رعاية اخي ، واصبح راهبة . فلا استطيع فعل غير ذلك ! فسوف لن اتزوج لأنني عرجاء ولا استطيع العمل . واذا ما تزوجت فانني سأنجب أطفالاً يعرجون .

كانت تتحدث بلهجة هادئة بيد انني فقدت كل اهتمام بها بعد تلك الجلسة ، والحقيقة ان احداث حياتي لم تعد تسمح لي برؤيتها إلا نادراً .

ناداني جدي بعد مضي عدة ايام من وفاة اخي ، قائلا :

– نم الليلة باكراً ، سننهض في الغدوة عند طلوع الشمس ، ونذهب إلى الغابة لجمع الحطب .

وزادت جدتي :

– وسأجمع انا الأعشاب .

... كانت الغابة تستقبلنا بصفوف من اشجارها الداكنة ، واشجار الشوح تناجي الطيور ، بينما انحنت اشجار البتل كصبايا عذارى . وبعيد المروج تأتي رائحة المستنقعات في امواج متلاحقة .

دخلنا الغابة في طريق ندية تتسرق بين الادغال المنتشرة هنا وهناك

يتخللهـــا بعض المستنقعات . وخطرت في مخيلتي فكرة وخالجت نفسي أن لا شيء اروع من ان يلج الانسان غابة الى الابد ، فهناك ليس من مشاجرات ولا خمرة ، ولا مكر أو خبث ؛ هناك حيث تستطيع أن تتنـاسى العالم وشراسة جدك وضريح امك في الرمال ، قد تنسى كل شيء يؤلم نفسك .

وعندما بلغنا بقعة جافة قالت جدتي :

ـ اجلسا ، لقد آن لنا ان نأكل شيئاً .

واخرجت من سبتها بعض الخبز ، والبصل الاخضر والخيار ، وشيئاً مـن الجبن المجـــدل ، وتأمل جدي كل ذلك . وهو يطرف بعينيـــه بصورة محتارة :

ـ يا إلهي ... لم احضر معي شيئاً !

ـ هناك ما يكفينا ثلاثتنا .

افترشنا الارض تحت صنوبرة طويلة، كان النسيم يهب لطيفا يدغدغ الاعشاب فتنحني له باحترام ...

وذات مرة بينما كنت في الغابة اجمع الحطب ، فاذا بطلقة صياد تصيب وجهي وتدفن في جنبي الأيمن سبعة وعشرين حبة من الخردق الصغـير . وقـد نزعت لي جدتي بابرتها إحدى عشرة حبة ، وبقيت الحبات الباقية تحت جلدي سنوات عدة ، حتى نزعت شيئا فشيئاً .

كانت جدتي تغتبط جداً عندما تجدني اتحمل الالم بصبر كبير :

ـ يا لك من فتى طيب ! ان التغلب على الالم معركة عظيمة .

كانت جدتي تبقى مرتدية ثيابها البالية ، حتى في ايام الاعياد .

وذات مرة زعق جدي في وجهها :

ـ إن مظهرك اسوأ مـــن مظهر المتسولين ، وهـــذا ما يجلب عليّ العـــار .

— لا بأس عليك ، لست ابنتك ، وانني لست فتـــاة حتى تبحث لي عن زوج .

وهكذا كانت مشاداتها تزداد يوماً بعد يوم .

كان جدي يصرخ ، معبراً عن ألمـه :

— ليست ذنوبي اكثر من ذنوب غيري . بيد انني أشدهم عقوبة .

فتحاول جدتي إغاظته :

— ان الشيطان لاحده يعلم قيمة الانسان .

وذات يوم عاد جدي من المدينة وقـــد ابتلت ثيابه بالمطر . كان الوقت خريفاً . . ومـــا ان بلغ عتبة الباب حتى نفض عنه المطر ، وقال بلهجة ظافـرة :

— حسناً ، ايها الخامل ، ستمضي غداً إلى العمل !

فسألته جدتي

— اين سيعمل ؟

— عند اختك ماتروينا ، يعمل لحساب ابنها .

— انك لم تحسن الانتقاء ، يا ابتاه !

— صمتا ، ايتها العجوز البلهاء ! قد يجعلون منه رساما .

وحنت جدتي رأسها ولاذت بالصمت .

وفي المساء أخبرت لودميلا بانني سأذهب الى المدينة لأعيش هناك .

وبعد تأمل قصير قالت :

— سامضي إلى هناك في وقت ما عما قريب . فابي يريـــدهم ان يقطعوا لي ساقي . فانهم يدعون ان صحتي ستصبح حسنة إذا ما فعلوا ذلك .

لقد اصبحت ضامرة العود ، وعلت وجهها صبغة تميل الى الزرقة ، حتى ان عيناها اتسعتا اتساعاً كبيراً .

سالتها :

– هل انت خائفة ؟

فاجابت :

– اجل .

وشرعت تبكي بكاء صامتاً .

كنت غير قادر على تعزيتها .. فانني كذلك خائف من حياة المدينة .فبقينا زمناً طويلا متلاصقين جنباً الى جنب والصمت يشرع وشاحه فوقنا ..

●

١٧

ومن جديد عدت الى حياة المدينة ، لأسكن في بيت جديد ابيض اللون مؤلف من طابقين يشبه النعش ، وقد بني بشكل يتسع لعدد كبير من الناس . كان البيت يقوم بصورة جانبية في الشارع ، تطل نوافـــذ الطابق الارضي على زاوية الشارع ، بينما تطل نوافذ الطابق العلوي على جهـــة يفرض ان تكون واجهة له . وتشرف من فوق السور ، على تلة قذرة ، ومسكن صغير تقطنـه الغسالة .

لم يكن هناك شارع بالمعنى المعروف لهذه الكلمة بل كان يقوم أمام البيت خندق يشطر التلة القذرة حيث يقوم إلى جانبـه بيتنا وفي الاقاصي إلى يساره حيث اختار السكان تلك البقعة لرمي النفايات . . .

كنت اعرف صاحب عملي جيداً ، فقد زارنا ذات مرة واخوه ، وهـــذا الاخير هو الذي كان يردد بصورة مسلية :

— اندريه بابا ، اندريه بابا .

وقد لاحظت انهما لم يتغيرا ابداً . أما والدتهما فهي اخت جدتي ، بيـد

انهـــا كانت عضوياً عصبية . كان الكبير متزوجاً من إمرأة سوداء العينين ، بيضاء البشرة .

ومنذ اليوم الأول لوصولي قالت لي مرتين :

– لقد وهبت امك ذات يوم معطفاً حريرياً قـد وشح بحبات من المرجان الأسود .

ولسبب خفي لم اصدق انها قدمت اية هدية لوالدتي . فقلت لهـــا عندما ذكرتني بذلك مرة اخرى :

ـ ان كنت قد قدمته لها حقاً ، فلماذا تتبجحين ؟

فانتفضت مذعورة ، وقالت وهي تتراجع الى الخلف :

ـ ما .. ذ .. ذ .. ا ؟ مع من تحسب نفسك تتكلم ؟

وتورد وجهها وجحظت عيناها، وندهت زوجها.

دخل المطبخ حاملا فرجاراً في يده ، وقد وضع قلماً خلف اذنه ، قال لي ، بعد ان سمع من إمراته ما جرى :

ـ يجب عليك الا تكون قليل الحياء ، وقحاً .

ثم التفت الى زوجته ، وزعق بها بلهجة نافذة الصبر :

ـ لا تزعجيني مرة اخرى بمثل هذا الهراء واللغو !

– ماذا تقصد بمثل هذا اللغو والهراء ! عندما اقرباؤك ...

فصرخ :

– اخذ الشيطان اقربائي .

وانطلق خارجاً ...

لقد كرهت ان يكون مثل هؤلاء من اقرباء جدتي ، وقد افهمتني جدتي ان الاقرباء يعاملون بعضهم بعضاً اسوأ من معاملتهم للغرباء ...

كانت معلمتي الكبيرة ، اخت جدتي ، تنهض في الساعة السادسة صباحاً . ثم تجثو بعد ان تغتسل بسرعة وتاخذ في شكواها إلى الله ، أمورحياتها و كنتها وولديها .

كانت تلمس جبهتها برؤوس اصابعها وتشكو بلهجة كئيبة :

– يا إلهي ! لا أسالك شيئاً سوى الراحة وقليل من السلام .

وفي بعض الأحيان كان صوتها يوقظني من النوم ، فاتمدد اراقبها من تحت الغطاء ، وانا ارهف السمع الى صلواتها .. كانت تضرب بشدة على كتفيها وجبهتها وبطنها بحركة عشوائية من يدها اليسرى ، وتاخذ برسم إشارة الصليب :

– إن كنت راض يا إلهي ، فعاقب كنتي ، واجعلها تعتذر عن إهاناتها لي ، وأجل بصري ولدي بحيث يستطيع رؤية حقيقتها . وساعد فيكتور وهبه رحمتك .

ثم اخذت تهتز إلى الامام والوراء في لحظات هادئة ، ثم قالت من جديد بصوت حاقد :

– وليتصبب الجليد في لب عظامهم ، ولتجف الدماء في عروقهم !

روجدت ان جدي لم يرفع مثل هذه الصلاة البغيضة .

وما ان تنتهي من صلاتها حتى توقظني من نومي :

– إنهض كفاك خمولاً ، فنحن لم نستاجرك لله . قم وهات الحطب ! لقد اهملت كذلك إحضار الاخشاب الصغيرة منذ المساء !

كنت اعمل بطيبة خاطر ، واجد لذة بتكنيس أقذار البيت وغسل الارض ، وتنظيف الاواني ومقابض الابواب . وفيما كنت اعمل كانت تدف إلى اسماعي اكثر من مرة ، حين يهيمن السلام ، صوت المرأتين تتكلمان :

– إنه يشتغل بجدة .
– انه نظيف .
– لكنه وقح .
– لا تنسي من رباه .

وجربت كل منهما اقصى جهدها كي تفرض عليّ احترامها . بيد انني كنت اعتبرهما شبه مجنونتين ؛ فلا اطيعهما، حتى انني كنت اقسو في الاجابة عليهما ..
.. كانتا تشكواني إلى صاحب عملي دائماً ، فيقول محتداً :
– يجدر بك أن تنتبه إلى اعمالك واقوالك ، ايها الفتى !

وذات يوم استدار نحو أمه وزوجته وقال :
– ما الطفكما ، فانتما تعتليان هذا الفتى مثل الحصان ، فلو كان أحد غيره لكان لاذ بالهرب من زمن بعيد . او حتى قد مات من القسوة !
بيد ان هذا الكلام جعل المرأتين تسخطان وتنساب الدموع من مقلتيهما .
ضربت زوجته الارض بقدمها وزعقت غاضبة :

– كيف تستطيع أن تقول هذا الكلام بوجوده ، ايهــا الاحمق ! كيف سيطيعني بعد ان سمع هذا الكلام ؟ يجب ان تتذكر انني حامل !
وانتحبت امه في حرقة :
– غفر الله لك يا فاسيلي ، يجب أن تتذكر ما اقوله : سوف تفسده .
ثم انطلقتا في غضب .
فاستدار نحوي ، وقال بلهجة قاسية :
– هل رأيت هذا المشهد ؟ لقد سببته انت ، ايها الشيطان الصغير ! سوف ابعث بك من جديد الى جدك . هذا ما انويه ، وتقدر عند ذلك العودة الى جمع الاسماك .
فاجبته وانا غير قادر على تحمل هذه الاهانة .

ـ انني افضل جمع الاسمال على العيش معك . لقد أتيت لأتمرن على العمل ، بيد ماذا علمتني ؟ لقد علمتني حمل القاذورات وفضلات الطعام ! .

فامسكني معلمي بلطف من شعري ، وحدجني بنظرة وهو يقول :

ـ انت وحش صغير على اي حال . هذا لن يقع ابداً .. !

كنت متأكداً من انه سيرجعني الى جدي ، بيد انه بعد يومين دخل المطبخ يحمل قلماً ومسطرة وكراساً من الورق .

قال :

ـ انقل هذا بعد أن تنتهي من عملك .

كانت الصورة كناية عن بيت مؤلف من طابقين ، مليء بالنوافذ وقد زيّن بزخرفة صنعت من الجص .

ـ وهذا مقياس . خذ قياس الاسطر كلها . ثم ضع علامات على الورقة وبعد ذلك أوصل فيما بينها . في البداية ارسم الخطوط الافقية وبعد ذلك الخطوط العمودية . هيا .

وغمرتني نشوة من السعادة فهذا عمل نظيف قد انيط بي . بيد انني تأملت الادوات والورقة مندهشاً لأنني لم ادرك منها شيئاً .

جلست إلى العمل بعد أن غسلت يدي . فوضعت كل الخطوط الافقية ووصلت فيما بينها لكنني وجدت ثلاثة اسطر زائدة . وبعد ذلك وضعت الخطوط العمودية فوجمت لذلك إذ وجدت أن البيت قد تغيرت معالمه . فالنوافذ اصبحت مكان الحائط الوسط بينما ارتفعت احداها في الهواء وراء البيت ، وظهر الافريز اعلى من السقف ..

وبقيت مدة طويلة اتأمل هذا الشكل والدموع تترقرق في مقلتي محاولاً ادراك السبب . واخيراً حاولت تلافي ذلك بما توحيه لي مخيلتي ، فرسمت على طول السطح والافريز العصافير والحمام . وقريباً من النوافذ على الارض رسمت

اناساً معوجي الساقين .. ثم وضعت خطوطاً متقطعة في وسط الصورة وبعـــد ذلك حملتها إلى رب عملي .

تأملها بدهشة وهو يرفع حاجبيه ثم صرخ بلهجة كئيبة :
ـ ماذا تطلق على هذا ؟
فاجبته :
ـ السماء تمطر ، وعندمـــا تمطر السماء تظهر المنازل بشكل معوج كالمطر . وجميع العصافير في الايام الماطرة تختبىء تحت الافاريز وهؤلاء الناس يعدون إلى منازلهم . وتلك فتاة قد تعثرت ، وهذا بائع ليمون .
فاخذت رب عملي موجة من الضحك وهو يترنح على الطاولة ثم قال :
ـ انني شاكر لك في الواقع .

ثم اردف :
ـ ينبغي أن اخفيك عن وجه الارض . هذا ما يجب ان افعله . !
وولجت معلمتي الصغيرة وبطنها يسير امامها ثم تأملت رسمي .
خاطبت زوجها قائلة :
ـ يجب ان تجلده .
فأجابها زوجها بلهجة واثقة :

ـ آه ، لا في الواقع لم ارسم افضل من هذا عندما بدأت الرسم .
ثم اشار الى الاخطاء بقلمه الاحمر واعطاني ورقة ثانية .
ـ حاول ذلك من جديد . يجب أن ترسم ذلك بصورة حسنة حتى تنقلها جيـداً .
اما محاولتي الثانية فقد كانت افضل من الاولى سوى نافذة واحدة قد تربعت على عتبة الدار . تأملت البيت فلم يرقني منظره خاوياً فانصببت عليه بجمع من الناس . واجلست في النوافذ فتيات يمسكن بمراوحهن وفتيـات يدخنون

السجائر ؛ وقد تركت واحداً من غير سيجارة بل جعلته يدس انفه بين سائر الفتيات . ورسمت عند البوابة عربة يرقد بجانبها كلب صغير .

سألني معلمي بلهجة غاضبة :

ـ لماذا افسدتها مرة ثانية ؟

فوضّحت له أن الصورة كانت حزينة من غير اناس ، بيد انه اخذ يزجرني ويؤنبني :

ـ لعن الله ذلك . اذا أردت أن تتعلم ، فينبغى أن تشتغل بصورة جيدة . اما هـذا فمزاح .

وكم كان سروره عظيماً عندما رسمت اخيراً صورة قريبة الى الاصل .

ـ هل شاهدت ما تستطيع فعله عندما تجرب بجـدية ؟ واذا تابعت كذلك فستصل بسرعة كبيرة .

ثم اعطاني عملا جديداً :

ـإصنع مخططاً للمنزل توضح فيه مكان الغرف . والنوافذ والابواب . ولن اوضح لك ذلك . يجب عليك ان تفعل ذلك من تلقاء نفسك .

دخلت المطبخ ، وجلست افكر من اين أبدأ .

بيد أن دروسي في الرسم انتهت عند هذا الحد . فقد أتتني المعلمة الكبيرة وقالت بفجور :

ـ تريد أن تصبح رساماً ، اليس كذلك ؟

ثم امسكتني من شعري وضربت رأسي بالطاولة بعنف كبير مما اراق الدم من فمي وشفتي وانفي . وبعد ذلك مزقت الرسم واتلفت أدواتي ، وانتصبت واضعة يديها على خصرها وهي تصرخ ظافرة :

ـ حاول ذلك مرة اخرى ؟ ! سوف ترى ماذا يجري . انه يريد شخصاً آخر ان يعمل مكان أخيه ، لكي يتخلص منه وهو من لحمه ودمه !

واتى معلمي على اثر ذلك الصياح تخب في اثره زوجته ، وتلا ذلك مشهد عنيف من المجادلة . فقد القى الثلاثة بانفسهم على بعضهم يدمدمون ويصرخون وفي النهاية انسحبت المرأتان وهما تبكيان وتذرفان الدموع،بينما قال لي معلمي:
ـ من الافضل لك أن تترك العمل في الوقت الحاضر. توقف عن الدرس !

كنت لا اجد فيما حولي غير الشر الذي لا يعرف الرحمة ، والانحطاط الدنس الذي يزداد بصورة اكثر منها في شوارع كونافينو ، تلك التي لم تكن تنقصها بيوت الدعارة والساقطات . إن المرء يشعر وراء قذارة كونافينو بحتمية تلك القذارة والشرور ، والعبودية والشقاء . اما هنا فالناس يعيشون في راحة ونعيم. والاضطراب المشوش يحل محل العمل . ويقبع كل شيء في ظل السآمة الخادعة .

كنت اغرق في تعاسة شديدة تزداد عندما تزورني جدتي.كانت دائماً تدخل المطبخ من الباب الخلفي ، وبعد ان ترسم اشارة الصليب كانت تنحني حتى خصرها إحتراماً لاختها الصغيرة . فكانت تلك الانحناءة تسحقني كصفعة اليمة .

كانت معلمتي الكبرى تقول بلهجة باردة بشيء من الاحتقار :
ـ آه ، اهذه انت ، يا اكولينا ؟
ولا اعود أتعرف جدتي . انها تعض على شفتيها بتواضع بطريقة تغير ملامحها كلها . وتقتعد بصمت كبير بجانب الباب كأنها قد اقترفت ذنباً مشيناً ، تجيب على اسئلة اختها بلهجة رقيقة وبصوت هامس.

فلم يرقني ذلك ، فقلت غاضباً :
ـ لماذا تجلسين ههنا ؟
فأجابت بلهجة كلها تأثر وقد غمرتني بحنانها :
ـ أطبق شفتيك ، فانك لست السيد هنا .
فاجابت معلمتي الكبيرة ، وقد بدأت شكواها :

— انه يتدخل دائماً فيما لا يعنيه ، غير مهتم لذلك مهما جلد او زجر .
كانت تستوضح اختها في بعض الاحيان . بلهجة ماكرة .
— اذن قد اصبحت متسولة ، اليس كذلك ، يا اكولينا ؟
— ليس هذا بالامر المشين .
— ليس من شيء مشين، اللهم ما لم يكن مخجلا .
— يقـال ان السيد المسيح كان يتسول .
— البلاهاء والمراطقة وحدهم يدّعون هذه الاقوال ، وانت تعطيهم اذنك . ايتها العجوز العبيطة ، لم يكن المسيح متسولاً . فهو أبن الله وسوف يعود كما هو مدون ليحاكم الاحياء والاموات ولا مجال للتواري منـــه . حتى ولو حرقت نفسك وتحولتي إلى رماد. وسوف يعاقبك انت وفاسيلي على تكبركما وعجرفتكما، لانكما طردتماني يوم اتيت اطلب معونتكما ، يا قريبي الغنيين .
فاجابت جدتي من غير انزعاج :

— لقد فعلت دائماً ما اقدر عليه من اجلك . بيد أن الله وجـــد أنه من الافضل أن ينزل بنا العقاب ..
— هذا لا يكفيكما ، لا يكفي .. !
واردفت اختها في كلامها اللاذع من غير توقف ، فكنت اتساءل وانا ارهف السمع الى عواء معلمي الكبيرة كيف تتحمل جـدتي ذلـــك ، فانني في مثل هذه الحالات كنت اجد نفسي لا احب فيها هــذه الصورة .

وولجت المعلمة الصغيرة وهزت رأسها بلطف :
— تفضلوا الى غرفة الطعام . هذا افضل هيا تعالوا !
فصرخت العجوز ، وجدتي تحاول الدخول :
— إمسحي قدميك ، أيتها الكسيحة المتداعية !
وقدم لها معلمي التحية ببشاشة :

ـ آه ، اكولينا الحكيمـــة ! كيف حالك ! اما زال العجوز كاشرين حيا يرزق !

فقالت له جدتي وهي ترميه بابتسامة ودية :

ـ اما زلت تجتهد في عملك ؟ انك تعمل دائماً !

ـ اعمل دائماً ، كالمحكوم بالاشغال الشاقة .

كانت جدتي تحدثه بحرارة بالغة لكن بلهجة من هو اكبر سناً . وفي بعض الاحيان كان يأتي على ذكر والدتي :

ـ آه ، فارفارا ، يا لها من إمرأة ، إمرأة مسترجلة فعلا !

فاردفت زوجته وهي تلتفت نحو جدتي :

ـ هل تتذكرين ذلك المعطف الذي اعطيتها اياه ؟

ـ نعم . بالطبع .

ـ لقد كان جيداً، كأنه جديد .

فدمدم معلمي :

ـ هه ، معطف سيء ، فالحياة دعابة .

فاستوضحت زوجته مرتابة :

ـ ما هذا ؟

ـ آه ، لا شيء ، لا شيء على الاطلاق . ان الايام الجميلة تمضي وكذلك الناس الطيبون ..

فقالت زوجته بلهجة قلقة :

ـ لماذا تتفوه بمثل هذه الاشياء ؟

وفي النهاية انطلقوا مع جدتي لترى الطفل الجديد ، بينما بقيت انا لأنظف الاواني .

قال معلمي بلهجة رقيقة وكأنه يحلم :

ـ جدتك تلك عجوز رائعة .

كانت كلماته تلك تبعث في نفسي شعوراً بالغبطة .. وعندما انفردت بجدتي قلت لها والالم يعتصر قلبي !

ـ لماذا تأتين إلى هنا ؟ افلا تعرفين داخليتهم ؟

ـ آه يا اليوشا ، فانا أعرف كل شيء .

اجابتني بهذا وهي تتأملني وابتسامة رقيقة تراود شفتيها ، وسرعان ما احسست بالخجل ! من المؤكد انها عرفت كل شيء ورأته ، حتى انها كانت تعلم ما يدور في سريرتي تلك اللحظة .

وبعد ان تلفتت حولها بحذر شديد لترى ان كان ثمة شخص قريب منا ، فعانقتني بتأثر بالغ :

ـ بالطبع ما كنت لآتي الى هنا لولاك ، فما حاجتي بهم ؟ جدك مريض وانا اعتني به ولا اشتغل شيئاً . لذلك لست املك نقوداً .. وقد طرد ولدي ميخائيل ولده ساشا، وهكذا وجدت نفسي مضطرة الى تقديم الطعام والشراب له . وقد وعدوا بأن يدفعوا لك ستة روبلات في السنة ، فقلت في نفسي لعلهم يدفعون لي روبلا واحداً الآن . ها قد مضى قرابة ستة اشهر وأنت تعمل عندهم . اليس كذلك ؟

ودنت مني اكثر من ذي قبل واخذت تهمس في اذني :

ـ لقد طلبوا مني ان اوبخك على اعمالك . فانت لا تطيع أحداً .. جرب ان تتحمل ذلك سنة او سنتين حتى تقوى عزيمتك..

فاعطيتها وعداً بذلك. بيد ان الامر كان قاسياً عليّ ، فقد جثم عليّ البؤس بنائه ، وغرقت في ذلك الوجود الممل ، واصبحت ادور منذ الصباح حتى المساء طلباً للقوت . فقد كنت أعيش في شبه عالم شرير .

وفي بعض الاحيان كنت انوي الفرار ، بيد أن الشتاء الشرير يقعدني برياحه



جوركي وستالين

العاصفة الثلجية ، فالرياح في الطابق العلوي تعوي قرب النافذة واخشاب السقف تنحني تحت عبء الجليد . فكيف أستطيع الهرب ؟

لم يكن يسمح لي بالخروج من الدار للهو . وفي الواقع لم يكن عندي الوقت الذي يسمح لي بأن ألعب ، ومضت ايام الشتاء المضجرة في دوامة من الأعمال المرهقة .

وخلال الصوم الكبير أرغمت على تناول القربان ، فقصدت إلى جارنا ، الأب دوريميدونت بوكروفسكي ، كي اعترف له بخطاياي . وكنت اعتقده إنساناً قاسياً . وانا ما زلت اذكر الخطايا الكثيرة التي اتيتها بحقه . لقد افسدت كشكه في الحديقة برميه بالحجارة ، وتشاجرت مع أولاده واقترفت عدة جرائم لا بد وان تثير نقمته ضدي . كل هذا كان يجول في خاطري وانا اقف في الركن القذر من الكنيسة انتظر دوري في الاعتراف . وقلبي يخفق بشدة .

لكن الأب دوريميدونت تلقاني بترحاب لطيف قال :

— آه ، يا جارنا ! حسناً إركع على ركبتيك وقص علي خطاياك .

والقى على رأسي بقطعة من المخمل الثقيل ، فإذا برائحة البخور والشمع تضيق انفاسي ، وتجعل من الصعب عليّ ان اقول الكلمات التي لم تكن بي رغبة في النطق بها .

— هل تطيع من هو اكبر منك سناً ؟

— كلا .

— قل : « انا مخطىء » .

فانفجرت وقد تملكتني الدهشة :

— لقد سرقت قربان الذبيحة من الكنيسة .

فاستوضح الكاهن في تؤدة ، بعد أن فكر ملياً :

— ماذا تقول ؟ أين ؟

– في كنيسة الاقمار الثلاثة ، وفي كاتدرائية بوكروف ، ونيقولا .
– مهلاً، هل تقصد انك سرقت من جميـع الكنائس؟ هذا عمل غير مستحب يا ولدي ، خطيئة ، اتفهم ؟

– أجل .
– قل : « انا مخطىء » . ايها الفتى الاحمق ، هل سرقت القربان لتأكله ؟
– في بعض الاحيان كنت آكله واحياناً اخرى ، كنت عنـــدما أخسر نقودي في اللعب أضطر ان احضر خبز القربان الى البيت ، ولذلـــك كنت اسرقه .

فدمدم الأب دوريميدونت ببعض الجمل المقتضبة في صوت هـامس . وطرح عليّ بعض الاسئلة الاخرى . ثم سألني على حين غرة في صوت حاد :
– هل قرأت كتباً طبعت بصورة خفية ؟
فلم ادرك معنى سؤاله .
استوضحت :
– ماذا ؟
– كتباً ممنوعة ، هل قرأت منها شيئاً .
– كلا لم أقرأ منها شيئاً .
– حسناً ان خطاياك مغفورة . قف
تأملت وجهه في شيء من الدهشة . كان محياه لطيف ينم عن تفكير عميق . فأحسست بالخجل . وكانت معلماتي قـــد ارسلتا بي الى الاعتراف واخبرتاني بأشياء عدة رهيبة لتخيفاني وتجعلاني أعترف بكل شيء .

قلت :
– لقد رميت كشك حديقتك الصيفي بالحجارة .
فرفع الكاهن رأسه :
– وهذا كذلك عمل سيىء ، هيا إمضى الآن .

– وكلبك ايضاً

فقال الاب دوريميدونت ، وقد حول انظاره عني :

– من دوره الآن ؟

مضيت وانا اشعر بشيء من الخيبة والاذية . فان هـذا الانتظار قد ارهـق اعصابي وانتهى الى لا شيء . وكان الشيء الوحيد الباعث على الاهتمام هو سؤاله عن تلك الكتب السرية ...

١٨

وفي النهاية مع اطلالة الربيع لذت بالفرار .

بينما كنت ابتاع خبز الفطور في صباح ذات يوم . كان الخباز يتشاجر مع زوجته . فرماها بأحد الاوزان الثقيلة على جبهتها ، فعدت الى الشارع حيث تهاوت وسقطت على الارض . وتجمع الناس حولها ، ثم نقلوها بواسطة عربة إلى المستشفى . فعدوت وراء العربة وبعد ذلك ولسبب لست ادري كنهه ، وجدتني على ضفة الفولغا وفي يدي عشرون كوبيكاً .

كان النهار ضاحكاً ربيعياً ، والفولغا قد ازدادت مياهه ، والارض تمتد شاسعة حتى تعانق الافق بينما انا ، قد امضيت عمري حتى ذلك اليوم كفأرة تعيش في جحرها . وتم رأيي على ان لا ارجع إلى منزل رب عملي . والا أعود إلى منزل جدتي في شارع كونافينو ، بحيث اني لم أفِ لها بوعدي ، فأصبحت أخجل أن أراها . وعلاوة على ذلك أن جدي سيعلق على عود بلهجة هازئة .

بقيت طوال ثلاثة ايام اتجول على ضفة النهر ، أتناول طعامي من عند الحمالين الطيبين وفي الليل انام معهم في مخازن للبضاعة . واخيراً قال لي احدهم

ــ لا فائدة من تجوالك هنا يا فتى ، لماذا لا تشتغل في المركب ؟ انهم بحاجة الى غسّال للصحون .

فقصدت المركب لتوي .. تأملني رئيس الخدم ، وهو شاب طويل القامة ذو لحية يرتدي قبعة حريرية سوداء ، وقد تربعت نظارتان فوق عينيه .

قال بصوت رزين :

ـ روبلان في الشهر هل معك هوية ؟

لم يكن لدي هوية .. ففكر رئيس الخدم لحظة ثم قال :

ـ آتني بوالدتك .

فقصدت جدتي ، فوافقت على ذلك واقنعت جدي بان يقصد غرفة التجارة كي يحصل على هوية لي . حتى ان جدتي اصطحبتني الى المركب .

قال رئيس الخدم وهو يسترق النظر الينا :

ـ حسناً ، هيا بنا .

ورافقني الى مؤخرة المركب حيث شاهدت طاهياً ضخم الجثة ، قد تدثر بمئزر ابيض وقبعة بيضاء قد جلس الى الطاولة يرتشف الشاي وينفث الدخان من لفافة غليظة . دفعني رئيس الخدم نحوه قائلاً :

ـ غسال صحون .

وتوارى مسرعاً . بينما ارتفع صوت الطاهي وهو يزعق خلفه :

ـ انك تأتي بالشيطان نفسه ، على أن يأخذ أجراً شحيحاً !

ولوح ، بغضب شديد ، برأسه الى الوراء وحدجني بعينين داكنتين . ونفخ خديه وزعق بي :

ـ من أنت ؟

لم يرق لي ذلك الرجل مطلقاً . كان يبدو قذراً بالرغم من ثيابه البيضاء التي كان يرتديها . كانت اصابعه مغطاة بالشعر حتى ان شعراً طويلاً كان يتدلى من أذنيه الكبيرتين قلت :

ـ إنني جائع .

فطرف بعينيه، وفجأة تبدلت اسارير وجهه الخشن، واخذ خداه يترجعان الى اذنيه كاشفين عن أسنان شبيهة بأسنان حصان ...

وافرغ ما بقي في كأسه من فوق حافة المركب ، وسكب كأساً لي قدمها مع قطعة من الخبز الابيض وقطعة كبيرة من اللحم المقدد :

– كل . هل لك أب أو أم ؟ هل تعرف السرقـــة ؟ لا تجزع فالجميع هنا لصوص ، سوف اعلمك عاجلا .

كانت نبرته تصدر كالنباح. كان انفه المتورد يتدلى فوق شاربيه بينما اندلقت شفته السفلى في ازدراء ، وقد اندست لفافة بين شفتيه ..

وما ان انتهيت من طعامي حتى نقدني روبلا .

– امضِ وابتع لك مئزرين ومريلتين . انتظر ! سأشتري ذلك بنفسي .

واصلح من وضع قبعته ونزل عن سطح المركب ، يترنح كالثمل ويدب على الارض بقدميه كالدب .

* * *

عندما بدأ الليل يخيم بسواده الحالك واطل القمر من خلف الروابي ، كان مركبنا يسير. فجلست اتأمل المنظر فشاهدت القمر مسرعـــاً يلوذ بالهرب الى الروابي الشاسعة بينما تناثرت المياه الفضية خلف مركبنا وتحت المجاذيف .. كانت المياه تعكس صورة المنظر القائم على الضفتين تاركة انعكاسات تلتمع في خطوط طويلة .. بينما كانت اغان قروية تأتينا من البعيد ...

كان مركبنا يقطر مركباً آخر اقيم على ظهره قفصاً من الحديدزج فيه سجناء حكم عليهم بالنفي والاشغال الشاقة . بيـنما التمعت حربة الحارس في ضوء القمر كشمعة تومض . وقد تراءت لي النجوم في السماء اللامتناهية كشمعات صغيرة . كان السكون مخيماً على الجو لا تسمع غير صوت تكسر المياه خلف المركب .

لقد راعني منظر ذلك القارب ، فاذا بي أجلس ساعات طويلة أتأمله وهو يدس أنفه الضخم في المياه جاراً المركب البخاري خلفه كخنزير قد شد الى الحبل . كنت اشعر برغبة ملحاحة بالقاء نظرة قصيرة على اولئك الاناس الذين يقبعون كالحيوانات في ذلك القفص الحديدي . وعندما انزلوهم إلى اليابسة في بيرم ، اعتليت جسر القارب وقبعت أتأملهم . فاذا بمخلوقات رمادية تمر امامي. والسلاسل تقرقع في ارجلهم... كانوا رجالاً ونساءً شباباً وشيوخاً كبقية البشر وقد شوهت اساريرهم لان شعورهم قد قصت . والواقع انهم من قطاع الطرق ، بيد ان جدتي قد حكت لي اشياء كثيرة جميلة عن قطاع الطرق !

كان الطاهي سموري يشبه احد قطاع الطرق البائسين اكثر من أي واحد منهم .

كان يدمدم وهو يتأمل القارب بنظرات شرسة !

— لتحمني السماء من هذا المصير !

وذات يوم قلت له :

— كيف غدوت طاهياً بينما اصبح الآخرون قتلة وقطاعي طرق ؟

فاجابني وهو يشخر :

— انا لست طاهيا . انا رئيس الطهاة ، ان النساء طهاة .

ثم اردف بعد فترة من التفكير :

— ان الفرق بين البشر موجود في رؤوسهم . فهناك اناس اذكياء وآخرون بلهاء واغبياء . وباستطاعتك ان تصبح ذكياً اذا طالعت كتباً مختارة كالسحر الاسود وما شاكله . ينبغي أن تطالع جميع الكتب . فهي الاسلوب الافضل في انتقاء المفيد منها .

وكان لا يفتأ يردد على مسامعي :

ـ إقرأ كثيراً . واذا لم تدركه فأقرأه سبع مرات ، حتى اثنتي عشرة مرة اذا لم تفهمه جيداً .

كان الطاهي سموري يكلم الجميع بلهجة خشنة وقحة ، حتى رئيس الخدم الهادىء . وعندما يتحدث يرخي شفته السفلى في اشمئزاز ويعقص شاربيه ، ويتفوه بالكلام بشكل يثير القرف . ومع ذلك كله فقد كان لطيفاً معي وطيباً كذلك ، وكانت تلك الطيبة ترهبني وتخيفني . وفي بعض الاحيان كنت اشعر ان الطاهي ليس طبيعياً كأخت جدتي .

كان يقول :

ـ توقف عن القراءة !

ويتمدد فترة من الزمن وقد اغلق عينيه ، تتصاعد انفاسه من انفه بخشونة بالغة . بينا تأخذ بطنه السمين بالاهتزاز ، وقد وضع يديه فوق صدره بصورة متصالبة . . .

. . . وفجأة يدوي صوته مدمدماً :

ـ مثلا الدماغ : لو اخذته بين يديك ما يمكنك ان تصنعه به : ان الادمغة قد وزعت بشكل متفاوت . ليت الجميع يمتلكون نفس القدر منه . . . هذا الفتى يدرك والثاني لا يدرك بينا الآخر لا يملك رغبة في الادراك .

ويأخذ يقص عليَّ بكلمات متعثرة نتفاً من حياتة وهو جندي . ولم استطع ان ادرك اية فائدة لاقاصيصه . فهي دائماً عديمة المنفعة خاصة وانه لا يبتدأ بسردها منذ بدايتها بل من حيث تدعوه مخيلته .

ـ وهكذا نادى آمر الفرقة الجندي وسأله: بماذا أمرك الملازم ؟ فاجابه بكل شيء ، كما جرى فعلا ، لان من واجب الجندي ان يقول الحقيقة ، وتأمله الملازم وهو يقف امامه كجدار من الحجر ، ثم تحول عنه وأغلق عينيه . .

فيزفر الطاهي باشمئزاز ، ويدمدم :

ـ كأنني كنت ادرك ماذا يجب على المرء ان يقول ، وماذا ينبغي الا يقول وقادوا الملازم إلى السجن ، أما والدته .. اوه ، يا ربي الرحيم ، ان شخصاً لم يخبرني بشيء !

كانت الحرارة مرتفعة ، والمركب يهتز بلطف ووراء المركب كان رذاذ الماء يتطاير .. لقد تعودت اذني الهدوء فاجد فيه راحة لا متناهية .. وتمنيت ان أبقى بعيداً عن الجميع ، عن كل شيء ، عن العمل ، واجلس في مكان وارف الظلال ، ليس فيه رائحة المطبخ العابقة بالدهينات . وان اتأمل في شبه غفوة تلك الحياة المرهقة التي تطفو على سطح الماء .

أمرني الطاهي بقسوة :

ـ إقرأ !

كان الخدم في المرتبة الأولى يرهبونه ، كذلك رئيس الخدم الهادىء .

كان الطاهي سموري يزعق بالخدم :

ـ ايها الخنزير ! اقترب مني يا لص ! أيها المتوحشون !

كان الخدم يعاملونه باحترام لكنهم كانوا يتملقونه ويتزلفون اليه . وكان يزيد لهم مقدار اللحم ، ويستوضح عن احوال عائلاتهم وحياتهم في القرية . كان الوقادون الاوكرانيون ، السمينو الجثة ، المقطبي الوجوه ، يعتبرون حثالة المركب . وكان الروسيون يطلقون عليهم لقب البقر . فكانوا يثيرون غضبهم بقولهم :

ـ يا بقرة ، يا بقرة ، ماذا في الحفرة ؟

كانت هذه العبارة تثير النقمة في نفس سموري . فينتفض ويتورد وجهه ويصرخ بالوقادين :

ـ لماذا تسمحون لهم بالهزء منكم ، بحق الجحيم ! هشموا لهم أفواههم ، يا لهم من أوغاد !

واتجه نحوه نوتي سمين الجسم ، انيق وقال له :

ـ الروسي والاوكراني ! لا فرق بينهما .

فهجم عليه الطاهي واخذه من حزامه وياقته ، ورفعه عن الارض وجعل يطوح به في الهواء .

صرخ به :

ـ هل تريد ان اسحقك سحقاً ؟

وغالباً ما كانت تلك المشادات تنتهي إلى الشجار ، بيد انه لم يكن من أحد يجرؤ على ضرب سموري . لانه كان اولاً ذو قوة خارقة وثانياً لانه كان على علاقة طيبة مع امرأة القبطان ، وهي إمرأة طويلة القــــد ، بهية الطلعة يتدلى شعرها الاملس على وجهها المترجل .

كان يتناول كميات كبيرة من الفودكا ، لكنه لم يحدث ان ثمل مرة واحدة فهو يبدأ مع طلوع الصباح بجرع زجاجة على اربع دفعات ، ويحتسي الجمة طوال النهار . ويأخذ وجهه بالتورد شيئاً فشيئاً ، وتتسع حدقة عينيه كالمدهوشتين .

وفي بعض الاحيان كان في الامسيات يفتقد ارض المركب ويأخذ في تأمل المنظر النائي البعيد. وفي تلك اللحظات كان الجميع يرهبونه أما أنا فكنت أشعر بشفقة نحوه .

كان مساعد الطاهي ياكوف ايفانوفيتش يخرج من المطبخ والعرق يتصبب منه ، يلوح بيده من البعيد وهو يزعق :

ـ ان السمك قد تلف .

ـ إعمل منه سلطة .

ـ واذا اراد احدهم شوربة السمك أو عجة ؟

- هيئه له . سيلتهمون أي شيء تقدمه لهم .

وفي بعض الاحيان كنت أجد الجرأة بالدنو منه .

ويلتفت اليّ جاهداً ، ويستوضح :

- ماذا تريد ؟

- لا شيء .

- حسناً .

وذات مرة قلت له :

- لماذا يرهبك الجميع بهذا الشكل ؟ مع انك طيب القلب.

وقد كانت دهشتي بالغة عندما وجدت ان سؤالي لم يثر غضبه .

أجابني قائلاً :

- انني طيب القلب في معاملتك وحدك .

ثم اردف في لهجة تأملية رقيقة :

- قد اكون طيب القلب مع الجميع ، بيد انني لا اظهر ذلك . ينبغي الا تظهر للناس انك طيب القلب . وإلا التهموك . فالناس يمتطون الرجل الطيب ويدوسونه كما يفعلون بقطعة ارض في مستنقع .. امضِ واتني بقليل من الجعة .

وبعد ان افرغ الزجاجة ، كأساً تلو كأس ، مسح شاربيه وقال :

- لو كنت اكبر بقليل لكنت قدعلمتك أشياء عدة ،انني ادرك شيئاً وشيئين لا باس بهما ، فلست بأبله . ينبغي ان تطالع فالكتب ستعلمك بكل ما ينبغي ان تعلم . هل تود شيئاً من الجعة .

- انا لا احبها .

- حسناً ، لا تشرب ، فالشراب مصيبة عظيمة . والفودكا شيء من اعمال الشيطان . لو كنت غنياً لبعثت بك الى المدرسة . فالمرء الجاهل كالحيوان الذي

يضعون النير في عنقه ولا يستطيع إلا الاطاعة .

واعطته إمرأة القبطان كتاباً من مؤلفات جوجول . وقرأت له « الانتقام الشديد » وقد نالت اعجابي ، بيد ان سموري ، صرخ مغتاظاً:

— سخافة وهراء ! قصة لطيفة . انني متأكد ان هنـــاك انواع اخرى من الكتب .

وانتشل الكتاب مني ، وآتاني بكتاب آخر من إمرأة القبطان .

امرني بصوت رقيق :

— خذ . إقرأ « تاراس » .. ما اسمه الثاني ؟ إقرأ الكتاب . انها تقول انه كتاب جيد . جيد بالنسبة الى من ؟ قد يكون جيداً بالنسبة اليها ورديئاً بالنسبة إلي ،هل شاهدتها كيف قصت شعرها ؟ لماذا لم تقص أذنيها ؟

وعندما وصلنا الى المقطع الذي يتحدى فيه تاراس خصمه اوستاب للمبارزة، ضحك الطاهي بصوت جهوري :

— ما قولك في ذلك ؟ احدهما يملك دماغاً والآخر يملك قوة، يا للسخرية التي يكتبون . اولئك الاوغاد !

وأرهف سمعه بانتباه زائد وهو يدمدم بين الحين والحين .

— آه، هراء ! انت غير قادر على أن تشطر الانسان من كتفه حتى بطنه بطعنة واحدة ، هذا مستحيل . وليس بامكانك ان ترفع انساناً على رأس حربة لأنها ستنكسر . افلم اكن جندياً ؟

وقد اهاجته خيانة اندريه :

— ذلك الوحش ،ماذا ؟ من اجل إمرأة ! تفو آ .

وعندما قتل تاراس ولده ، انزل الطاهي قدميه من على السرير ، وتشبث به، وشرع يبكي . واخذت الدموع تنهال على خـديه وتتساقط على الارض . زفر وهو يدمدم :

– يا إلهي ، يا إلهي !
وعلى حين غرة ، صرخ في وجهي :
– اكمل قراءتك ، يا نسل الشيطان !
وازداد نحيبه مرارة وشدة عندما هتف اوستاب بابيه قبل ان يموت :
« ابتاه ، هل تسمعني ؟ » .
وهتف سموري بصوت خافت :

– لقد انتهى كل شيء . كل شيء . هذه هي النهاية ؟ آه ، يا للنهاية اللعينة لقد كانوا في الواقع رجالاً في تلك الايام . وتاراس هذا ، بالفعل رجل حقيقي ، وحق الله !

واخذ الكتاب من يدي ، وشرع يتفحصه بامعان ، وهو يغسل بدموعه الغلاف :

– الكتاب المظيم هو عيد حقيقي !

وبعد ذلك قرأنا كتاب « ايفانهو » فنال ريتشارد بلانتاجنيه اعجابه، قال وقد اهاجته عاطفته :

– هذا ملك حقيقي .

اما انا فقد وجدت القصة تبعث على الملل .

كانت اذواقنا لا تلتقي ابداً ، فقد أعجبتني قصة « توماس جون»وهي ترجمة قديمة لكتاب « تاريخ توم جون ، اللقيط » .

دمدم سموري !

– سخافة ! ماذا يهمني في توماس هذا ؟ وماذا اريد منه ؟ لا شك ان هناك كتباً أخرى .

وذات يوم اخبرته أنه يوجد كتب اخرى ، كتب ممنوعة ، كتب سرية لا يقدر على قراءتها إلا في الكهوف بعد حلول الظلام .

فجحظت عيناه ، واهتز شارباه ، وقال :

– ما هذا بماذا تخرف ؟

– انا لا اخرف . لقد سألني الكاهن عنها ذات مرة اثناء الاعتراف . وقد رأيت من قبل أناساً يطالعونها ويتنحبون.

فحدجني الطاهي بنظرة كئيبة .

سأل :

– من الذي كان يبكي ؟

– إمرأة كانت ترهف السمع الى القراءة. وهناك إمرأة اخرى لاذت بالهرب مذعورة .

فضيق من فرجة عينيه وزعق بي :

– استيقظ فانت تحلم

واردف بعد مدة من السكوت :

– من غير شك ، ينبغي ان يكون هناك شيء سري . في مكان ما ، لا شك من وجوده .. بيد انني عجوز هرم .. ولست من ذلك النوع .. ومـــع ذلك فعندما تتأمل في الأمر ..

كان طيلة ساعات يتكلم بهذه الطريقة من البلاغة ..

واجتاحتني رغبة عارمة من غير ان اشعر بالقراءة . فكنت استسلم لهـــا مغتبطاً . ان ما تفلسفه الكتب شيء يبعث الراحة في النفس على خلاف الحياة اليومية . وهذا ما كان يحول الحياة اتعس منها قبلا ..

كذلك ازدادت رغبة سموري في الاستماع إلى الكتب ، فكان يوقفني عن العمل ، قائلا ..

– بشكوف ! تعال واقرأ .

ـ يوجد كدسة من الصحون ينبغي عليّ ان أغسلها

ـ سيغسلها مكسيم .

ويمسك بغسال الصحون الذي يفوقني سناً ويدفعـــه الى غسل الصحون .. فكان ينتقم هذا بتكسير الاكواب .

وذات مرة حذرني رئيس المركب بلهجة هادئة .

ـ سأطردك من المركب .

وتعمد مكسيم ذات يوم في ترك الاكواب في المياه القذرة فعندما افرغت الحوض في البحر من فوق المركب سقطت في الماء .

قال سموري لرئيس الخدم :

ـ انها غلطتي ، سجل ثمنها في حسابي .

واخذ الخدم يحدجونني بنظرة شذرة . كانوا يقولون :

ـ حسناً ، يا آفة الكتب ، ماذا تأتي من العمل لتستحق أجرك ؟

فكانوا يتعمدون في افساد الصحون ويكدسون العمل عليّ . واحسست ان النهاية ستكون وبالاً عليّ ، ولم أخطأ في ذلك .

ففي ذات مساء صعدت إلى المركب إمرأة متوردة الوجه بصحبتها فتاة قد التفت بمنديل اصفر اللون وكانتا شبه ثملتين . واخـــذت المرأة تبتسم للجميع وهي تنحني ، تغمغم في كلماتها كالشمّاس في الكنيسة :

ـ المعذرة يا اصدقائي فقد تناولت شيئاً قليلا ، واقتادوني الى المحكمة حيث أطلقوا سراحي بعد ذلك . فاحتسيت قليلا من الخمرة في ساعة فرحي .

وكانت ضحكة الفتاة تتعالى ، وهي تلقي بنظرات مبهمة على الجميع ،وتدفع المرأة من أضلاعها :

ـ الى الامام ، أيتها الحمقاء ، إلى الامام !

هبطت إلى عنبر الدرجة الثانية واصبحت بمحاذاة غرفة ياكوف ايفانوفيتش وتوارت المرأة بسرعة ، وجلس سيرجي إلى جانب الفتاة وقـــد اندلقت شفته السفلى في تكشيرة فاجرة .

وبعد ان انتهيت من العمـل كنت اتسلق الطاولة حيث انام ، اتى سيرجي وامسكني من يدي وقال :

ـ تعال ، سوف نزوجك .

كان ثملا ، فجربت التملص من بين يديه ، بيد انه لطمني على وجهي :

ـ تعال !

واسرع مكسيم وهو ثمل كذلك ،وانطلق بي الاثنان الى حجرتها . بيد ان سموري كان واقفاً بجانب الباب ، وقد انتصب ياكوف ايفا نوفيتش على العتبة امام الفتاة ، وهي تنهال على ظهره ضرباً بيديها :

كانت تزعق في صوت ثمل :

ـ دعني اذهب !

وانتشلني سموري من بين يدي سيرجي ومكسيم ، وامسكهما من شعرهما ضارباً الواحد بالآخر ..

صرخ بياكوف ، وهو يغلق الباب في وجهه .

ايها المتوحشون !

ثم دفعني عنه ، وهو يزعق :

ـ امضِ من هنا !

عدوت إلى مؤخرة المركب . كانت الغمائم تعبق في السماء ، والمياه داكنة ..

كانت الماء خلف المركب تتناثر شهباء في خطين ينتهيان عند الشاطىء الخفي.. وبعض المصابيح الحمراء لا تستطع بنورها شيئاً كانت تظهر تارة الى اليمين وتارة الى اليسار .. ثم تتوارى بسرعة فيبدو الليل اشد حلكة منه قبلا ، واكثر تعاسة .

واقبل الطاهي وجلس الى جانبي ، واطلق زفرة عميقـــة وهو يشعل سيجارته :

ـ هل قادوك الى تلك الفحلة ؟ الخنزيرة ! سمعتها حين هجيا عليك .

ـ هل انقذتها من وحشيتها ؟

ـ من ؟ هي ؟

ثم انهمر في سيل من السباب لتلك الفتاة . واردف كلامه بلهجة كئيبة :

ـ سوف تضيع بين هذه الخنازير . فانا ارثي لك ايها الفأر الصغير ، انني ارثي للجميع . ففي بعض الاحيان لا اعرف ما أفعل . هـــل اجثو على ركبتي واكلمهم قائلا : « ماذا تفعلون ايها الوحوش ؟ هل انتم عميان ام مـــاذا ؟ أيها الجمال ! » .

وتعالى من المركب صفير حاد ، ولطمت المرساة وجه الماء ، وشرع فانوس يتلألأ في قلب الظلمة مشيراً الى مكان رصيف الميناء ، بينا انوار اخرى باهتـــة تنبثق من قلب الظلمة .

دمدم الطاهي :

ـ غابة سكرى... لقد كان ، في الماضي ، هناك موظف يدعى سكيروف.. سأنزل الى اليابسة .

كانت بعض النسوة من مقاطعة كاما متينات البنية يحملن الحطب ، ويسرن

بخطوات وئيدة ومن يرزحن تحت عبء احمالهن ..

وبينما كن يمضـــين باحمالهن ، كان الملاحون يشبثون بهن من سيقانهن وصدورهن وبطونهن فيصرخن ويبصقن في وجوههم ... ولقـــد شاهدت الكثير في كل رحلة .. ان كل شيء يقع في كل مرة نرسي فيهـــا لنتمون بالحطب .

وتخيلت نفسي رجلاً هرماً قد عاش حياته على ظهر المركب فانني أعلم ما سيقع في الغد أو الاسبوع المقبل أو الخريف القادم .

واشتاقت نفسي البكاء ، واخذت الدموع تغلي في مقلتي ، وقد احسست بالألم ، لكنني كنت أخجل من البكاء ، فانطلقت لكي اساعد الملاح بورين في تنظيف سطح المركب .

كان بورين شاحب الوجه ، مبهم الملامح ، يبقى منعزلاً في وحدته يجلس متأملا بعينيه الصغيرتين . وذات مرة قال لي :

— في الواقع ان لقبي ليس بورين ، بل أورين ، لان والدتي كانت فاسقة ولي اخت كذلك . وهـــذا مصيرهما . ان المصير لوحـــة معلقة في عنقك فاذا اردت ان تنهض فقد يمنعك من ذلك .

وهذه المرة خاطبني ، وهو ينظف سطح المركب ، بلهجة هادئة :

— هل شاهدت كيف يرغمون على الفتيات ؟ تأمل ! باستطاعتك ان تضرم النار في غصن ندي اذا استمريت في محاولتك . وانا لا أحب ذلك يا أخي ..

ومرت بنا إمرأة القبطان رافعة ثوبها كي تتقي المياه المتجمعة ، انها دائماً اول من ينهض في الصباح . رشيقـــة القامة متينة البنية ، ذات وجه صبـــوح .. واحسست برغبة في العدو خلفها لاقول لها من كل قلبي :

- احكي لي شيئاً ما ، أرجوك ! .
وتحرك المركب بهدوء ، مبتعداً عن رصيف الميناء .
رسم بودين اشارة الصليب وقال :
- ها نحن راحلون .

* * *

١٩

في سارا بول غادر مكسيم المركب . ومضى في هدوء من غـير ان يودع أحداً . وتبعته الامرأة الجميلة التي تعلو الابتسامة ثغرها ابداً ، والفتاة البائسة الجاحظة العينين. بيد ان سيرجي قبع مدة طويلة راكعاً على ركبتيه امام حجرة القبطان يلثم مصراعي الباب ويلامسه بجبهته وهو ينتحب .

– سامحني ، لم تكن خطيئتي . انها هفوة مسكيم وحده .

كان البحارة وبعض المسافرين يصرخون انـه كاذب . بيد انهم كانوا يشجعونه قائلين :

ـ هيا ، هيا ، إبقى ، سوف يسامحك بالطبع .

وصفح عنه القبطان . بعد ان رفسه بلطمة من قدمه جعلته يتدحرج على المركب . وبعد فترة وجـيزة ، كان سيرجي يسرع الخطى على ظهر المركب حاملاً اطباق الطعام ، وهو يلقي على الجميع نظرة مقطبة ككلب اخذ نصيبه من الجلد .

وعوضوا عن مكسيم ببحار سابق من فياتكا ، ذو رأس صغير وعينين داكنتين ، وبعث به مساعد الطاهي تواً كي يذبح بعض الدجاج . فذبح اثنتين بينما انطلقت الاخريات من فوق سطح المركب . وعبثاً حاول الامساك بها قطار

منها ثلاثة من فوق حافة المركب . فاغتم الجندي كثيراً وجلس منتحباً على رزمة من الحطب أمام المطبخ .

سأله سموري بدهشة :

— ماذا جرى لك أيها الأبله ؟ من رأى جندياً ينتحب ؟

فأجابه الجندي برقة بالغة :

— انني لم أكن في صفوف المحاربين .

وفي ذلك كانت نهايته . فقد بقي المسافرون، طوال نصف ساعة ،يسخرون ويضحكون منه .

كانوا يأتون جماعات ، ويتأملون الجندي ويسألون «هو؟» ثم تجتاحهم موجة عارمة من الضحك..

بيد ان الجندي لم ينتبه في بادىء الأمر الى ما يفعلون فلم يكن يعير انتباهه إلى ضحكاتهم . . وسرعان ما بدأت عيناه تقدحان شرراً فيأخذ يدندن بلهجة أهالي فياتكا قائلاً :

— لماذا تحملقون فيّ ؟ إذهبوا إلى الشيطان . وابقوا عنده إلى الأبد !

لكن لهجته تلك كانت تزيد من قهقهة القوم فيأخذون في شد قميصه ومئزره ويعملون على مضايقته من غير رحمة أو شفقة حتى جاء وقت الغداء . وبعد انتهاء الغداء علق أحدهم قشرة ليمونة في طرف ملعقة خشبية ثم ربطها بحبل مئزره . فأخذت الملعقة تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار مع خطوات الجندي فغرق الجميع في الضحك . ويضطرب هو كفأرة في قفص من غير ان يخمن السبب .

كان سموري يراقبه من غير أن يقول كلمة واحدة ، وقد عطف عليه ولانت ملامحه .

وشعرت بالشفقة على ذلك الجندي .

سألت سموري :

– هل استطيع أن أخبره بشأن الملعقة ؟
فهز رأسه علامة الإيجاب

وما كدت انتهي من إخباره عن السبب الذي يثير ضحك الجميع حتى اختطف الملعقة وضربها بالارض وداس عليها ، ثم أمسكني من شعري بكلتا يـــديه . وشرعنا نتشاجر ، مثيرين السرور في أنفس المشاهدين الذين سرعان ما التفوا حولنا .

وشق سموري طريقه بين هذه الجمهرة وأبعـدنا عن بعضنا ، وشد على أذني وقد أمسك الجندي من أذنه. وتعالى ضحك الجمهور وهم يرون ذلك الشاب الفارغ القامة يحاول الافلات من الطاهي ...

.. وافلت سموري الجندي والتفت نحو القوم كثور هائج ، ويـــداه وراء ظهره وقد كشر عن أسنانه وأخذ شارباه يتراقصان .

– كل واحد إلى مكانه ، اذهبوا أيها المتوحشون !

والقى الجندي بنفسه مرة ثانية عليّ ، لكن سموري انتشله بيد واحدة ورفعه إلى المغسلة ووضع رأسه تحت الماء وضغط على جسمه كأنه دمية في يده .

واتى بعض الملاحين وهم يهرولون ، والتفت من جديد حولهم جمهرة مـــن الناس . وظهر وجه رئيس الخدم فوق الجميع هادئاً رقيقاً كعادته .

وقبع الجندي على رزمة من الحطب وخلع حذائيه بيـدين مضطربتين .. كانت المياه تتساقط من شعره المشعث ، الشيء الذي أثار موجة مـن الضحك عالية ..

زعق الجندي بصوت حاد :

– انتظروا قليلاً .. سوف أقضي على ذلك الصبي !

قادني سموري أمامه بينما أخذ البحارة يفرقون تلك الحشود .

وأقبل سموري ، بعد أن انصرف الناس ، الى الجندي قائلاً :

– ماذا سنفعل بك ؟

فلم يحر الجندي جواباً . كان يحدجني بنظرة قاسية وهو يرتعش بشكل غريب .

– عشرة ايام سجن ، يا ثرثار .

فأجاب الجندي :

– هراء ! لسنا هنا في الجيش !

ولاحظت أن ذلك أفقد صواب الطاهي ، فتكورت وجنتاه وبصق . ثم انطلق راجعاً وهو يصطحبني معه . كانت فرائصي ترتعد من الخوف فأخذت استرق النظر إلى ذلك الجندي بيد أن سموري دمدم قائلاً :

– فق مشاغب ؟ هيا بنا الآن .

ومشى سيرجي في أثرنا ، وقال بصوت هامس :

– انه يريد أن يقطع عنقه بالسكين !

فصرخ سموري :

– ماذا ؟

واقفل راجعاً وهو يعدو

كان الجندي يمسك بسكين عريضة الشفرة تستعمل لقطع رؤوس الدجاج وفصم أخشاب الموقد . وقد تجمهر جمع من الناس أمام الحجرة يتأملون ذلك الرجل الصعلوك بشعره المبتل . كان أنفه الأفطس متورداً وقد اضطربت شفتاه وهو يفغر فيه ويدمدم من غير توقف :

– شياطين شيا .. ط .. ين !

وعندما أخذ يصلح من وضع قميصه وأعادته تحت السروال قال رجل كان يقف بجانبي ، وهو يبعث بزفرة عميقة :

– إذا كان سينتحر فلماذا يصلح من وضع قميصه ؟

فعلا ضحك الناس . كان من المؤكد أن أحداً منهم لا يصدق قدرتـــه على الانتحار . كذلك لم أصدق أنا ، بيد أن سموري بعد أن حدجه بنظرة عجلى ، أخذ الجمع يفرق ببطنه ، وهو يزعق :

— ابتعدوا من هنا ، أيها البلهاء !

كان شغوفاً باستعمال هذه الكلمة كصيغة للجمع ، فهو يدنو من حشد مـــا ويخاطبهم جميعهم بقوله :

— ابتعدوا ، أيها البلهاء .

كل ذلك كان مدعاة للتسلية ، والواقع أن ذلك اليوم كان الناس جميعاً قـد أصبحوا رجلاً واحداً أبلهاً .

وبعد أن فرق ذلك الحشد اقترب من الجندي وأمسك به من يده :

— اعطني هذه السكين .

فأجابه الجندي بينما كان يعطيه السكين :

— لا جدوى من ذلك الآن .

ناولني الطاهي السكين ثم دفع بالجندي إلى داخل الغرفة .

— تمدد وخذ قسطاً من الراحة . ماذا جرى لك ؟

وقبع الجندي من غير أن ينبس ببنت شفة .

— سوف يأتيك بشيء مـــن الطعام مع قليل من الفودكا . هل تحتسي الفودكا ؟

— قليلاً .

— إياك أن تلمسه . فليس هو من هزأ بك . هل تسمع ؟ أنا أقول لك بانــه ليس هو من هزأ بك .

فاستوضحه الجندي بلهجة كئيبة :

— لماذا يؤلمونني بهذه الصورة؟

فركن سموري إلى الصمت برهة ثم قال :

- هل تعتقد إنني أعلم لماذا ؟
ثم عدنا أدراجنا سوية إلى المطبخ .
ونحن في الطريق . همس سموري قائلاً :
- لقد وجدوه نموذجاً فقيراً يائساً من غير شك . هل شاهدت ذلك ! قد يحملوك على الجنون . انهم قادرون على ذلك .. !
وعندما أحضرت قليلا من الخبز واللحم والفودكا إلى ذلك الجندي . كان يجلس منتحباً مثل النساء هازاً جسده إلى الوراء والامام .. وضعت الأكل على الطاولة ثم قلت :

- كُلْ .
- أوصد الباب .
- حتى تسود الظلمة .
- أوصد الباب وإلاّ عادوا إليّ .
ومضيت .. كنت أكره ذلك الجندي . فهو لم يبعث في قلبي أية شفقة . وهذا ما كان يزعجني . لأن جدتي كانت تخاطبني دائماً :

- ينبغي أن تشفق على الناس ... اولئك التعساء الذين يكدون طوال حياتهم ...
وعندما بلغت المطبخ أقبل عليّ الطاهي مستوضحاً :
- هل ناولته الأكل ؟ حسناً . كيف حاله الآن ؟
- إنه ينتحب .
- يا للشيطان ويدعي أنه جندي ؟
- انني لا أشعر بشيء من العطف تجاهه .
- ماذا تقول ؟

- وينبغي على المرء أن يعطف على الجميع .

فأمسكني سموري من يدي وضمني اليه وهو يقول بلهجة رقيقة :
ـ انت لا تقدر أن تجبر نفسك على الشعور بالعطف ، والكذب نتيجة سيئة. هل تسمعني ؟
وأفلت يدي ، أردف مقطباً :
ـ هذا مكان ليس لك . خذ لفافة .
.. في الليالي الحارة كان الجـــو لا يحتمل تحت السقف المدني الذي يمتص الحرارة طوال النهار . فكان البحارة يجتمعون في مكان ما ، وينامون حيث يحلو لهم . وعندما يتوقف المركب كان البحارة يوقظونهم بالضرب والرفس :

ـ هيا ، نظفوا المكان ! إرجعوا الى أماكنكم !
فينهضون ، ثم يتفرقون هنا وهناك والنعاس يعتمل في أعينهم .
كان ما يميز البحارة عن سائر الركاب ثيابهم وحدها . ومع ذلك فقد كانوا يصدرون اليهم الاوامر كأنهم رجال شرطة .
كان الشيء الذي يلفت الأنظار أكثر من أي شيء آخر هو استسلام الركاب المفجع .. فقد كنت أشعر ان هؤلاء الناس لا يعلمون الى أين يسيرون ، وكانت وجوههم تعبر انهم غير مبالين بالجهة التي سيقودهم اليها المركب ..

وذات ليلة ، بعد أن انتصف الليل ، تحطمت احدى الآلات بانفجار شديد مدو . وسرعان ما غص سطح المركب بسحابة كثيفة مـــن الدخان الابيض اندفع من غرفة الآلات ...

كنت أرقد بالقرب من غرفة الآلات على المائدة التي أغسل فوقها الصحون وعندما استيقظت على دوي الانفجار كان كل شيء قـــد عاد الى السكون والهدوء . وأخذت الآلات تبعث بصوت يشبه الوشوشات وأصوات المطرقـة يقرقع بنغمة مسرعة . ولم تمض بضع ثوان حتى كان الركاب على سطح المركب

يزعقون وينبحون بصورة مرعبة فعلاً . ويصطدمون ببعضهم بعضاً ويتعثرون بالحقائب والصرر ، وهم يستغفرون الله والقديس نيقولا ، كان المشهد مرعباً ، بيد انه يبعث على الاهتمام . وأخذت اعدو خلفهم كي القي نظرة وأدرك مـــا جرى .

لقد كانت تلك الحادثة في ليلة تنذر بالخطر التجربة الأولى في حياتي . لذلك أخذت اشعر أن ذلك كله لم يكن غير خطيئة .. وبقي الناس ينطلقون من هنا وهناك في شبه جنون . وأسرع مسافروا الدرجات الأولى فأطلوا برؤوسهم على السطح فقفز أحدهم وتبعه الباقون . وزعق سيد ضخم الجثة وهو لا يرتدي غير سروال واحد ضارباً صدره بقبضة يده :

ـ هل هذا مركب ؟ أيها الأبالسة !

وتواثب البحار هنا وهناك، يجرون الناس من ياقاتهم ويلكمونهم على رؤوسهم ويدفعونهم جانباً . وانطلق سموري بتثاقل وقد تدثر بمعطف ثقيل .

أخذ يزعق في وجه الجميع بصوت أشبه بالرعد :

ـ ألا تخجلون قليلا . هل فقدتم عقلكم ؟ إن المركب شديد فهو لايغرق . هنالك صخرة في مجرى النهر ..

وشرع يهـــوي بقبضته على رؤوس الركاب فينطرحون على الارض كالأكداس .

وقبل ان تخفت الضجة انطلقت سيدة ترتدي قبعة على رأسها ممسكة بلعقة في يدها تهزها في وجه سموري ، وتصرخ :

ـ كيف تجرؤ على ذلك ؟

وأمسك بها رجل ، ودفعها إلى الوراء .

قال في تبرم ، وهو يقرص شاربيه :

ـ اتركيه وشأنه ، هذا المتصلب الرأس .

وهزّ سموري بكتفيه . وقد اعتراه شيء من الاضطراب والتفت نحوي قائلاً :
ـ هل أعجبك ذلك ؟ ماذا تريد مني هذه المرأة ؟ انني لم أشاهد وجهها من قبل أبداً .

لقد شاهدت مثل هذه الحادثة المرعبة مرتين خلال الخريف وفي تلك المرتين لم يكن الخطر السبب الحقيقي ، بل الخوف المطلق من ذلك الخطر . وفي المرة الثالثة القى المسافرون القبض على لصين كان أحدهما يتنكر في ثياب راهب . واخذوهما بعيداً عن أعين البحارة وانهالوا عليهما ضرباً ولكماً طوال ساعة كاملة ، وعندما أنقذهما البحارة في النهاية . هرع الجمهور واطبق عليهم زاعقاً :
ـ لصوص يحمون لصوصاً ، نحن نعرف طينتكم !
ـ انتم كذلك لصوص ، لأجل ذلك تخافون ان يفلتوا منكم !
لقد ضُرب اللصان ضرباً مبرحاً ، حتى انهما كانا عاجزين عن الوقوف على اقدامهما حين اخذتهما الشرطة في المحطة التالية .
كانت أمثال هذه الحوادث تقع غالباً ، وبطريقة خطرة تبعث على التساءل ما إذا كان الناس اشرارا أم طيبين بالفطرة ..

وإذا ما سألت الطاهي هذا السؤال . فانه سيحجب وجهه بدخان لفافته ويجيب بلهجة ملؤها الضيق :
ـ وماذا يعنيك في ذلك ؟ الناس هم الناس . واحد ذكي وآخر أبله . ينبغي أن تطالع الكتب وتقرأ وتكف عن تعذيب نفسك . وسوف تجد الأجوبة في جوف الكتب . إذا كانت هذه الكتب من النوع الجيد .
لم يكن سموري يحب الكتب الدينية أو سير القديسين . كان يقول :
ـ انها تعني الكهنة ، أو أبناء الكهنة .
وذات مرة عزمت أن أقوم بخدمة طيبة نحوه . فقررت أن أقدم له كتاباً . فاشتريت في قازان كتاب « كيف أنقذ جندي حياة بطرس الاكبر » . وكان الطاهي في ذلك اليوم ثملاً وقد عزمت أن أقرأ له تلك «الاسطورة» قبل ان

اقدمها له . وقد أعجبتني بشكل غريب ، فهي في غاية الوضوح والبساطة ..
وكنت متأكداً من ان هذا الكتاب يبعث في نفسه الغبطة العميقة.

وما كدت ان اناوله إياه حتى اخذه بيده ومن غير أن يقول كلمة واحدة قد قذف به في النهر .

قال في غلاظة :

ـ هذا كتابك ، أيها الابله ! انني هنا أعلمك طوال الوقت وانت مثل كلب الصيد لم تزل تلتهم العصافير .

ولطم الارض بقدمه ، وزعق بي :

ـ اي نوع من الاسماء تسمي هذا الكتاب ؟ لقد قرأت هذه السخافات جميعها ! هل ما كتب فيه صحيح ؟ تعال ، قل لي !

ـ لست ادري .

ـ حسناً . انا اعلم . لو انهم اقتطعوا رأس اول فتى ، لكان تدحرج على الدرج وكان الآخرون ما جرؤوا على الذهاب الى مخزن العشب ليس الجنود بحمقى كان باستطاعتهم ان يضرموا النيران في العشب اليابس ويضعون حداً لذلك. هل تسمع ؟

ـ اجل .

ـ اذن ، هذا ما يقع . انني اعلم كل شيء عن ذلك القيصر بطرس ، ان شيئاً من هذا لم يقع له مطلقاً ، اذهب من هنا !

وتأكدت ان الطاهي كان مصيباً . بيد انني ما زلت معجبا بالكتاب وابتعت «الاسطورة»، وطالعتها مرة اخرى فدهشت لذلك اذ وجدت ان الكتاب لا يساوي شيئا في الواقع . فخجلت من ذلك ، واخذت ارنو الى الطاهي باحترام كبير واخلاص متزايد ، بينما كان هو لا ينفك يقول :

ـ ماذا ! ينبغي ان تدرس ، هذا المكان لا يناسبك !

وقد احسست فعلاً ان هذا المكان لا يناسبني ، وكان سيرجي يعاملني

بكراهية . وقد ضبطه مرات عدة يسرق أدوات الشاي من على طاولتي ويبيعها إلى المسافرين ...

وقد نبهني سموري أكثر من مرة .

ـ حذار من أن تترك الفرصة للخدم كي يسرقوا السكاكين والشوك من على مائدتك .

كانت أشياء عدة تقع على سطح المركب تنذرني بالسوء والشر . لذلك أخذت أفكر في ترك المركب في المحطة المقبلة والهرب إلى الغابات . بيد أن سموري كان يحول دون ذلك ، وهذا ما جعله يكبر من أهميته عندي . لكن حياتي على ظهر المركب انتهت بخاتمة مخجلة مجتزأة . ففي ذات مساء ، وكنا نبحر من قازان إلى نيجني نوفجورود ، بعث الناظر في طلبي . وعندما مثلت أمامه أوصد الباب وتوجه إلى سموري، الذي كان يقبع على كرسي مكتئب الوجه وخاطبه قائلا :

ـ هذا هو .

ثم سألني بحدة :

ـ هل كنت تعطي الملاعق والسكاكين وحوائج اخرى إلى سيرجي ؟

ـ لقد كان يأخذها بنفسه عندما أكون غائباً .

فقال الناظر بلهجة هادئة :

ـ انك لم تشاهده يقوم بذلك ، بيد انك كنت تعلم انه يفعل ذلك .

لطم سموري ركبته بقبضة يده ، ثم حك مكانها وقال :

ـ مهلاً ، فليس من شيء يدعو إلى العجلة

ثم طرق مفكراً

تأملت الناظر من خلف نظارتيه ، واخذ هو يحدق بي ..

واستوضح سموري بعد فترة من السكون :

ـ هل نقدك سيرجي فلوساً ؟

ـ كلا

ـ مطلقاً ؟

مطلقاً .

فالتفت سموري إلى الناظر وقال :

ـ انه لا يكذب .

فأجابه هذا الأخير بلهجة هادئة :

ـ ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .

وعندما وصلت إلى نجني نوفجورود انهى الناظر حساباته معي . فنقدني شيئاً يشبه ثمانية روبلات ، وكان هذا المبلغ أول مبلغ كبير أربحه في حياتي.

التفت بي سموري وهو يغادرني

ـ يجب أن تبقي عينيك مفتوحتين في المستقبل . هل تسمع ؟ ينبغي ألا تصبح صياداً للذئاب !

وملأ يدي بكمية ضخمة من التبغ .

ـ خذ هذا ، انه عمل بديع قد أتاه ابني من أجلي في المعمودية . حسناً ! الوداع . يجب أن تقرأ الكتب ، وهو خير عمل تأتيه .

وأمسكني من تحت ابطي وطوح بي في الفضاء ثم قبلني ورفعني على رصيف المرفأ . واحسست بشيء من الاسف على فقده . ولم أستطع أن أحبس دموعاً الا بصعوبة متناهية . وانا اتأمل ذلك الرجل الضخم الجثة ، الوحيد الذي يفسح طريقه بين الحمالين قافلاً الى المركب ...

ووقفت لحظة وانا اتأمل هؤلاء الناس الذين لفظتهم الحياة وشاءت الصدف ان التقي بهم في السنوات الأخيرة !

انتهى